
أضواء
على الأدب الحديث

الدكتور
أحمد محمد الحوفي
عضو مجمع اللغة العربية
وأستاذ بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة

أضواء على الأدب الحديث

الطبعة الأولى
١٩٨١



مقدمة

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله . و بعد :

فهذه جداول وغدران مختلفة العمق والسعة والاتجاه والطول ، ولكنها تتفرع من نهر الأدب العربي الحديث الزاخر ،

وهي تحمل بعض ما يجري في النهر من ماء غدق عذب ، وغذاء شهي طيب ، وخير كثير متنوع .

ولكل منها سمته ، ولكن أصلها جميعاً واحد ، لا يختلف جوهره ، وإن تغاير مظهره .

أرجو أن تسري الجداول والغدران ترويةً للعطاش إلى المعرفة ، وتبصرةً ببعض اتجاهات أدبنا العربي الحديث ، وتذكرةً بما أغفله الزمن منه ، وواريته الأحداث ، وتشويقاً إلى تتبعه ، والكشف عن ذخائره وكنوزه ، والاعتزاز بآثاره وثماره .

والله الموفق والمستعان .

٢٧ من ربيع الأول سنة ١٤٠١ هـ

٢ من فبراير سنة ١٩٨١ م

أحمد محمد الحوفي

العروبة فى شعر شوقى

العروبة فى شعر شوقى(١)

ما كاد القرن التاسع عشر يتنفس صباحه حتى جعلت حماسة العرب إلى الوحدة تتأجج ، وأخذت عقول مفكريهم ترسم الخطط وتدبر ، وشرع أدباؤهم يدعون إلى الوحدة ، ويبشرون بها ، ويتلهفون على تحقيقها بعد أن انفصمت عرى الخلافة العثمانية ، وسارع العرب إلى مجاهدة المحتلين ، ليتحرروا من أوهاق الاحتلال البغيض .

وكلما مرت السنون ازدادت الأمة العربية شعوراً بحاجتها إلى تجمع مرهوب ووحدة قوية وفية تجمع شتاتها ، وتقف فى مهب الأعاصير العاتية كالطود الراسخ الأشم ، تتحطم قوى الاستعمار دون سفحه فترتد حسيرة مفلولة ، ويبقى الطود وطيد الأساس ، ثابت البناء ، ساخراً من أوهام الأعداء ..

ولقد طالما جلجل شعراء العصر الحديث بالعروبة من الخليج إلى المحيط ، حاملين على الاستعمار الذى خرب العمران ، وقوض البنيان ، وقعد بالعرب عن مجاراة الزمن ، ونفث فى قواهم سموم الضعف والانقسام ، وكاد ينسيهم ماضيهم المجيد وعزتهم الموروثة .

وحسبى أن أعرض بعض ما لشوقى من جهود فى هذا المجال :

— ١ —

وحدة اللغة

١ — أثرها فى الوحدة :

تنبه شوقى إلى أن اللغة أقوى رابطة فى روابط القومية ، وأعظم سبب فى جمع شمل الأمة ، لأنها تتفاهم بها ، وتقرأ تراثها المشترك ، وتعبر عن مشاعرها ،

---

(١) بحث ألقيته فى مؤتمر الأدباء العرب الخامس . ببغداد ١٥ مارس سنة ١٩٦٥ .

ولأنها سجل أدبها وأفكارها .

ولهذا أيأس الترك من محاولاتهم التعفية على القومية العربية ،وتذويب العروبة فى التركية ، لأن اختلاف اللغة فجوة واسعة تفصل ما بين القوميتين فصلا لا سبيل إلى التئامه ،ونصح لهم أن يتعلموا اللغة العربية، ويصطنعوها لغة ثانية لهم ، ليتقربوا إلى العرب بوسيلة أخرى مع قربى الدين .قال فى سنة ١٩٠١ :

شمل اللغات لدى الأقوام ملتئم والضاد فينا بشمل غير ملتئم
فقربوا بيننا فيها وبينكم فإنها أوثق الأسباب والذمم

ولم يكن شوقى خيالياً فى دعوته الترك إلى أن يستعربوا، أو إلى أن يتعلموا اللغة العربية ليتدانوا إلى العرب ، لأنهم كانوا فى عهدهم الأول يتعلمون اللغة العربية ، ويتكلمون بها ، ويضعون مؤلفات فيها ، مثل الفيروزابادى وأبى السعود وملاخسرو والجامى وحاجى خليفة وابن كمال باشا .

وكان بعض ملوكهم يدرسون العربية وآدابها كما يدرسون التركية وآدابها ، ومنهم من كان يروى الشعر العربى وينظمه كالسلطان أحمد الأول .

ولم تضعف عناية علماء الترك باللغة العربية إلا فى عهد السلطان محمود الثانى وابنه عبدالمجيد الأول ، إذ أحيوا اللغة التركية ، وسهلوا قواعدها ، وسموها اللغة العثمانية .

ولما ضرب الأسطول الفرنسى دمشق بمدافعه سنة ١٩٢٦ واسى شوقى سورية مواساة الأخ الوفى الملتاع ، وبصّر السوريين بدسائس المستعمر ومكره ، وأنار لهم طريق الجهاد بنصائحه ،ومهّد لهذه النصائح بالبواعث التى دفعته إلى النصح الخاص ،ليحسنوا الإصغاء ، ويحسنوا الاستجابة ، وكانت وحدة اللغة من هذه البواعث التى تربط قلوبهم بقلبه :

نضحت ونحن مختلفون دارًا ولكنْ كلُّنا فى الهم شَرْقُ
ويجمعنا إذا اختلفت بلادٌ بيان غير مختلف ونُطْقُ

وفى قصيدته التى شكر بها لمكرِّميه بدمشق سنة ١٩٢٥ توجيه إلى العمل الجاد الدائب المثمر ، وحضٌّ على الحفاوة بالعلوم والآداب ، وحثٌّ على التآخى والاتحاد ، ثم تعزيزٌ لهذا النصح بأنه صدى لحبه إياهم وإخلاصه لهم ، لأنهم إخوته ، جمعته بهم عدة وشائج ، منها اللغة :

نصيحةٌ ملؤها الإخلاص صادقةٌ والنصح خالصةٌ دينٌ وإيمانُ
ونحن فى الشرق والفُصْحَى بنو رَحِمٍ ونحن فى الجرح والآلام إخوان

٢ — دفاعه عن اللغة

حينما نجحت المؤامرات الاستعمارية متوخية قطع الوشيجة الوُثقى التى تربط العرب على اختلاف ديارهم ، وهى اللغة العربية الفصحى ، بإيثار اللهجات المحلية عليها ، وباتهام الفصحى بالجمود والعجز عن مسايرة الحضارة الحديثة ، هبَّ الشعراء يذودون عن الفصحى ما يراد بها من كيد ، ويبصِّرون العرب بما يبيَّت لهم من شر ، ودعوا قومهم إلى الاستمساك بوحدة لغتهم ، والاعتزاز بماضيها ، والافتخار بما خلَّفته من تراث عظيم خالد ، وفندوا دعاوى الأعداء وأبطلوها.

من هؤلاء الشعراء شوقى ، فقد دافع عن الفصحى بأنها ليست كالعامية فى أن قدرتها منوطة بالتعبير السهل عن الشؤون العادية فى البيت والسوق ، مع عجزها عن التعبير العلمى والأدبى ، بل إن الفصحى وحدها هى القديرة على الافتنان الأدبى ، وعلى جلاء التعبير العلمى ، وهو بهذا يرد على الذين اتهموها — باطلا — بالجمود والتخلف ، وزعموا أن العامية أكثر منها قدرة ومرونة.

ثم عزز حجته بأن الفصحى لغة القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف ، وهما المصدران الأولان للتشريع الإسلامى ، وهما ذروة البلاغة العربية ،

وارتباط الفصحى بهما يحيطها بهالة من الجلال، فكيف يتهاون العرب فى حمايتها من العدوان؟ ولماذا لا ينهضون بها إلى الأوج الذى تستعيد فيه حيويتها وقدرتها على مسايرة العلم والحضارة ؟

وأضاف إلى هذا أنها لغة ثرية مرنة صالحة للتعبير عن حاجات كل عصر، إذا ما لقيت من أبنائها حدَباً عليها، ورعاية لها، واعتزازاً بها .

ثم طالب الشاكين فى هذه الحقيقة أن ينهضوا بأنفسهم ، وأن يرتقوا فى سماء العمران ، فإنهم سيجدونها تصاحبهم فى صعودهم ولا تتخلف عنهم ؛ ومَثَّل لهذا بأن يجعلوا عمرانهم روضة يانعة، ليجدوا الفصحى تجرى جداول عذبة فى هذه الروضة فتسقيها وتحييها ، ونهاهم عن ترقيعها بكلمات دخيلة مسروقة من لغات شتى ، لأن الترقيع لا يجدى ولا يغنى ، بل يشوه ويُزْرى .

ولم يفته أن يدلل على ثرائها بماضيها العريق فى بغداد ودمشق والقاهرة والأندلس وفارس وغيرها ، إذْ زكت أصولها ، وبَسَقَتْ فروعها ، ونهضت بمقتضيات العصر فى جميع المرافق ، ولم تقصِّر فى شىء مما أراد أهلوها ، فمحت غيرها من اللغات ، واستقرت واستقلت محافظة على خصائصها وكيانها .

قال شوقى :

إن للفصحى زمامـا ويـدا . تَجنُبُ السهل وتقْتَادُ الصِّعابا
لغـة الذكر لسـان المُجتَبَى : كيف تعيـا بالمنـادين جوابا ؟
كل عصر دارهـا إن صادفَتْه منزلا رَحْباً وأهـلا وجنـابا
ائْتِ بالعمـران روضـا يانعا وادْعُها تَجْرِ ينـابيع عذابا
لا تجئهـا بالمتـاع المقتنَى سَرَقاً من كل قـوم ونهابا
سل بها أندلسا هل قصَّرَتْ دون مضمار العُلا حـين أهابا ؟

غُرِسَتْ فى كل تُرْبِ أعجمٍ ... فزكَتْ أصلاً كما طابت نصابا
ومشَــت مِشْيَتِهـــا لم ترتكب ... غير رجليهـــا ولم تَحْجل غُرابا

وردد هذه الفكرة فى قوله يناجى الإسكندرية :

فخذى كأمس من الثقافة زينــة ... وتجملى بشبابك النُّجبـــاء
وتقلدى لغــة الكتـــاب فإنهـــا ... حَجَرُ البنـــاءُ وعُدَّةُ الإنشاء
بَنَتِ الحضـــارةَ مرتين ومهَّدت ... للمُلْك فى بغـــدادَ والفَيْحاء(١)
وسمت بقرطبـــة ومصرَ فنـــالتا ... بين الممالك ذِرْوَةَ العَلْيــــاء

وفى قوله :

إن الذى مــلأ اللغـــات محاسنا ... جعل الجمال وسرَّه فى الضـــاد

وفى قوله مشيداً بالقرآن الكريم والحديث الشريف، موجهاً الخطاب إلى النبى صلى الله عليه وسلم :

جاء النبيون بالآيات فانصرمت ... وجئتنـــا بحكيم غير مُنْصَرِمِ
آياته كلما طال المدى جُـــدُدٌ ... يزينهن جلال العِتْق والقِـــدم
يكاد فى لفظـــة منـــهُ مُشَرَّفَة ... يوصيك بالحق والتقوى وبالرحم
يا أفصح الناطقين الضادَ قاطبةً ... حديثك الشهد عند الذائق الفَهِم
حَلَّيْتَ من عَطَلٍ جيد البيان به ... فى كل مُنْتَثِرٍ فى حسن مُنْتَظِمِ
بكل قول كريم أنت قائلـــه ... يحيى القلوب ويحيى مَيِّتَ الهمم

---

(١) الفيحاء : دمشق .

— ٢ —

الوجدان المشترك

يذكر علماء النفس وعلماء الأخلاق أن للوجدانات آثاراً عظيمة فى حياة الإنسان ، وسيطرة قوية على سلوك الأفراد والجماعات ، ويذكرون أن الوجدان المشترك هو المظهر الوجدانى للشعور الاجتماعى ، كالشفقة على المصابين ، والحنو على الضعفاء ، ومقاسمه المتألمين آلامهم ، والمحبورين سرورهم .

وهذه المشاركة الوجدانية هى المثير القوى لانفعالات المجتمع ، والدافع الأصيل لكثير من أعماله ، كالذعر عند الخطر ، والغضب عند الاعتداء على الدين أو الوطن ، وهى أساس النهضات الاجتماعية ، والعامل الأقوى فى توحيد الميول والعواطف .

وليست هذه المشاركة الوجدانية مقصورة على الإنسان ، بل هى واضحة فى كثير من الحيوانات الراقية التى تميل بطبيعتها إلى التجمع ، فهى كما يقول العلامة (مكدوجل) تربط كل أفراد الجنس الواحد من الحيوان معا ، وتوحد أعمالهم وتُنَظِّمها بطريقة تجعل منها جماعة قوية تعوض باتحادها فى ميدان الجهاد للعيش ما ينقصها من الذكاء وحسن التصرف .

وهذا هو السبب فى أن إخراج اليعسوب — ملكة النحل — من الخلية عنوة يحدث فى نفس الدَّبْر — جماعة النحل — انفعالاً شديداً ، فتنطلق من الخلية انطلاق السهام للبحث عن اليعسوب فى كل مكان ، وكلما طال عليها الوقت تزايد هياجها ، وتعالى طنينها .

ويقول العلامة الأمريكى (هوبز) إن جماعة النحل والنمل وكثيراً من الحشرات يظهر عليها الغضب إذا غضب أحدها ، فتجعل تتجمع ، وكلما زاد عددها ازداد غضبها ، فتتلف كل ما تجده فى سبيلها ، حتى لا تبقى ولا تذر .

ويؤكد العالم الألمانى (كهلر) أن صراخ قرد من الشمبانزى أو هجومه على إنسان يكفى لإثارة غضب الجماعة، فيثب أفرادها من كل مكان للمشاركة فى هذا الهجوم .

فلا غرابة فى أن يكون الوجدان المشترك دعامة قوية فى الحصن العربى ولهذا الوجدان المشترك عدة مظاهر :

١ – التآلف والتعاطف :

ليس من شك فى أن للأمة العربية وجدانها المشترك فى أحداثها العامة، ممثلا فيما تتجاوب به من أفراح أو أتراح ، ومن رضا أو سخط ، ومن قلق أو اطمئنان .

وهو فى أعم حالاته وجدان حافز إلى العمل ، سواء أكان هذا العمل سخاء بالمال أو بالمقال ، أم بذلا للدماء ومشاركة فى القتال ، أم سخطاً على المستعمر وتشنيعاً بمظالمه وحضا على الثأر منه ، وعلى تحطيم أغلاله ، أم مشاركة الزهو والفخار ، أم مجاوبة فى الفرح والابتهاج .

ولقد برع شوقى فى تصوير الوجدان المشترك تصويراً جمع بين الصدق الواقعى والصدق الفنى فى قصيدته التى حيا بها مبايعيه بإمارة الشعر من أقطار العروبة سنة ١٩٢٧، إذ وصف المهرجان بأنه عكاظ اجتمعت فيه العروبة – التى عبر عنها بالشرق على نهج كثير من الشعراء – ثم ختم القصيدة بتصوير الأمة العربية جسداً واحداً إذا اشتكى عضو منه تداعت له سائر الأعضاء بالسهر والألم ، فإذا تأوه بالعراق جريح أمسك إخوته فى الوطن العربى جنوبهم ، كناية عن الألم الشديد الذى يضطر المتألم إلى هذه الحركة ، وعرض شوقى لبعض ما يتصل بوحدة الشعور بالآلام من مظالم الاستعمار ، والتنكيل بالأحرار ، والجهاد للخلاص ، فقال :

يا عكاظا تألفَ الشرقُ فيـــه   من فلَسْطينــه إلى بَغْـــدانِه

شُرِّقَتْ مصر بالشهوش من الشر ... ق نجوم البيان من أعيانه
رُبَّ جار تلفتت مصر توليـ ... ـه سؤال الكريم عن جيرانه
بعثتني معزيا بمآقي ... وطني أو مهنئا بلسانه
قد قضى الله أن يؤلفنا الجر ... ح وأن نلتقى على أشجانه
كلما أنّ بالعراق جريح ... لمس الشرق جنبه فى عمانه
وعلينا كما عليكم حديد ... تتنزّى الليوث فى قضبانه
نحن فى الفكر بالديار سواء ... كلنا مشفق على أوطانه

أذكر أنني حينما ألقيت هذا البحث فى مؤتمر الأدباء الخامس ببغداد عقّب أحد الزملاء بقوله إن شوقى ومعاصريه لم يكونوا يحسون بالعروبة ، لأنها لم ترد فى شعرهم ، بل وردت كلمة الشرق .

وكان ردى أن كلمة الشرق كانت تعنى الوطن العربى فى نظر الشعراء ، وبهذا المعنى وردت فى شعر شوقى وحافظ والجارم والزهاوى وغيرهم . فمثلا سخط شوقى على تقسيم الوطن العربى ، وحزن لأن العرب ضعفوا فسيطر الغرب عليهم ، وبدد ملكهم ، فقال :

وانظر الشرق كيف أصبح يهوى ... وانظر الغرب كيف أصبح يصعد

وهو لم يرد بالشرق إلا الوطن العربى .

وأراد الشاعر خالد الفرج بكلمة الشرق الوطن العربى فى قوله :

والشرق ويح الشرق من جهله ... وَهَىَ به الإحساسُ من علّته
أرهقه الغرب بويلاته ... واستنزف القيراطَ من ثروته

وأحمد محرم أراد العروبة فى قوله :

هبوا بنى الشرق لا نومٌ ولا لعبُ ... حتى تَعُدَّ القُوَى أو تُوحِّدَ الأُهَبُ

ونجد هذا فى قول محمد الأسمر :

بنى قومنا ماعلة الشرق هل لها ... طبيبٌ مداوٍ أولها مُتَطَبِّبُ ؟

وفى قول رفيق المهدوى :

متى يشعر الشرق المفرَّق شمْلُهُ ... بما قد جناه شمله المتفرِّقُ ؟

وفى قول أحمد الشارف مرحباً بالجامعة العربية :

والشرق يهتف بالذكرى لجامعة ... فى مصر فى أمة الإسلام فى العرب

وفى قول محمود حسن إسماعيل :

فيا شرق طال النوم فانهض فإنما ... يد الذل تجتاح الشعوب النَّوائما

وفى قول عبده بدوى فى قصيدته (الوطن العربى) :

هنا الشرق قام يهز الجناحْ ... ويَهْزِجُ بالأمل الطيِّبِ(١)

٢ — آلام من فظائع الاستعمار :

هب العرب الأحرار يناضلون الاستعمار ، مفتدين وطنهم بالدماء والأرواح متسابقين إلى ميادين الكفاح ، غير آبهين بجنود العدو الكثيرة ، وأسلحته الموفورة ، ووحشيته المسعورة وحينما كان يستشهد بعضهم فى الجهاد ، أو تضرب مدنهم بالقنابل ، يهيج إخوانهم فى الأقاليم الأخرى ، ويشاركونهم فى الأسى والسخط على العدو الغاشم .

ولشوقى فى هذا المجال صوت طالما دوّى وجلجل .

فقد دعا إلى السخاء بالأموال على (الهلال الأحمر) سنة ١٩١٢ نجده للجرجى فى طرابلس حينما هبّ الليبيون يناضلون إيطاليا ، ويذودونها عن وطنهم ، وجعل الإيطاليون يقتلون الأحرار ، ويمثلون بالثوار ، وأشاد ببطولتهم وفدائهم لوطنهم ، وصور آلام المصريين مما حل بإخوتهم ، واستبشر بنصرهم القريب :

---

(١) راجع القومية العربية فى الشعر الحديث . أحمد الحوفى .

ومجاهـدون هناك عند معسكر ... ومن المهابة بين ألف معسكر
متوفين للأوطان بين حياضها ... لا يسمحون بها وبين الكوثر
عرب على دين الأبوة فى الوغى ... لا يطعنون القرن ما لم ينذر
ألفوا مصاحبة السيوف وعودوا ... أخذ المعاقل بالقنا المتشجر(١)
يمشون من تحت القذائف نحوها ... لا يسألون عن السعير الممطر
فى أعين البارى وفوق يمينه ... جرحى تجللهم كجرحى خيبر(٢)
من كل ميمون الضماد كأنما ... دم أهل بدر فيه أو دم حيدر(٣)
جذلان هينة عليه جراحه ... وجراحه فى قلب كل غضنفر
ضمدت بأهداب الجفون وطالما ... ضمدت بأعراف الجياد الضمر(٤)
عودوه يمسحون بردنه ... كالوفد مسح بالحطيم الأطهر(٥)

ولما ضرب الأسطول الإيطالى بيروت سنة ١٩١٢ والحرب قائمة فى طرابلس بين العرب والإيطاليين، قال شوقى قصيدة صور فيها الأبطال الذين قتلتهم القنابل أسودًا ماتوا غدرًا فى غير معركة، فليس لإيطاليا أى فخر فى قتلهم، لأن الليث المقيد يسهل صيده، أما الليث الطليق فإن صيده مرهوب.

وحزن شوقى على دماء الأبطال التى سالت حول المساجد والكنائس والدور، وتمنى لو طال العمر بأصحابها ليذودوا عن الحمى، وصور أسى المصريين مما نزل بإخوتهم اللبنانيين فى أنهم بكوا بيروت بدموع لو استطاعوا بها أن

---

(١) المتشجر : المشتبك .
(٢) البارى : ناحت السهام .
(٣) الحيدر : الأسد والمراد على بن ابى طالب ، الضماد : عصابة الجرح .
(٤) الجياد الضمر : الخيل القليلة اللحم ، الأعراف : جمع عرف وهو شعر عنق الفرس .
(٥) الردن : أصل الكم ، الحطيم : جدار الكعبة أو ما بين الركن وزمزم والمقام .

بغسلوا جراحها لفعلوا ، ولكنه عبر عن المصريين بأنهم (جيرة) بيروت، ولو أنه قال : (إخوة) لأصاب الحقيقة :

بيروت مات الأسْد حَتْفَ أنوفهم   لم يَشْهَرُوا سَيفاً ولم يحموك
سبعون ليثاً أحْرِقوا أو أغْرِقوا   يا ليتهم قتلوا على (طبروك)(١)
كلٌّ يصيد الليث وهو مقيدٌ   ويَعِزُّ صيد الضيغم المفكوك
يا مَضْرِبَ الخِيَم المنيفة للقوى   ما أنصف العُجْم الألى ضربوك
ما كنت يوماً للقنابل موضعا   ولو أنها من عسجد مسبوك
سالت دماء فيكِ حول مساجد   وكنائس ومدارس وبنوك
كنا نؤمل أن يُمَدَّ بقاؤها   حتى تَبُلَّ صَدَى القنا المشبوك
لك في ربا النيل المبارك جيرة   لو يقدرون بدمعهم غسلوك

ولما ثارت سورية على الحكم الفرنسي سنة ١٩٢٥ ثورتها الباسلة التي استمرت سنتين ، وضرب الفرنسيون دمشق بمدافعهم في مايو سنة ١٩٢٥ التهبت عواطف شوقي فحيا دمشق وجزع مما أصابها ، ومجد ماضيها وحاضرها ، وصور عزازتها عليه وعلى الأمة العربية ، وحزن لما أحدثه الفرنسيون بآثارها الخالدة ، واستنكر وحشيتهم ، وحمل عليهم وندد بهم ، لأنهم تنكروا لأصول ثورتهم التي زعموا أنها كانت أول هتافك بالحرية والأخاء والمساواة ، وندد بطيش القائد الفرنسي ، ووصفه بأنه أحمق غاشم ، كان حرباً على فرنسا بماجنى ، وبما جر عليها من سبة وسوء سمعة ، ثم أنذر فرنسا بأن السوريين لا بد أن ينالوا حريتهم وبأن وحشيتها غذاء لحماستهم ، لأن شهداء الجهاد خالدون ، وذكراهم تؤرث النضال .

وختم القصيدة بتشجيع السوريين على الجهاد ، ونصحهم بأن يحذروا خدَع فرنسا ، لأنها تحاول أن تصرفهم عن الاستقلال بأوهام خداعة كالدولة

(١) طبروك : طبرق .

السورية ، ولبنان الكبير ، ودولة جبل الدروز ، وحكومة العلويين ، وبألقاب توهم بالملك والسيادة ، وهى فى حقيقتها ذل واستعباد ، وصور لهم الحرية حصناً لا يقرع بابه إلا المجاهدون المصبوغة أيديهم بدماء الجهاد .

ولقد غاظت القصيدة فرنسا ، فمنعت شوقى أن يزور المغرب الذى كان خاضعاً لها حينئذ :

سلامٌ من صَبا بَرَدَى أرَقُّ ... ودمعٌ لا يُكفكفُ يا دمشقُ

ومعذرة اليراعة والقوافى ... جلالُ الرزء عن وصفٍ يدق

وذكرى عن خواطرها لقلبى ... إليك تلفت أبداً وخفق

وبى مما رمتك به الليالى ... جراحات لها فى القلب عمق

لحاها الله أنباء توالت ... على سمع الولىّ بما يَشُق

تكاد لروعة الأحداث فيها ... تخال من الخرافة وهى صدق

وقيل معالم التاريخ دُكّت ... وقيل أصابها تلفٌ وحرْق

ألستِ دمشق للإسلام ظئراً ... ومرضعة الأبوة لا تُعَقُّ ؟

صلاح الدين تاجُك لم يُجَمَّل ... ولم يوسم بأزين منه فرق

وكل حضارة فى الأرض طالت ... لها من سَرْحك العُلْوىّ عِرْق

أ بنيت الدولة الكبرى وملكا ... غبار حضارتيه لا يُشَق

له بالشام أعلام وعرسٌ ... بشائره بأندلس تُدَق

سلى من راع غيدَك وَهْنٍ ... أبين فؤاده والصخر فرق ؟

وللمستعمرين وإن ألانوا ... قلوب كالحجارة لا ترق

رماك بطيشه ورمى فرنسا ... أخو حرب به صَلَفٌ وحُمْق

إذا ما جاءه طلاب حق ... يقول عصابةٌ خرجوا وشَقّوا

دم الثوار تعرفه فرنسا ... وتعلم أنه نور وحق

وحررت الشعوب على قناها ... فكيف على قناها تسترق ؟

بنى سورية اطَّرِحوا الأمانى ... وألقوا عنكم الأحلام ألقوا

نحن خُدع السياسة أن تغروا ... بألقاب الإمارة وهي رق
وقفتم بين موت أو حياة ... فإن رمتم نعيم الدهر فاشقوا
وللأوطان في دم كل حر ... يد سلفت ودين مستحق
ولا يبني الممالك كالضحايا ... ولا يدني الحقوق ولا يحق
ففي القتلى لأجيال حياة ... وفي الأسرى فدى لهم وعتق
وللحرية الحمراء باب ... بكل يد مضرجة يدق

٣ ـ رثاء المجاهدين

أمة واحدة في وطن واحد .

أمة وفية لأبطالها المجاهدين وعظمائها الراحلين .

وشعراؤها كلفون بالبطولة وبالمجد ، تياهون بالأبطال والماجدين ، فمن الطبيعي أن يكون الشهيد في إقليم عربي شهيد الوطن العربي كله ، وأن يكون العظيم في بلد عربي عظيما في نظر العرب أجمعين .

ولهذا تجاوب الشعراء برثاء الزعماء والقادة والشهداء والعظماء .

وكان شوقي من السباقين في هذا المجال .

فلما احتفلت سورية بذكرى استقلالها سنة ١٩٢٨ ، مجد شوقي شهداءها ، واختص بطلها يوسف العظمة بالإشادة ، وقد كان يوسف وزير الحربية في حكومة فيصل بن الحسين بعد فتح سورية بقيادة فيصل ، واستطاع يوسف بعد المناداة بفيصل ملكاً على سورية أن ينظم جيشاً وطنياً من عشرة آلاف مقاتل ، فلما أعلن الحلفاء في مؤتمر سان ريمو سنة ١٩٢٠ فرض الانتداب على سورية وتحرك الجنرال غورو ليحتل دمشق ، نهض يوسف العظمة لصده ، وكانت موقعة ميسلون التي أبلى فيها العرب أعظم بلاء ، واستشهد فيها يوسف ، فكان من طلائع شهداء الحرية والعروبة .

صور شوقى قبر يوسف العظمة يهتف بالجهاد للثأر له من الفرنسيين، ونوه ببطولته فى مناضلة الجيش الفرنسى الباغى المستظهر بطياراته ودباباته ، وكيف استهان بها يوسف ، وثبت فى مكانه كالطود ، حتى استشهد أبيا فى ميدان الشرف ، مبكيا من المسلمين والنصارى جميعا :

سأذكر ما حييت جدار قبر	بظاهر جلّق ركب الرمالا
مقيم ما أقامت ميسلون	يذكّر مصرع الأسد الشبالا
لقد أوحى إلىّ بما شجانى	كما توحى القبور إلى الثكالى
تغيب عظمة العظمات فيه	وأول سيد لقى النبالا
ترى نور العقيدة فى ثراه	وتنشق من جوانبه الخلالا
مشى ومشت فيالق من فرنسا	تجر مطارف الظفر اختيالا
ملأن الجو أسلحة خفافا	ووجه الأرض أسلحة ثقالا
وأرسلن الرياح عليه نارا	فما ضل الجنوب ولا الشمالا
أقام نهاره يلقى ويلقى	فلما زال قرص الشمس زالا
وطاح ترى به قيد المنايا	ولست ترى الشكيم ولا الشكالا
فكفن بالصوارم والعوالى	وغيب حيث جال وحيث صالا
إذا مرت به الأجيال تترى	سمعت لها أزيزا وابتهالا
تعلق فى ضمائرهم صليبا	وحلّق فى سرائرهم هلالا

ورثى الزعيم السورى فوزى الغزى سنة ١٩٣٠ ، وبكى فيه بطلا عربيا كان يذود عن الوطن كما ذاد أسلافه من بنى عبد شمس وبنى أمية ، وختم القصيدة بدعوة المجاهدين أن يرعوا وحدتهم ، واستحلفهم بالله وبمحمد وبعيسى وبالغزى أن يعتصموا بالوحدة ، لأن خروج واحد من الصف قد يحبط التدبير والتفكير السديد ، والجهاد المظفرة .

جرح على جرح حنانك جلّق ۞ حمّلت ما يوهى الجبال ويزهق

يا مأتما من عبد شمس مثلُهُ   للشمس يُصْنَع فى الممات ويُنْسَقُ
إن ضاق ظهر الأرض عنكَ فبطنها   عما وراءك من رُفات أضيقُ
لما جمعتَ الشام من أطرافه   وافى يعزِّى الشامَ فيكَ المشرق
يبكى لواء من شباب أمية   يحمى حمى الحق المبين ويخفق
مَنْ مبلغٌ عنى شبولةَ جلّق   قولا يَبَرّ على الزمان ويَصْدُق
بالله جل جلاله بمحمد   بيسوع بالعزىّ لا تتفرقوا
قد تُفْسِدُ المرعى على أخواتها   شاة تَنِدُّ عن القطيع وتَمْرُق

ورثى سنة ١٩٣٠ الحسين بن علىّ زعيم الثورة العربية على الأتراك، وأحسن الاعتذار له عن مهاجمته من قبل ؛ لأنه تبين أن الحسين مناضل كان يأمل تحرير العرب ، ولكن الاستعمار خدعه .

قد بعثتَ القضيةَ اليومَ ميْتاً   رُبَّ عظم أتى الأمورَ العظائمْ
أنت كالحق ألّف الناسَ يقظا   ن وزاد ائتلافهم وهو نائم
حبذا موقف غلبْتَ عليه   لم يقفه للعُرْب قبلك خادم
ذائدا عن ممالك وشعوب   نُقِّلَتْ فى الأكف نقل الدراهم
كلٌّ سماء لهم وكلٌّ سماء   موطن الخيل أو مطار القشاعم(١)

ورثى للشهيد عمر المختار ، بطل ليبيا الذى لقى الإيطاليين فى عشرات المواقع ، فلما قبضوا عليه أعدموه سنة ١٩٣١ ولم يعطفهم عليه ما عرفوا من بطولته وشغفه بوطنه ، ولم يرحموا سنه التى نيّفَتْ على التسعين .

وقد حمل فى مرثيته على إيطاليا ، وأنذرها بثأر أشد وأنكى ، وصور رفات الشهيد الموارى بالثرى كنزا من الحماسة المتقدة ، يستنهض العرب فى كل وقت أن يثأروا لشهيدهم ، وأن يقتدوا بجهاده ، وأيقن أنهم سيورثون أبناءهم

---

(١) القشاعم : جمع قشعم وهو النسر .

بغضهم للإيطاليين والدأب على نضالهم ، حتى يطردوهم من ديارهم ، ثم ختم القصيدة بنصائح اختص بها الشباب الليبى .

ركزوا رفاتك فى الرمال لواء ... يستنهض الوادى صباح مساء
يا ويحهم نصبوا منارا من دم ... يوحى إلى جيل الغد البغضاء
جرح يصيح على المدى وضحية ... تتلمس الحرية الحمراء
إفريقيا مهد الأسود ولحدها ... ضجت عليك أراجلا ونساء
والمسلمون على اختلاف ديارهم ... لا يملكون مع المصاب عزاء
والجاهلية من وراء قبورهم ... يبكون زيد الخيل والفلحاء
لبى قضاء الأرض أمس بمهجة ... لم تخش إلا للسماء قضاء
وافاه مرفوع الجبين كأنه ... سقراط جر إلى القضاة رداء
وأتى الأسير يجر ثقل حديده ... أسد يجرر حية رقطاء
عضت بساقيه القيود فلم ينؤ ... ومشت بهيكله السنون فناء
تسعون لو ركبت مناكب شاهق ... لترجلت هضباته إعياء(١)

٤ ــ الفرح المشترك .

كانت أهازيج البهجة فى إقليم من الوطن العربى تتجاوب بها بقية الأقاليم ، وكثيراً ما صور الشعراء أفراح العرب المشتركة ، وابتهجوا بها .

فحينما احتفلت سورية سنة ١٩٢٨ بعيد استقلالها حياها شوقى بقصيدة أشاد فيها بالأحياء من الأحرار وبالشهداء والأبطال، ونوه بما بين مصر وسورية من إخاء ومن ضيق بقيود الاستعمار .

بنى البلد الشقيق عزاء جار ... أهاب بدمعه شجن فسالا
قضى بالأمس للأبطال حقاً ... وأضحى اليوم بالشهداء غالى
يعظم كل جهد عبقرى ... أكان السلم أم كان القتالا

---

(١) تسعون : تسعون عاما هى عمر المرثى ، شاهق : جبل .

وما زلنـــا إذا دهت الرزايـــا كأرحم مـــا يكون البيت آلا

ثم حضهم على الاتحاد والعمل الدائب فى السلم وفى الحرب ، ودعاهم إلى الاعتصام بإخاء المسلمين والنصارى ، وإلى الحرص على التئام الشمل، وذكّرهم بوعود الاستعمار الخادعة وعهوده المنقوضة ، ليأخذوا حذرهم .

بنى ســـورية التئمـــوا كيـــوم خرجتم تطلبـــون به النّزالا
ســـلوا الحرية الزهـــراء عنـــا وعنكم هـــل أذاقتنا الوصالا ؟
وهـــل نلنا كلانا اليـــوم إلا عراقيبَ المـــواعد والمطـــالا ؟
عرفتم مهـــرها فمهـــرتموهـــا دَماً صبغ السَّباسَبَ والدَّغالا (١)
دَعُوا فى الناس مفتونا جبـــانا يقول . الحربُ قد كانت وَبالا
وكونوا حائطاً لا صَدْعَ فيـــه وصفاً لا يُرَقَّعُ بالكســـالى
وعيشـــوا فى ظـــلال السلم كدّاً فليس السلم عجـــزا واتّكالا

— ٣ —

التاريخ المشترك

لم يكن عن مصادفة هذا الفخار الكثير فى الشعر الحديث بتاريخ العرب المجيد وحضارتهم العريقة ، وتراثهم المشرق ، وعظمائهم وأبطالهم .

ولم تكن الإشادة بهذا مظهراً من مظاهر الاقتدار على المعارضات الشعرية أو تدريب القرائح على التجويد ، بل كان عملا مقصوداً صادراً عن عواطف قوية صادقة نبيلة .

ذلك أن العرب أفاقوا فى أواخر القرن التاسع عشر ، فإذا أعداؤهم ينتقصون أقدارهم ، ويستولون على بلادهم ، ويحاولون أن يطمسوا معالم مجدهم ، ويسدلوا أستاراً كثيفة صفيقة بينهم وبين ماضيهم العريق الحافل بالعظمة والعظماء ،

---

(٢) السباسب : جمع سبب وهى الصحراء ، الدغال : جمع دغل على وزن سبب وهو الشجر الكثير الملتف .

على حين أن هؤلاء الأعداء يحرصون أشد الحرص على التنويه بتاريخهم هم وبعظمتهم وعظمائهم ، ليضعفوا ثقة العرب بأنفسهم .

أفاق العرب على هذه الخدع التي حاكها الاستعمار ، فهبوا سراعاً إلى إبطالها وإحباطها ، فأحيوا تاريخهم المجيد ، وأشادوا بحضارتهم الزهراء ونوهوا بأسلافهم الذين سموا فى كل ناحية من نواحي الحياة ، ليصدوا الدعاوى الأجنبية عن العقول والقلوب ، وليضاعفوا إيمان العرب بأنفسهم ، وأنهم أهل لأن يسودوا كما ساد آباؤهم ، وأهل لأن ينبغوا كما نبغ أسلافهم ، وليبينوا أن الضعف الذى يعانون جرائره ليس طبيعة فيهم ، بل هو طارىء موقوت نكبتهم به الانقسام والاستعمار والتحلل من المثل العليا التى سنها لهم دينهم ، وأرسى قواعدها أجدادهم ، وهم لا يلبثون أن ينهضوا إلى ذروة العلا والقوة والمجد إذا ما عرفوا قدر أنفسهم ، واهتدوا بالقيم النفيسة السامية التى شرعها لهم الإسلام ، وخلفها لهم سابقوهم .

وقد سلك المستنيرون والقادة إلى إحياء المجد القديم مسالك متنوعة ، كان الشعر من أبرزها .

فإذا ما رجعنا إلى شوقى استرعى نظرنا أنه كثيراً ما لهج بماضى العرب المجيد وأشاد بحضارتهم وتراثهم وأبطالهم وعظمائهم ، يقصد بعث العزائم على رفض الذل والأنفة من الاستعمار ، والاقتداء بالأجداد الذين كانوا سادة العالم وزينة الأرض ، والمثل العالية فى القوة والبطولة والعلم والحضارة ومكارم الأخلاق ؛ فإنه لا يحفز الأمم على النهوض مثل الجهاد الدائب لاستعادة مجدها الذاهب .

فهو يصف العرب بأنهم أمة البيان والعلوم ، سادوا العالم ، وكانوا أساتذته أحقاباً طوالا ، وكان الحق والعدل والحرية والخير والعلم ترافق فتوحهم حيثما حلوا ، فهم الذين حملوا معهم تعاليم الإسلام إلى كل إقليم نزلوا به ، فطببوا البشرية من أمراضها ، وسنوا لها أسمى النظم فى العقيدة والتشريع والتفكير والاجتماع وسائر ما يتصل بر - الأفراد والجماعات ، وليس للبشرية دواء ناجع يقيها ويعالج

أدواءها غير الإسلام ، بما سنَّ من عقائد وتشريع ونظم يقتبس منها أتباعه وغير أتباعه ، وهى نظم يجد فيها المصلحون بُغيتهم ، ويجد فيها العلماء والباحثون طَلبتهم .

ثم استنكر شوقى من الأعاجم أبناء الخصب والظل والنعيم والترف أن يَعْجبوا من أن تخرج الصحراء عباقرة فى السياسة والعلوم ، وأن ينطلق من الخيام أفذاذ فى الحروب وقيادة الجيوش استطاعوا فى زمن قصير أن يدكّوا عرش كسرى وقيصر ، وأن يقيموا حكماً أساسه العدل والحرية والرخاء والخير للمحكومين .

أمةٌ ينتهى البيانُ إليها ... وتؤول العلوم والعلماءُ
جازت النجمَ واطمأنت بأفْق ... مطمئن به السنا والسناءُ
كلما حثت الركاب لأرض ... جاور الرشدُ أهلها والذكاءُ
وعلا الحق بينهم وسما الفضْـ ... ـل ونالت حقوقَها الضعفاء
تحمل النجم والوسيلة والميـ ... ـزان من دينها إلى من تشاء
وتنيل الوجودَ منه نظاما ... هو طب الوجود وهو الدواء
يرجع الناس والعصور إلى ما ... سنّ والجاحدون والأعداء
فيه ما تشتهى العزائم أن هم ... ذووها له ويشتهى الأذكياء
أيرَى العُجْمُ من بنى الظل والما ... ء عجيباً أن تُنْجبَ البيداء ؟
وتثيرَ الخيامُ آساد هيجا ... ء تراها آسادَها الهيجاء(١)

ثم وقف على آثار العرب بالأندلس ، فغالبه البكاء إذْ استرجع تاريخهم الوضَّاء هنالك ، فترقرق الدمع فى عينيه ، ولكنْ ثناه عن البكاء وعن انحدار الدمع إجلاله لأجداده الأباة ، الذين لم يخضعوا إلا لله ، ولم يبكوا إلا فى صلاتهم وضراعتهم لله ، وهو بهذا التصوير يضعهم فى ذرا العزة والكرامة والإباء

---

(١) هيجاء : حرب .

فى علاقتهم بالأقوياء من الناس ، ويصفهم بالتدين وحب الله والخشية من عقابه والانقياد له ، ثم يعقب على هذا بأنهم سادوا العالم ، معتمدين على دينهم ، وعلى أخلاقهم التى اشتهروا بعلائها قبل إسلامهم .

رسمٌ وقفنـا على رسم الوفاء له ... نجيش بالدمع والإجلال يثنينا
لفتيةٍ لا تنال الأرضُ أدمُعهُم ... ولا مفـارقهم إلا مُصَلِّينـا
لو لم يسودوا بدين فيــه مَنْبَهَةٌ ... للنـاس كانت لهم أخلاقهم دينا

وكذلك ناجى بنى أمية فى دمشق ، فمجدهم ، وباهى بفتوحهم وقوتهم فى الشرق وفى الأندلس .

قم ناد جِلِّقَ وانشدْ رَسْمَ من بانوا ... مشت على الرسم أحداثٌ وأزمـانُ
هذا الأديم كتـاب لا كفاءَ له ... رث الصحائف باقٍ منـه عنوان
الدين والوحىُ والأخلاقُ طائفة ... منه ، وسـائره دنيـا وبهتـان
بنوا أميـة للأنبـاءِ ما فتحوا ... وللأحاديث ما سـادوا وما دانوا
كانوا ملوكاً سرير الشرق تحتهمُ ... فهـل سألت سرير الغرب ما كانوا

ثم كرر الفخار فى قصيدة أخرى ، وصف فيها دمشق بأنها ظئر للإسلام ربت كثيراً من رجالاته ، وحسبها من العظمة أنها مثوى رفات صلاح الدين ، وأنها كانت عاصمة الأمويين الذين مهدوا للدولة العباسية فى الشرق ، وأسسوا الدولة الأموية فى الغرب ، فكانوا أساساً لحضارة هؤلاء وهؤلاء وإذ كانت حضارة العباسيين والأندلسيين ذات آثار عظيمة فى حضارة الأمم الغربية فإن للأمويين إذاً فضلا على هذه الحضارات لا ينكر .

ألست دمشقُ للإسـلام ظِئْراً ... ومرضعــة الأبوة لا تُعَقُّ ؟
صلاح الدين تاجك لم يُجَمَّلْ ... ولم يُوسَمْ بأجملَ منـه فَرْقُ
وكل حضارة فى الأرض طالت ... لها من سَرْحِك العُلْوِى عِرْقُ
سماؤك من حِلَى الماضى كتاب ... وأرضك من حِلَى التاريخ رِقُّ

بنيت الدولة الكبرى وملكا غبار حضارتيه لا يُشَق
له بالشام أعلام وعرش بشائره بأندلس تُدق

وقال فى قصيدة أخرى .

لولا دمشق لما كانت طُلَيْطِلة ولا زَهَتْ ببنى العباس بَغْدان(١).

على أن له ديواناً مستقلاً فى (دول العرب وعظماء الإسلام) ، وأربع مدائح نبوية أشاد فيها بعظمة رسول الله صلى الله عليه وسلم وبالشريعة الإسلامية ورجالات العرب(٢) .

وله قصيدة فى تمجيد العرب بالأندلس وبكاء حضارتهم ، مطلعها .

اختلاف النهار والليل يُنْسِى اذكرا لى الصِّبا وأيامَ أنسى

وله موشح فى صقر قريش عبد الرحمن الداخل ، مطلعه :

مَنْ لنِضوٍ يتَنَزَّى ألمَا بَرَّح الشوق به فى الغَلَس(٣)
حنَّ للبان وناجى العلمَا أين شرقِ الأرض من أندلس ؟

كما نجد فى ديوانه أبياتاً كثيرة تنوه بعظمة العرب مثل الأبيات التى فى قصيدته (كبار الحوادث فى وادى النيل) ، والأبيات التى فى قصيدته (أيها النيل) . فهو فى إشادته بالعرب الذين فتحوا مصر يصفهم بالشجاعة المقترنة بمكارم الأخلاق ، لأنهم يجاهدون ليحقوا الحق ويزهقوا الباطل ، فلا بغى ولا جبروت ولا استعمار ولا استئثار بخيرات البلاد ، وبأنهم كانوا المثل الأعلى فى التسامح والعدل والمساواة ، ولم يكونوا أصحاب أبهة واستعلاء ، ويرسم صورة رائعة لعمرو بن العاص والى مصر وهو جالس على حصير كما يجلس الناس ، وحوله أبهة روحانية من دينه وأخلاقه تفوق أبهة الملك المتوج .

---

(١) بغدان : بغداد .
(٢) الاسلام فى شعر شوقى . احمد الحوفى .
(٣) نضو : مهزول ، يتنزى ألما : يتحرك ويتقلب ، الغلس : الظلام .

وهو موئل الخائفين ، وملاذ المستضعفين ، ثم يؤكد عدله بأن النصارى واليهود أحبوه ، ودعوا له فى كنائسهم وبيعهم ، لأنه أنقذهم من أهوال الرومان ومظالم البيزنطيين . قال شوقى فى مناجاة النيل :

وودائعُ الفاروق عندك دينُهُ ولواؤه وبيانُهُ والمنطقُ
بعث الصحابة يحملون من الهدى والحق ما يحيى العقول ويَفتُق
أحلاسُ خيل بَيْدَ أن حسامهم فى السلم من حذر الحوادث مُقلَق
تُطوَى البلاد لهم ويُنجِدُ جيشَهم جيشٌ من الأخلاق غاز مُورِق
فى الحق سُلَّ وفيه أُغمِدَ سيفهم سيف الكريم من الجهالة يَفرَق
والفتح بغىٌ لا يُهوِّن وقعَه إلا العفيفُ حسامُهُ المترفق
ما كانت الفسطاط إلا حائطا يأوى الضعيف لركنه والمُرْهَق
وبه تلوذ الطير فى طلب الكرى ويبيت قيصر وهو منه مُؤَرَّق
عمرو على شُطَب الحصير مُعَصَّبٌ بقلادة الله العلى مُطَوَّق
يدعو له الحاخام فى صلواته موسى ويسأل فيه عيسى البطرق

ويتحدث شوقى عن بطولة صلاح الدين وحمايته للمسلمين وتحريره الوطن العربى من الصليبيين إذ انتصر عليهم فى موقعه حطين سنة ٥٨٣ هـ (١١٨٧م) وعن انتصار توران شاه على لويس التاسع ملك فرنسا والقبض عليه وأسره فى موقعة المنصورة سنة ٦٤٨ هـ (١٢٥٠ م) ، ثم إطلاقه بفدية ، لا لأن مصر أغرتها الفدية ، أو كانت محتاجة إليها ، بل لأنها اطمأنت إلى أنه صار بعد الهزيمة والأسر لا يخشى له بأس :

ثم ختم شوقى أبياته البالغة من هذه الأحداث ، وهى أن العرب كانوا أصحاب هذه الأخلاق العظيمة التى أراد الاستعمار تشويهها ، وبأخلاقهم هذه سادوا وشادوا وخلدوا أنباء يتناقلها التاريخ فى زهو بهم وفخار .

يعرف الدين من صلاحٌ ويدرى من هو المسجدان والإسراء
إنه حصنه الذى كان حصنا وحماه الذى به الاحتماء

يوم سار الصليب والحاملوه ومشى الغرب قومه والنساء
يضمرون الدمار للحق والنا س ودين الذين بالحق جاءوا
ويهدون بالتلاوة والصلبان ما شاد بالقنا البناء
فتلقتهم عزائم صدق نص للدين بينهن خباء
مزقت جمعهم على كل أرض مثلما مزق الظلام الضياء
وسبت أمرد الملوك فزدته وما فيه للرعايا رجاء
ولو أن المليك هيب أذاه لم يخلصه من أذاها الفداء
هكذا المسلمون والعرب الخا لون لا ما يموله الأعداء
فيهم فى الزمان نلنا الليالى بهم فى الورى لنا أنباء

وإذ خايل شوقى بمجد العرب، وأشاد بأبطالهم، ونوه بفضلهم على العالم فيشتد به الأسى، وتغالبه الحسرة، لكن حسرته لم تكن استسلاماً أو استكانة أو قناعة بحسب الآباء والأجداد، بل هى وفاء للماضى وإعزاز، وتبصير بما بينه وبين الحاضر من بون شاسع، ليحفز العزائم إلى العمل الدائب، وتحطم قيود الخور والهوان، فقد بكى حضارة الأندلس فى سينيته، وبكى عزة العرب فى مناجاته لدمشق فى نونيته، وحسبنا من بكائه قوله:

بنو أمية للأبناء ما فتحوا وللأحاديث ما سادوا وما دانوا
ياويح قلبى مهما انتاب أرسمهم سرى به الهم أو عادته أشجان
بالأمس قمت على (الزهراء) أندبهم واليوم دمعى على (الفيحاء) هتان (١)
مررت بالمسجد المحزون أساله هل فى المصلى أو المحراب مروان
تغير المسجد المحزون واختلفت على المنابر أحرار وعبدان
فلا الأذان أذان فى منارته إذا تعالى ولا الآذان آذان

هكذا كان شوقى يصدح بالعروبة، ويحمى ذمارها، وهكذا كان شوقى يتغنى بها ويعلى منارها، فليته عاش حتى يراها اليوم وهى تشق طريقها لتحقق ما كان يرجوه لها.

---

(١) الزهراء: قصر بالأندلس سميت به ضاحية من ضواحى قرطبة.
الفيحاء: دمشق.

العروبة فى شعر الجارم

العروبة فى شعر الجارم *

أولاً : تمهيد :

١ – لقد قضى الشعراء فى العصر الحديث ردحاً من الدهر ، يتجاوبون بأهازيج الخلافة العثمانية ، وأرّث حماستهم لها أنهم وجدوا الدول الغربية تكيد أشد الكيد للإسلام وشعوبه فى حملاتها على تركيا وعلى الولايات الإسلامية الخاضعة لها . وهالهم أن الدول الغربية تبيت الشر للخلافة ، وتتطلع إلى اقتسام ولاياتها ، وتحرض المسيحية منها على الانفصال والاستقلال . .

وقد تكشف هذا الشر فى مؤتمر برلين سنة ١٨٧٨م ، إذ اجتمع لحل مشكلات تركيا فى البلقان ، فإذا به لا يسفر إلا عن تمزيق الولايات وابتلاعها .

ثم بدأت المطامع تتحقق ، فاحتلت إنجلترا جزيرة قبرص ، واغتصبت الروسيا بعض ممتلكات تركيا على البحر الأسود ، وأجبرت تركيا على التخلى عن رومانيا والصرب ، واحتلت فرنسا تونس سنة ١٨٨١ م ، وبعد ذلك بعام واحد نصبت إنجلترا أحابيلها لاحتلال مصر ، غير عابئة بمعاهدة لندن ١٨٤٠ م ، ثم هاجمت إيطاليا طرابلس سنة ١٩١١ م ، وأرغمت تركيا على التخلى عنها سنة ١٨١٢ م ، لتفرغ لثورات فى البلقان عاتية .

كان الرد الطبيعى على هذا العدوان المتكرر أن يؤيد المستنيرون الخلافة ، وأن يناصروا آل عثمان ، وأن يتهموا أوروبا صادقين بأنها تجددها حرباً صليبية ثانية ، وأنها لا تصوب ضرباتها لتركيا وحدها ، بل تصوبها إلى الإسلام ممثلا فى الخلافة الإسلامية وفى بنى عثمان .

(*) القيته فى مهرجان الشعر بغزة سنة ١٩٦٦

ولم يجد الساسة والأدباء فى ذلك الوقت تنافياً بين العاطفة الدينية والعاطفة الوطنية ، بل وجدوا فى ارتباطهم الدينى سلاحاً يفلون به الاستعمار الأوروبى الطاغى ، كما نتبين من دراسة الأدب فى مصر وسورية والعراق وشمالى إفريقية ، إلا قلة من الأدباء كانت لهم نزعات فردية خاصة .

٢ — لكن المستنيرين من العرب لم ينسوا فى هذا الخضم أنهم أصحاب قومية يجب أن تتفرد ، فبدأ نزوعهم هذا يستعلن منذ أواخر القرن التاسع عشر ، مطالباً بحقوق العرب ، ومثيراً عزائمهم مسلمين ونصارى إلى أن يتحدوا ، ليكون لهم كيان خاص فى نطاق الخلافة ، فنشأت جمعيات شتى لتحقيق هذا الغرض ، منها جمعية حفظ حقوق الملة العربية سنة ١٨٨١ م ، والجمعية التى انعقدت فى باريس سنة ١٨٩٦ من شباب العرب والترك ، ودعت إلى أن يحكم الولايات العربية حكام من العرب فى ظل الخلافة .

ثم صدر الدستور العثمانى سنة ١٩٠٨م ، فحقق للعرب بعض ما يريدون إذ انتخب من الأقاليم العربية نواب يمثلون العرب بالآستانة ، وكان عددهم يزيد على ربع أعضاء المجلس ، فرأى أحرار العرب فى الدستور كفالة لحريتهم فانطلقت ألسنتهم من عقالها ، وانفلتت أقلامهم من أغلالها ، وتنفس الذين كانوا يضيقون بالإرهاب والاستبداد ، فازداد العرب يقظة وإدراكاً لحقوقهم المسلوبة ، وازدهاهم أنه ورثة مجد عظيم يجب أن يبتعثوه ، وصدرت صحف عدة فى العواصم العربية ، كان لها تأثير عظيم فى إيقاظ الرأى العام ، وبث روح القومية العربية .

٣ — ثم تبين العرب أن أقطاب العهد الجديد يسيرون فى الحكم كسابقيهم فيعززون التركية ، ويقاومون العناصر الأخرى ، وجعلت الصحافة التركية تكشف عن نوايا الأتراك ، وتنال من العرب ، فانبرت الصحف العربية ترد على التهجم بمثله ، ونظم الشعراء من الترك ومن العرب عدة قصائد ، وكان

فى هذا الصراع إذكاء للقومية العربية .

ونجم عن هذا الشعور أن انفض العرب عن تأييد الاتحاديين ، وشرعوا ينشئون جمعيات عربية جديدة فى عواصمهم بالقاهرة ودمشق وبيروت وبغداد وفى الآستانة نفسها ، لتعزيز شأن العرب ، والدفاع عن حقوقها ، والمطالبة بتسويتهم بالترك فى الوظائف والأعمال .

وكان لهذه الجمعيات أثرها القوى فى بعث الشعور بالقومية العربية ، والدعوة إلى حكم عربى داخلى ، والهتاف بتعاون العرب على ما فيه خيرهم ، وناصرتها جرائد شتى بالأقاليم العربية .

٤ — وقد اصطلى العرب بنار الاستعمار ، ثم اكتووا بخطر الصهيونية ، فتعالى هتافهم بالقومية ، ودوّى صوتهم بالوحدة ، إذ أيقنوا أن وحدتهم حصن لهم يدرأ عنهم المخاطر والحتوف .

ثم قامت ثورة مصر فى يولية ١٩٥٢ ، فتبنى الرئيس جمال عبد الناصر تلك الدعوة ، وهتف بها ، وأعلى من شأنها ، ونافح فى سبيلها ، فالتفت الأمة العربية من حوله ، وسانده بعض الحكام فى كفاحه ، وداور بعضهم وناور ، وما زالت الوحدة تشق طريقها فى تؤدة وأناة وإصرار .

والحق أن الأدباء كانوا من السباقين إلى رفع اللواء ، وإلى التغنى بالقومية ، والهتاف بالوحدة المنشودة ، لأنهم يصدرون عن نفوس حرة مبرأة من المطامع والأهواء ، ولأنهم يعبرون عن عواطف الأمة العربية وأمالها ، على حين أن كثيرًا من الساسة كانت تسيطر عليهم أهواؤهم ومخاوفهم من الوحدة ، فصاروا يعرقلون الحركة ، أو يرجعون بها إلى الوراء أكثر مما يدفعونها إلى الأمام :

ثانياً : دعائم العروبة فى شعر الجارم :

عاش الجارم فى هذا الجو إلى سنة ١٩٤٩ م، فتأثر به، وكان له صوت مسموع فى إيقاظ العرب والدعوة إلى الوحدة المرتجاة .

وأحسب أن كثيراً أو قليلا من الناس يغمطون جهاده فى هذا المجال، تعصباً عليه، أو تقصيراً فى دراسة شعره، حتى إن بعضهم ينكر أنه كان من الشعراء الذين لهجوا بالقومية العربية، وأشادوا بها، وآزروها، وهتفوا بالوحدة، ودعوا إلى ضرورتها، وشدة الحاجة إليها، وتغنوا بآثارها. وفى الفقرات التالية بيان عن جهوده فى مجال القومية والعربية، وردود على ذلك الاتهام .

١ ـ وحدة اللغة

فهو يهتف باللغة العربية الفصحى، رباطاً وثيقاً من روابط القومية، يكفل وحدة الثقافة، ويحقق التفاهم، ويوحد المشاعر والوجدان .

ولهذا هش لانعقاد المؤتمر الطبى بالقاهرة سنة ١٣٥٨هـ (١٩٣٩م)، يوم الوقوف بعرفة، ورحب بأعضائه، فصورهم إخوة وفدوا إلى مصر فوجدوا لهم إخوة، لأن اللغة الفصحى ربطتهم جميعاً، ووحدت وطنهم، فلا حدود ولا سدود

أيها الوفدون من أمم الشر	ق وأشباله الأباة الصيد
اهبطوا مصركم بها من قلوب	شفها حبكم وكم من كبود
قد رأينا فى قربكم يوم عيد	قرنته المنى إلى يوم عيد
إن مصرا لكم بلاد وأهل	ليس فى الحب بيننا من حدود
جمعتنا الفصحى فما من وهاد	فرقت بيننا ولا من نجود
يصل الحب حيث لا تصل الشمـ	ـس ويجتاز شامخات السدود

ونوه بالوسائل الثقافية التى تقرب بين الإخوة ، وتصلهم بصلات من الود والوفاء ، وتسفر ببينهم ، وتوحد مشاعرهم ، فقال فى التنويه بأثر الإذاعة فى إيقاظ العرب وتقويتهم ومدهم بغذاء موصول :

تعالَىْ نطير بريش الأثير ونعلو به حيثما يقتلى
نمر كما مر طيف الخيال ألمَّ لماماً ولم ينجلى
فبينا نحدث أهل الحجاز إذا صوتك العذب فى الموصل
نحيي بنى العرب الأوفياء ونسمعهم غَرَدَ البلبل
أولئك قومى بناة الفخار وزَيْنُ المحافل والمحفل
ولولا الإذاعة عاش الكرام حماة العروبة فى معزل

وهتف بالعرب أن يجدّوا فى التسلح بالعلم ، وأن يوحدوا المناهج الدراسية أو يقربوا بينها ، لينشأ فتيانهم متقاربين أو متوافقين فى ثقافتهم وميولهم ، وأهاب بهم أن يعنوا بلغتهم ، لأنها عنوان وحدتهم ، فقال :

بنى العروبة مُدُّوا للعلوم يدا فلن تقام بغير العلم أركانُ
جمعتم لشباب الشرق مؤتمرا بمثله تزدهى الفصحى وتزدان
فقربوا نهجهم فالروح واحدة وكلهم فى مجال السبق أقران
وحببوا لغة العرب الفصاح لهم فإن خذلانها للشرق خذلان
قولوا لهم إنها عنوانُ وَحدتهم وإنهم حولها جند وأعوان

٢ ــ وحدة الدم والوطن

واعتز بوحدة الدم وبوحدة الوطن ، داعياً إلى وحدة العرب ، لأنهم إخوة يجرى فى عروقهم دم من عدنان أو من قحطان ، وهم يقيمون فى وطن محدود المعالم ، ويشتركون فى تاريخ عريق ومجد باذخ ، ولن يتنافروا لاختلاف الدين لأن السماحة التى يحض عليها الإسلام وتدعو إليها المسيحية ، والإخاء الذى

وثق الصلات بين أتباع محمد وأتباع عيسى ، والوحدة التى أظلت العرب بضعة قرون من الخليج إلى المحيط ،جعلت الهلال والصليب رمزين مختلفين مظهراً ومتآلفين حقيقة ، ولهذا جمع الله العرب ووحّدهم ،فلن يستطيع الاستعمار ، ولن تستطيع الأهواء أن تفرقهم .

قال الجارم :

بنى العــروبة إن الله يجمّعنا فلا يفرّقنـا فى الأرض إنسان

لنـا بها وطن حرٌّ نلوذ بـه إذا تناءت مسافات وأوطـان

غـدا الصليب هلالا فى توحدنا وجمّعَ القـوم إنجيـل وقرآن

ولم نبـال فروقاً شـتتت أمما عدنان غسان أو غسان عدنان

أواصر الدم والتـاريخ تجمعنـا وكلنـا فى رحاب الشرق أوطان

وردد وحدة الجنس والتاريخ فى قوله لسكان العراق ممثلين فى بغداد :

بغـداد إنا وفـد مصـ ـر نفيض بالشوق الأكيد

أهـلوك ، وأهـلونا وأبـ ـناء العشـيرة والجـدود

وباعث من عقيدته أن الوطن العربى واحد ، وأن فلسطين فلذة من قلبه اعتدى عليها شذاذ الآفاق ، أمضه الحزن ، فاسى للنكبة أسى أسال دموعه ، واعتصر قلبه ، وذكره بنكبة مثيلة لها من قبل هى نكبة العرب فى الأندلس ،فتحسر على عهد صلاح الدين ، وجهر فى وجه الصهيونية وأعوانها بأنهم دخلاء أفاقون ، وأنذرهم بأن الاعتداء على فلسطين كارثة لا طاقة لنا بالصبر عليها ، ولا بد لنا من استردادها ، لأنها من تراب الآباء الأعزة :

قلبى وفيضُ دموعى كلما خطرت ذكرى فلسطين خفّاقٌ وهتّانُ

لقـد أعاد بها التاريخ أندلسـا أخرى وطاف بها للشر طوفان

ميراثنا فى فتى حطين أين مضى وهل نهايتنـا يُتْمٌ وحرمان ؟

رُدُّوا تراث أبينا مالكم صلة به ولا لكمُ فى أمرنا شان
مصيبة بَرِمَ الصبر الجميل بها وعزَّ فيها على السلوان سلوان

٣ ـ الوجدان المشترك

على أن من دعائم القومية وحدة الوجدان، والمشاركة فى الأفراح ، ومقاسمة الآلام والأتراح لأن العرب إخوة يتقاسمون السراء ، ويتآزرون فى الضراء .

ولقد صور الجارم المشاركة الوجدانية فى عدة صور ، واحتفى بتصويرها بين المدن والأنهار والجبال والأشجار والآثار ، ليؤكد الود والإخاء والوفاء ، لأنها ماثلة فى النبات والجماد ، فلا بد أن تكون بين الأناسى أقوى وأعمق ، وبهذا أضفى على الأحجار والأشجار مشاعر العرب التى لا تحول ولا تزول :

تذوب جُشاشاتُ العواصم حسرةً إذا دَمِيَتْ من كف بغداد إصبعُ
لو صُدِّعَتْ فى سفح لبنان صخرة لدكَّ ذُرا الأهرام هذا التصدعُ
ولو بَرَدَى أَنَّتْ لخطب مياهه لسالت بوادى النيل للنيل أدمعُ
ولو مسَّ رَضْوَى عاصفُ الريح مرة لباتت له أكبادنا تتصدعُ

وهو فى صورة أخرى يضفى على النخل فى رشيد وبغداد مظاهر الحب المتبادل ، فالنخل هنا وهناك متحابان ودجلة والفرات بالنيل مغرمان ، والهرم والإيوان متعانقان :

بغداد يا بلد الرشيـ ـد ومنارة المجد التليد
يا سطر مجد للعرو بة خُطَّ فى لوح الوجود
أهلوك أهلونا وأبـ ـناء العشيرة والجدود
بين القلوب تَشَوُّفٌ كتشوف الصب العميد
حتى يكاد يحب نخـ ـلك نخلُ أهلى فى رشيد
شَطَّتْ منا زلنا وما آحتاج الفؤاد إلى بريد

الرافدان تمازجا في الحب بالنيل السعيد
وتعانق الظلان ظل الطاق والهرم المشيد

وفي صورة ثالثة يضفي على نخيل مصر وأرز لبنان مظاهر الإخاء فيقول :

لبنان مذ حلت ذراك ركابنا جلت من الدنيا بأكرم ساح
الأرز فيك ونخل مصر كلاهما أخوان في الأتراح والأفراح
والنيل منك فلو بكيت لفادح غمر الشطوط بدمعه النضاح

ويردد التصوير مرة رابعة فيقول :

حمامة وادي الرافدين ابعثي الهوى حنينا فما أحلى الحنين وما أشدى
ففي النيل أرواح ترف خوافق تقاسمك التاريخ والدين والودا
ظماء إلى ماء بدجلة سلسل تود بنور العين لو رأت الوردا
إذا مست الباساء أذيال دجلة قرأت الأسى في صفحة النيل والكمدا
وإن طرفت عين ببغداد من قذى رأيت بمصر أعينا ملئت سهدا
إخاء على الفصحى توثق عقده وشدت على الإيمان أطرافه شدا
لنا في صميم المجد خير أبوة زهينا بها أصلا وتاهت بنا ولدا

وأرجح أنه متأثر في هذا التصوير بشوقي في قوله من قصيدته التي حيا بها مبايعيه بإمارة الشعر سنة ١٩٢٧ م :

يا عكاظا تألف الشرق فيه من فلسطينه إلى بغدانه
رب جار تلفتت مصر توليه سؤال الكريم عن جيرانه
بعثتني معزيا بمآقي وطني أو مهنئا بلسانه
كان شعري الغناء في فرح الشرق وكان العزاء في أحزانه
قد قضى الله أن يؤلفنا الجرح وأن نلتقي على أشجانه
كلما أن بالعراق جريح لمس الشرق جنبه في عمانه
وعلينا كما عليكم جديد تتنزى الليوث في قضبانه
نحن بالفكر بالديار سواء كلنا مشفق على أوطانه

٤ ـ التاريخ المشترك

على أن الجارم كثيراً ما جلجل بالتاريخ العريق الذى يعتز العرب به ويباهون ، فقد كانوا فى سالف عهدهم زينة الأرض وسادة العالم ، والمثل العليا فى البطولة والسماحة والكرم والنخوة والمعرفة والحضارة ، وهو إذ يهتف بهذا المجد يحض العرب على استعادته ، ويبغض إليهم المذلة والضعف ، ويذكرهم ببطولات آبائهم فى عدة قصائد وفى عدة صور ، حسبنا منها أن سيوفهم روعت الدنيا ، وحطمت عرش كسرى وقيصر ، وأن عزماتهم كانت تطير بهم إلى ميادين الجهاد كأنها خيل تركض بهم ركضاً ، وأنهم كانوا فى أتون الحرب نيرانا لا تعبأ بنار . ثم فاخر بنظمهم وأخلاقهم ، فهم الذين علموا الناس المساواة ، وهم الذين أشهروا سيوفهم لنصرة الحق ، وهم الذين قوضوا صروح الشرك ، وأقاموا صروح التوحيد ، وهم الذين حكموا العالم بالعدل والرحمة ، وأضاءوا للناس طرق العلم والمعرفة ، فكانت أقلامهم تواكب سيوفهم وتلاحق رماحهم .

لهذا فضلهم الجارم على الأمم التى سبقتهم كالفرس واليونان والرومان ، ثم ختم فخاره بالأسى ، لأن الأضغان ذهبت بقوة العرب ومجدهم ووحدتهم :

إنى كتاب إلى الأجيال تقرؤه ... له التغنى بمجد العرب عنوانُ
مجد على الدهر مذ كانت أوائله ... ودولة لبنى الفصحى وسلطان
صوارمٌ ريعتْ الدنيا لوثبتها ... وحُطِّمت صولجانات وتيجان
الناس عندهمُ أبناء واحدة ... فليس فى الأرض سادات وعبدان
تراكضوا فوق خيل من عزائمهم ... لهم من الحق أسياف وخُرْصان
وكلما هدَّموا للشرك بانخة ... أقيم للدين والقسطاس بنيان
فى السلم إن حكموا كانوا ملائكة ... وفى لظى الحرب تحت النقع جنَّان
أقلامهم سايرت أسياف صولتهم ... للسيف فتح وللأقلام عرفان

فاين من شرعهم روما وما تركت ... وأين من علمهم فرس ويونان ؟
كانوا أساتذة الآفاق كم نهلت ... من فيضهم أمم ظمأى وبلدان
كانوا يدا ضمت الدنيا أصابعُها ... ففـرقتها حـزازات وأضغـان

ويباهي بالعرب أجداده فيقول :

أين عمرو فتى العـروبة والإقـ ... ـدام أوفى مجاهد بالعقـود ؟
شنمّرىّ يحطم السـيف بالسيـ ... ـف ويرى الصنـديد بالصناديد
لم يكن جيشـه لدى الزحف إلا ... قوة العزم صـورت فى جنـود

إلى أن يقول :

ملكوا الأرض لم يسيئوا إلى شعـ ... ـب ولم يحكموه حكم العبيـد
هم جدودى وأين مثـل جدودى ... إن تصـدى مفاخر بالجدود

ولم ينس فى وصفه الصحراء أن يستطرد إلى الإشادة بأخلاق العرب وعزهم وعلمهم وبأسهم وبسطة ملكهم وفضلهم على العالم ، لأن الصحراء أنبتت أصولهم الأولى أحسن نبات وأزكاه ، وورثتهم من صفاتها وصلاتها :

صحراءُ فيك خبيئاً سرّ عزتنـا ... فافصحى عن مكان السر واهدينا
إنا بنو العُرْب يا صحراءكم نحتت ... من صخرك الصلد أخلاقاً أوالينا
عزوا وعزت بهم أخلاقِ أمتهم ... فى الأرض لما أعزوا الخُلُقَ والدينا
منصة الحكم زانوهـا ملائكة ... وجلوة الحرب شبوها شبا طينا
كانوا رعاة جمال قبل نهضتهم ... وبعدها مـلأوا الآفاق تمدينـا
إن كبرت بأقاصى النيـل مئذنة ... سمعت فى الغرب تهليل المصلينا

٥ ـ الإسلام

ولم ينس أن الإسلام وشيجة من وشائج القومية العربية، لأنه بالنسبة إلى المسلمين عقيدة وشريعة ، وبالنسبة إليهم وإلى المسيحيين حضارة وثقافة وآداب وتاريخ ومجد ، فقال فى مناجاة سكان الحجاز :

يا جيرة الحرم المزهوّ ساكنُهُ   سقى العهودَ الخوالى كل منسكب
لى بينكم صلة عزت أواصرها   لأنها صلة القرآن والنسب

وقال لسكان العراق :

سموتُ إلى بغداد والشوق نحوها   يساورنى حينا وحينا أساوِرُه
كلانا نأى عن أهله وعشيره   ليلقاه فيها أهله وعشائره
حبيبٌ إلى نفسى العراقُ وأهلُهُ   وسالفه الزاهى المجيد وحاضره
ديار بها الإسلام أرسل ضوءه   فسار مسير الشمس فى الأفق سائره
ومدت بها الآداب ظلا على الورى   تساوت به آصاله وهواجره
تجلّى بها عهد الرشيد وعزّه   وزاهرُ ملك الفاتحين وباهره
إذا شئت مجد العُرْبِ فى عُنْفُوانه   فهذى مغانيه وهذى منائره

وردد الآصرة الدينية فى قوله لسكان السودان:

إن جزتَ يوماً إلى السودان فارع له   مودة كصفاء الدر مكنونا
عهد له قدر عيناه بأعيننا   وعروة قد عقدناها بأيدينا
ظل العروبة والقرآن يجمعنا   وسلسل النيل يرويهم ويروينا

ثالثاً : نصائح للعرب

على أن الجارم لم يقتصر على هذا الهتاف ، فإنه كان ينتهز الفرص ليهيب بالعرب أن يثبوا إلى آمالهم وثباً ، وأن يطيروا إلى العلاطيرانا ، وأن يحققوا وحدتهم ليعتصموا بها ، فيراهم العدو جماعة فى فرد وفردا فى جماعة ، وكان يحضهم على

أن يجددوا آمالهم وأعمالهم ، وألا يقنعوا بمطلب ينالونه ، كقوله :

أمةَ العُرْبِ آن أن ينْهَضَ النَّسْـ ـر فقد طال عهــد الرقود
صفقى بالجناح فى أذن النَّجْـ ـم ومُدِّى فضلَ العِنــانِ وسودى
وأعيدى حضارة زانت الدنـ ـيا فكم وَدَّتْ المنى أن تُعيدى
إنما المجد أن تريدى وتَمْضِى ثم تمضى سباقة وتريـدى
لا ينال العلا ســوى عبقــرى راسخ العزم كالصَّفَاة جَلْيــد

وقال فى حفز العزائم :

يا أمــة العــرب اركضى ملء العنــان ولا تميـــدى
ســـودى فآمــال المــنى والعبقـــرية أن تســـودى
هذا أوان العَـــدْوِ لا الـ إبطـــاء والمشى الرئيـــد
المجــد أن تتــوثبى وإذا وثبت فــلا تحيـــدى
وتحــلقى فــوق النجو م بلا شبيه أو نديد
وإذا شــدا الكون المغــا نى كنت عنــوان النشيـــد
لا تخطىء حَـــدًّا العُــلا مــا للمعالى من حدود

وذكرهم — فى مجال التحميس على مجاهدة الاستعمار — بأنهم أبناء الحروب ألفوها وألفتهم ، واستحلوا غبارها ، فكان فى أفواههم ألذ من الشهد ، وكان فى أنوفهم أطيب من المسك ، وعقب على هذا بأن القوة هى الوسيلة للذود عن وطنهم واسترداد حقوقهم .

أولئك أبنــاء العــروبة ما لهم عن الفضل منأى أو عن المجد منْزَع
همُ فى ظلال الحق جمعٌ موحَّـــد وعنـــد التقاء الرأى فرد مُجَمَّع
وقد يدرك الغايات رأى مُدَرَّع إذا ناء بالأمر الكمى المدرع
لهم أمل لا ينتهى عنــد مطلب لقد ذل من يُعْطَى القليل فيقنع
غبار رحا الهيجــاء فى لهــواتهم من الشهد أحلى أو من المسك أضوع
إذا لم يكن حلم الحليم بنــافــع فإن صدام الجهل بالجهل أنفع

ولما أعلن انتهاء الحرب الكبرى فى مايو سنة ١٩٤٥ استقبل الجارم هذه البشرى بالبهجة ، ورسم صوراً لأمانيه ، ومنها أن يسترد العرب عزهم واستقلالهم :

ليت شعرى ماذا شجنى من النصـ سر وهل تصدُق الليالى الوعودا ؟
وهل الأربعُ الروائع (١) كانت حُلُما أم مواثقاً وعهودا ؟
وهـل العـرب تسترد حماها وتناجى فردوسها المفقودا ؟
وترى فى السلام مجداً طريفا جاء يحيى بالأمس مجداً تليدا ؟

رابعاً : فرح ببشائر قوتهم :

وحينما بدأ الحلم يتحقق ، واستهلت الجامعة العربية سنة ١٩٤٤ م ابتهج الجارم ، وتغنى ببهجته فى قصيدة طويلة ، تحدث فيها عن يقظة العرب ، ونهضتهم المباركة ، ووحدتهم المأمولة .

وإذا كان قد عبر عن العرب بالشرق ، فإن الشعراء كانوا فى عصره وما زالوا إلى اليوم يطلقون كلمة الشرق وهم يريدون الوطن العربى كما سبق فى دراسة العروبة فى شعر شوقى :

صحا الشرق وانجاب الكرى عن عيونه وليس لمن رام الكواكب مضجعُ
إذا كان فى أحلام ماضيه رائعا فنهضته الكبرى أجل وأروع
توحد حتى صار قابا تحوطه قلوب من العرب الكرام وأضلع
لقد كان حلماً أن نرى الشرق وحدة ولكنْ من الأحلام ما يتوقع
إذا عُدِّدتْ راياته فهى راية وإن كثرت أوطانه فهى موضع
فليست حدود الأرض تفصل بيننا لنا الشرق حدٌ والعروبة موقع

لكن هذه الجامعة فى حاجة إلى يقظة راعية ، وعيون ساهرة ، وقوة حامية .

---

(١) الحريات الأربع فى ميثاق الأطلسى .

لأن الدول الغربية كانت تحسبها جامعة صورية فإذا هي جامعة حقيقية عملية وإذا هي تمهيد لوحدة أقوى وأصلب وأعظم .

ولذلك نبه الجارم العرب أن الدول الأوربية قد تنمرت لتثأر لنفسها من غزوات العرب الماضية ، ولم يقتصر على التنبيه والتذكير ، بل شفع إليهما حماسة اقتبسها من الماضي ، وفخاراً استمده من الحاضر ، لتعظم ثقة العرب بأنفسهم وقوتهم ، فلا يضعفهم تهديد الغرب ولا وعيدة :

تَنَمَّرَ الغَــرْبُ واحمــرت مخاليه ... وأرهفَتْ نابها للفتك ذُؤْبانُ

ثارات طــارق الأولى تؤرقهم ... وما لما تترك الثــارات نسيــان

تيقظ الليث ليث الشرق محتــدما ... فارتج منــه الثرى واهتز خفّــان

غضبان رد إلى اليانوخ عفرية ... ومن يصاول ليثا وهــو غضبان ؟

لقــد حمينا أباة الضيم حوزتنــا ... من أن تبــاح ودنَّاهم كما دانوا

هكذا كان الجارم يصدح بالعروبة ، ويتغنى للوحدة .

ثم أذن الله للوحدة أن يتنفس صباحها ، ولكن بعد أن غربت حياة كثير من الذين ناجوها ، فليتهم عاشوا حتى زادا بشائرها فناغوها ، وهي تبعث أشعة تبشر بالفجر الجديد .

العروبة في شعر عزيز أباظة

العروبة فى شعر عزيز أباظه *

سيادة الرئيس .

سيداتى وسادتى .

عزيز على أن أقف هذا الموقف لأؤبن عضوًا بارزًا من أعضاء مجمع اللغة العربية شارك جادًّا مخلصًا فى أعمال المجمع أربعة عشر عاماً ، كان فيها أثيرًا عند زملائه جميعاً ، أحبوه لفنه ،وقدروه لعلمه ، وأعزوه لدماثة خلقه . ..

وعزيز على أن أرثى شاعرًا كبيرًا من شعراء العروبة أثرى الأدب العربى بشعره وبمسرحياته ، ووقف صبورًا جلدًا مظفرًا فى صد تيار العامية عن الأدب كله .

لكن الأسى لا يرد قضاء،ولا يعيد فقيدًا،فليكن عزيز أباظة حياًبيننا بآثاره ، وإنها لجديرة بأن تحيا وتبقى كما حييت وبقيت آثار البلغاء منذ العصر الجاهلى إلى اليوم .

وبحسبى فى هذا المقام أن أعرف به وبشعره فى غير تفصيل وفى غير إجمال .

١ ــ حياته

ولد الفقيد فى ١٣ من أغسطس سنة ١٨٩٨ بقرية (الربعماية) مركز (منيا القمح) بمحافظة الشرقية ،وتعلم بالمدرسة الناصرية الابتدائية بالقاهرة، ثم بالمدرسة التوفيقية والسعيدية الثانويتين بالقاهرة، ونال شهادة الدراسة الثانوية

(*) القيته فى حفل تأبين فقيد المجتمع المرحوم الأستاذ عزيز اباظة بدار المجمع فى صباح يوم الأربعاء ٢١ من نوفمبر سنة ١٩٧٣ م . ونشر بمجلة الثقافة العدد الثامن مايو ١٩٧٤ .

سنة ١٩١٨ ، فالتحق بمدرسة الحقوق ، وتخرج فيها سنة ١٩٢٣ ، واحترف بالمحاماة ، ثم عين عضواً بالنيابة ، ثم عضواً فى مجلس النواب :

وفى سنة ١٩٣٣ عين مديراً لتحقيق الشخصية بوزارة الداخلية، ثم وكيلا لمديرية البحيرة سنة ١٩٣٥ فوكيلا لمديرية الجيزة :

وفى سنة ١٩٣٩ عين مديراً للقليوبية فالفيوم فالمنيا، ثم محافظاً وحاكماً عسكرياً لمنطقة القناة سنة ١٩٤١ ، ثم مديراً للبحيرة ثم أسيوط .

وفى سنة ١٩٤٧ اختير عضواً بمجلس الشيوخ، وعمل بعد ذلك فى الميدان الاقتصادى .

وفى سنة ١٩٥٩ اختير عضواً بمجمع اللغة العربية ، وكان فى الوقت نفسه عضواً بالمجلس الأعلى لرعاية الآداب والفنون والعلوم الاجتماعية ، وعضواً مراسلاً بالمجمع العلمى العراقى .

وقد شارك فى ثلاث لجان بالمجمع اللغوى هى لجنة القانون والاقتصاد ، وألفاظ الحضارة ولجنة الأدب .

وقد منحته الدولة الجائزة التقديرية سنة ١٩٦٥ ، وجاء فى تقدير الجائزة بالمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية .

إن الأستاذ عزيز أباظة يمتاز فى إنتاجه الأدبى بما وفق إليه من الإبداع الفنى فى شعره الغنائى والمسرحى .

وكانت وفاته فى العاشر من يوليو سنة ١٩٧٣ م :

٢ ـ مولفاته

أولاً : فى مجال الشعر :

١ ـ أبيات حائرة ، ديوان كاه فى رثاء زوجته .

٢ ـ قيس ولبنى .

٣ ـ العباسة .

٤ ـ الناصر .

٥ ـ شجرة الدر .

٦ ـ غروب الأندلس .

٧ ـ شهريار .

٨ ـ أوراق الخريف .

٩ ـ قافلة النور .

١٠ ـ قيصر .

وهذه كلها مسرحيات شعرية .

ثانياً : البحوث والكلمات والقصائد المتصلة بالمجمع اللغوى :

١ ـ كلمة عن سلفه أنوليمان ألقاها فى حفل استقباله بالمجمع (دورة ٢٦ جزء ١١ للمجالس ؛ المجلة العدد ١٤) .

٢ ـ المسرح الشعرى ، بحث ألقاه بالمجمع . (د ٢٧ ج ٧ للمؤتمر ــ البحوث والمحاضرات) .

٣ ـ كلمة فى استقبال الدكتور محمود توفيق حفناوى (د ٢٩ ج ١٦ للمجالس ــ المجلة العدد ١٧) .

٤ ـ لغة الشعر ــ كلمة ألقاها فى مؤتمر المجمع ببغداد . (د ٣٢ ج ٦ لمؤتمر بغداد) .

٥ ـ الفصحى والعامية من زاوية جديدة . (د ٣٢ ج ٩ المؤتمر الثالث)

٦ ـ قصيدة فى تأبين رئيس المجمع الأستاذ أحمد لطفى السيد .
(د ٢٩ ج ٢٧ للمجلس ـ المجلة العدد ١٨) .

٧ ـ قصيدة فى تأبين عضو المجمع الأستاذ عباس محمود العقاد ..
(د ٣٠ ج ٢٧ للمجلس ـ المجلة عدد ١٩) .

٨ ـ تحية بغداد ـ قصيدة ألقاها فى الجلسة الافتتاحية لمؤتمر بغداد .
(د ٣٢) .

٩ ـ قصيدة فى تأبين عضو المجمع الأستاذ محمد رضا الشبيبى .
(د ٣٢ ج ٨ لمؤتمر القاهرة) .

١٠ ـ قصيدة فى تأبين عضو المجمع الشيخ محمد على النجار .
(د ٣٢ ج ٢٣ للمجلس)

١١ ـ قصيدة فى تأبين الأستاذ مصطفى نظيف عضو المجمع . (نشرت بمجلة المجمع العدد ٢٨ فى نوفمبر سنة ١٩٧١) .

١٢ ـ قصيدة تحية لرسالة العلم (المجلة التى تصدرها جمعية خريجى كليات العلوم برياسة الدكتور عبد الحليم منتصر ـ مارس ١٩٧٣) .

١٣ ـ كلمة أعدها لاستقبال الأستاذ مصطفى مرعى بالمجمع اللغوى ، وألقاها بعد وفاة نيابة عنه الأستاذ ثروت أباظة فى يوم الأربعاء ١١ من ذى القعدة سنة ١٣٩٣ هـ ، الموافق ٥ من ديسمبر سنة ١٩٧٣ م .

٣ ـ شعره المسرحي

١ ـ المسرحية الشعرية إنتاج زاخر أو بستان ناضر يضم عشرات الألوان، ففيها عشرات القصائد والمقطعات ، وفيها ألوان شتى من الموضوعات ، كالوصف والحرب والحماسة والحكمة والغزل ، وفيها ضروب من التكلم والخطاب والحوار والجدل . وبها شعر ينطق به واحد ، وشعر تنطق به جماعة وشعر يعبر عن فرد ، وشعر يعبر عن أفراد أو عن أمة ، وهي من أوزان شتى وقواف عدة .

ومن هنا تجيء صعوبتها على الشاعر ، وتجيء دلالتها على مقدرة الشاعر :

٢ ـ ولقد أثبت عزيز أباظة بمسرحياته التسع ما أثبته شوقي من قبل بمسرحياته أن الشعر العربي قدير على الوفاء بما تقتضيه المسرحية من عرض للأحداث ، وتصوير للنفسيات ، وحوار على ألسنة الذكور والإناث والكبار والصغار ، وتعبير عن أخلاق الأخيار والأشرار والأقوياء والضعفاء والفرحى والحزناء والسعداء والأشقياء .

وبهذا بطل ما لاكته ألسنة وسطرته أقلام أن الشعر العربي كز عسر لا يطاوع الشاعر المسرحي وأن الخيال العربي ضحل لا يستطيع أن يحلق ولا أن يحلل ويركب ويبتدع الأحداث والأشخاص ، وأن البلاغة العربية ضيقة تعتمد على الإيجاز ولا تعرف التفصيل والتوضيح والإطناب .

٣ ـ وإذا كان الشعر العالمي قد أتى عليه دهر طويل وهو يصطنع الشعر وحده لغة للمسرحية فإن الرومانتيكية حاولت أن تنزل الشعر من عليائه لتحل النثر محله ، وناصرها في اتجاهها المذهب الواقعي والمذهب الطبيعي، ولكن الشعر لم يستسلم لهذه المنافسة ، وآزره في ثباته الذين نهضوا لمقاومة الواقعية والطبيعية .

وكان من الحاملين على الشعر المسرحي نقاد دعوا إلى إيثار النثر بدعوى التزام الواقع ، وبدا فى بعض الأحيان أن الغلبة لدعاة النثر وأنصار الواقع وبخاصة بعد أن راجت قصص تشيكوف وإبسن وأضرابهما ، حتى أن الشاعر الكبير إليوت — وهو من أنصار الشعر المسرحي — كاد يداخله اليأس من أن يسترد الشعر مجده المسرحي فقال :

« يظهر أن عالمنا المعاصر حافل بالفوضى ، وأن المجتمع الذى نعيش فيه تعوزه المقاييس الدقيقة ، فصارت وظيفة الشاعر المسرحي شاقة جدًّا أو مستحيلة » .

وكان لهذه الدعوة أو لهذا اليأس صدى فى مصر والعالم العربى ، فقال الدكتور طه حسين « إن الشعر لم يعد صالحاً للمسرح » .

وسرعان ما نتأت إلى جانب تلك الدعوة دعوة أخرى أشد خطرًا ، وهى الدعوة إلى اتخاذ اللغة العامية لغة للمسرح ، بدعوى الحرص على محاكاة الطبيعة ومجاراة الواقع .

٤ — وما أيسر الرد على الدعويين : دعوى تنحية الشعر عن لغة المسرح ، ودعوى إيثار العامية على الفصحى .

ومن الوفاء لذكرى شاعرنا عزيز أباظة أن أنقل هنا بعض ما رد به .

قال فى مقدمة مسرحيته شهريار : « إن الشعر يحفظ الاتزان بين الواقعية والشكل الخالص وبين العرض الحرفى والتجريد ، إنه يحقق الهدف الفنى الرائع ، فرسالته فى كريم أعرافها توطىء لنا سبيل فهم هذه الحياة وإدراك قيمها وجمالها .

ويبدو لى أن وراء الانفعالات المعروفة والدوافع الشعورية — تلك التى تقتصر المسرحية النثرية على عرضها — يبدو لى أن وراء ذلك تنبسط آفاق لاشعورية ليست بذات حدود ، إنها الانفعالات التى لا نستطيع أن نجلو عواملها إلا إذا

تجردنا من أنفسنا ، وسمونا فوق أفعالنا وتجاربنا ، إنها الحقائق الخالدة التي لا يسجلها إلا الشعر بإيقاعه .

وقال أيضاً : « قال أنصار الواقعية فيما قالوا : وما التراكيب الفصيحة ؟ وما الأسلوب الشريف ؟ الكلام بغيرهما أبين ، والفهم أدنى وأيسر .

ثم برزوا مسفرين مصرين مجاهرين فدعا منهم إلى أخلاط من التعابير المتهافتة الغثة من الشعر المنثور والنثر المشعور يقيمونه باسم الحقد والعجز على أنقاض الشعر الأصيل .

ودعا فريق آخر إلى العامية يكتب بها الناس قصصهم ومسرحياتهم لتقوم باسم التقدمية أو الشعوبية على أنقاض تلك الذخيرة الربانية من النثر العربي المحكم ، وساقوها دعوة أدبية فنية ، وهى دعوة أثيمة خبيثة تكمن وراءها مساندات مظاهرات نفوس سقيمة عطاش لهدم كل ماهو مأثور من تراث العصور ، وكل قيم من ذخائر الحضارات التي هذبها الزمن وأغلاها العتق .

من الحق لكم ، ومن الحق عليكم أيها الخالدون أن تنفروا لدفع هذه الغاشية التي داهمتنا بأخرة ، هذه الغاشية التي تأتمر بلغة كتاب الله ، وتأتمر بعروبتنا التي نعتز بها ونستمسك، هذه العروبة التي لا يجمعها فى نسق كريم فريد جامع أقوى وأكثر وأبلغ وأبرع وأكرم وأمتن وأرصن من هذه اللغة الإلهية الفخمة الجامعة الواعية المبينة المؤدية المفصلة .

من الحق لكم ومن الحق عليكم أيها الخالدون أن تجهروا بأصواتكم — وهى فى هذا المقام من أصوات النبوة — مطالبين كل دولة عربية أن تطهر صحفها وإذاعتها ومسارحها الجادة من خبيثين قاتلين : خبث مساندة العامية وإشاعتها باسم التخفيف والتيسير ،وخبث مجاهرة الأدب بعدوان سافر يهون من أقداس شعره ونثره باسم التجديد والتطور ، فإن فعلتم — وإنكم لفاعلون — فنحن الأعلون ، والله معنا »(١) .

---

(١) البحوث والمحاضرات ١٥٦ ، سنة ١٩٦٠ — ١٩٦١ .

أرأيتم إلى اعتزازه بالعربية الفصحى لغة للأدب ؟

ثم أرأيتم إلى حملته على العامية وأنصار العامية ؟

وإلى دفاعه عن الشعر لغة للمسرحيات الجادة ؟

وما من شك فى أنه محق فيما قال ، لأن الذين دعوا إلى العامية لغة للمسرح بدعوى مجاراة الطبيعة والواقع واهمون ، فإن الواقع الذى ينبغى أن يتوخاه مؤلفو المسرحيات ليس هو واقع اللغة التى يتفاهم بها الناس فى حياتهم اليومية وشئونهم المعتادة ، بل هو الواقع الفكرى والعاطفى والنفسى للشخصيات ، بحيث لا تصدر الحكمة عن أحمق ، ولا تنطلق الفلسفة من جاهل ، ولا يجىء الهدى على لسان ضال ، ولا يبدوجبن من بطل . . . إلخ .

وعلى الذين يتحمسون للواقع أن يسألوا أنفسهم أسئلة شتى ، منها :

هل يتناسب الواقع ورقعة المسرح الصغيرة التى لا تمثل شيئاً من ميادين الحياة الفسيحة الرحبة ؟

وهل يتفق الواقع وتلك الأزياء والمناظر التى يشهدها النظارة على خشبة المسرح ؟

وهل يتشابه الواقع وهذه المشكلات والعقد والحلول التى تعرض فى ساعتين أو ثلاث وقد حدثت فى شهور أو أعوام ؟ .

على أن التزام الفصحى يتيح لأبناء الأمة العربية جميعاً أن يفهموا و يتذوقوا ما قرضه شاعر المسرحية ، لأن الفصحى لغتهم الأم التى يتوافقون عليها و يتفاهمون بها و يتواصلون بأسبابها ، أما العامية فهى أشتات وأصناف تختلف باختلاف الأقاليم ، بل تختلف فى الإقليم الواحد .

وإذا كان فى مسرحية (أوراق الخريف) قد استخدم كلمات مما يدور على ألسنة العامة ، فإنه قد قصد إلى تسهيل الفصحى من ناحية ، وإلى الدلالة على صحة هذه الكلمات من ناحية ، مثل :

حسادة ، روق ، عجايب ، البخت ، مبسوس الذرة ، تعكير المزاج ، من غير كلام .

٤ ــ العروبة فى شعره

كان عزيز أباظة معتزًا بعروبته لغة ودماً ووطناً ووجداناً وحضارة وآلاماً وآمالا وثقافة .

وللعروبة فى شعره مظاهر جهر بها مرات على لسانه ، أو أدارها على الشخصيات فى المسرحيات .

١ ــ فقد زار قرطبة ، وطوف بأرجائها ، وتلبث عند معالمها ، وأطال الوقوف فى مسجدها وقبالة مئذنته ، فخيل إليه أن قلبها ما يزال يعتصره ألم ، وأن جسراتها على عصرها العربى الذهنى ثائرة لم تخمد ، وتذكر قصر الزهراء الذى كان قطب السياسة العالمية فى عهد عبد الرحمن الناصر ، وتخيل عظمة قرطبة وآدابها وعلومها وحضارتها والوفود التى كانت تهرع إليها ، لترتوى من مناهلها ، فقال فى قصيدته (وقفة على قرطبة) :

يا جارة المسجد البالى ومئذنة ... الله كان يناجَى من مشارفها
ماذا دهاها فأمست وهى ناهدة ... فى غير ما ألفته من معاطفها ؟
وقفت فى طالل الزهراء مختشعاً ... والنفس نهب لعات من عواصفها
أرنو فيرتد طرفى راعشاً وجلا ... كهائب اللجة الكبرى وخائفها
طوفت بالطلل الأسوان أسأله ... أين الخلافة فى حضنىْ خلائفها؟
أين ابن بجدتها شعّت حضارته ... سناً على سالف الدنيا وآنفها ؟
الناصر الظافر المخشى جانبه ... فى حينها دب سماع فى تنائفها
الباذل العلم عن أعلام جامعة ... تدنى الثمار مزكّاة لقاطفها
لا ظل روما ولا أفياء قدوتها ... بمجزىء العقل عن ملتف وارفها

ذكرت يوم الوفود الضخم ساعية ... للقصر ترفل فى ضاحى ملاحفها
فزف كل كبير من عواهلهــا ... وخف كل وزور من أســاقفها
ساقوا الهدايا وســاقوا بينها خطباً ... أنساهم الروع طرقاً من طرائفها

ثم تبدو الحسرة فى قوله :

لم يترك الدهر من راووق أندلس ... إلا شُفَافة راحٍ مــن عوارفها
لهفى على حسنها الذاوى وزهرتهــا ... وحاليات الحواشى من رفارفهــا
وقلت : أين حضارات ومعــرفة ... أظل هذا الورى موشّى وارفها ؟
وأين هدى تهدَّى من صحائفها ... وأين نور تجلى من مصاحفها ؟
يا ويحها ذكريات هِجْن حرقاً ... تنساب فى راسب الذكرى وطائفها

٢ — ودعا إلى وحدة العرب ، وحرص عليها ، ونفرهم من الفاقة والانقسام والتخاذل ، ففى مسرحية (غروب الأندلس) أدار حواراً بين محمد بن سعد الزغل شقيق السلطان أبى الحسن وولى عهده وبين ابن سراج وعائشة وموسى ابن أبى العسان ، فصور أسى الزغل من الفتن المشتعلة بين العرب ، وبغضته لتأريثها ، واستنكاره الجنوح إلى مثيريه على الولايات العربية المجاورة ، فى الوقت الذى يجب فيه على العرب أن يتآزروا كالبنيان المرصوص ليردوا هجمات الفرنجة ، فيصونوا حصن العروبة ، ويفتدوا عزة الإسلام :

عرضتم لضخم الأمر لم تتذاكروا ... عواقب قد تبــدو لكم وتغيب
أتأريث أضغــان وإيقــاظ فتنة ... تدك قوانا والعــدو رقوب ؟
إذا لم نقف صفاً هلكنا وأطبقت ... قواطع تفــرى ملكنا ونيوب
فلا تطمسوا الإســلام إن شروقه ... ســيغشاه مما تزمعون غروب

وصور فى مسرحية (العباسة) سخط زبيدة على تفرق العرب بالشام ، وكيد بعضهم لبعض وعجبها من العصبية الحمقاء بين اليمانية والنزارية وهم جميعاً أبناء عمومة يستظلون براية الإسلام :

وهل كان الشــام غير الشقّا   ق فى كلّ شــقاق لــه مقْطع
يمــانيــة أو نــزاريــة   وبينهــا . رحــم تجمــع
ولــو أنهم تُركــوا راجعــوا الـ   ـأنــاة وعــن جهلهم أقلعــوا

٣ ــ وأشاد بوحدة الدم ووحدة الدين والوجدان المشترك فى وثيق العلائق بين العرب وإن تعددت أقاليمهم وتناءت ديارهم ، فصور هذا فى مسرحية (غروب الأندلس) على لسان الأميرة عائشة زوجة السلطان أبى الحسن فى حديث بينهما وبين السلطان الغورى حينما جاءت من الأندلس إلى مصر لتستنجد به على الفرنجة :

حيّيت يا ملك الملوك ولم تزل   أعــلامهم وأعــزهم ســلطانا
وبقيت للأمم الشقيقــة موْئلا   فى إدّها ومنــاصرًا مغوانا
قد آن أن أمضى إلى وطنى وإن   كانت دياركم لنــا أوطانــا
الدين قــربى والعــروبة لحمــة   ولعــل أقوى الآصرات أســانا
تلك الوشــائج وحــدت ما بيننا   وإن اختلفنــا رايــة ومكانــا

فرد عليها الغورى مستجيباً ملبياً نداء العروبة، معتزماً على نجدة عرب الأندلس بجيش عربى لجب مظفر يدحر أعداء العروبة والإسلام .

سنشهرهــا حربا ضروســا مبيدة   ونبعثــه جيشــا كثيفا عرمرما
يرد عن الإســلام كيد عــدوه   ويحمى حمى دولاتــه أن تهدما

٤ ــ وإن الاعتزاز بالعروبة وإعزازها والحرص على حمايتها لتتجلى فى كثير من مشاهد مسرحية (العباسة) كقوله على لسان الرشيد للشاعر منصور النمرى .

بل قــل فما فضــل أمــة   إذا لم يؤرخ مجــدها شعراؤها
إذا العرب استعلت بفن شأتْ به   ســواها فهذا شــعرها وغناؤها

وفى المسرحية تصوير لزبيدة وهى تحض هرثمة على التنكيل بالبرامكة ،

خشية على الملك العربي أن يقوضوه وعلى الإسلام أن يرثوه ، بعد ما تبين لها وللعرب أن البرامكة أبطرهم الجاه والسلطان والثراء، فجعلوا يكيدون للعرب ، و يتطلعون إلى بعث ملك كسرى .

لا تنــاموا عن جعفر فله كالذ ئب عــين يقظى ونــومٌ مُطار
لست أطوى له سـخيمة صدر لا ولا بينـه وبينى ثــار
غير أنى أخشى على الملك منه وعــلى عترْة النبى أغــار

وفيها تصوير للقائد العربي الفضل بن الربيع ناقماً من البرامكة ما تنقمه زبيدة فى قوله للأمير جعفر بن الهادى :

فقــل لأهل الزيغ مــن فارس من كل زنديق الهــوى مشترك
لن تبلغــوا فى العــرب أوطاركم ســيمحق الله بنى برمــك

وفى المسرحية صور من شكاوى الشعب إلى الرشيد مما تقترفه البرامكة وعمالهم من قسوة وظلم ومحاباة ، مثل قول أبى الجهم :

أمــين الله أدركنــا فإنّــا مسّنا الضـُّر
نعيشُ العيشــة الدنيــا ويهنــا الأجنبُ الغمْرُ

وقول مخلد .

أترضى أن يجيعــونا وأنت الوَفْــرُ واليسرُ ؟
وأن نمسى بـــلاري وأنت البحـْــرُ والقطْرُ

وقول أبى الجهم مرة ثانية فى تفصيل مثير :

وذنبــانــا همــا الهــون لــــدى الظـــالم والفقرُ
فلسنـــا مــن بنى برمـــ ـــك لا يعصى لهم أمـــرُ
نمــاهم للعـــلا كســـرى ومــانى ومنـــو جهـــرُ
ولكنا من العــرب وحظ العــرب مزْوَرّ
قــريشٌ هـــل لهـــاوزنٌ لــــدى الأعـــلاج أو قدْرُ؟

ومثل إثارة أبي الجهم لنخوة الرشيد في قوله

ولكن ميزوا جنساً من الناس على جنس
وفي الحق فأين العُرْب من مشيخة الفرس ؟]

ثم تعقب عجوز على هذا بقولها للرشيد .

أجِرْنا بتّ مأجوراً من الله ومشكوراً

فيلتهب الرشيد حنقاً على البرامكة ، ويبدو حنقه وعزمه على التنكيل بهم في قوله لجعفر البرمكي .

وسلبتمُ جاه الخليفة جهرة وتركتموه دمية في هيكل
أترفتم مثل الملوك وأمتي جوْعَى تدافع في الحضيض الأسفل

٥ — كانت عروبة عزيز أباظة عقيدة تجلت فيما أسلفت من مظاهر وتجلت في معرض آخر هو المقابلة بين الشعر العربي والشعر الغربي ، فقد كان بحث منذ ثلاثة عشر عاماً وازن فيه موازنة سريعة بين الأدب العربي والأدب الغربي ، ثم أعد موجز هذا البحث للنشر في آخر أيام حياته وإن لم يظهر إلا بعد وفاته .

قال إن الشاعر العربي يؤثر الإيجاز الجامع لأطراف الفكر أو الشعور ، وضرب أمثلة لهذا منها أن شكسبير أطال في تصوير جنون الغيرة في مسرحية (عطيل) حتى انتهت غيرة الزوج بقتل زوجته البريئة، ثم بندمه ،ولكن الشاعر العربي ديك الجن ألم بهذا في إيجاز في قوله .

رويتُ من دمها الثرى ولطالما رويَّ الهوى شفتيَّ من شفتيها
حكّمت سيفي في مجال خناقها ومدامعي تجري على خديها

وراسين جمع في (أتالي) أطراف الحقد الأسود، وعرض للانتقام والمقت

---

(١) مجلة قافلة الزيت — جمادى الثانية ١٣٩٣ (يوليه ١٩٧٣ م) .

على الرغم من الود والرياء والصفاء المستحدث ، على حين أن الشاعر العربي وجد مقنعاً في قوله المركز :

وقد ينبت المرعى على دمن الثرى   وتبقى جزازت النفوس كما هيا

وموليير تحدث في سخرية عن البخل والتقتير ، واستقصى ظواهر النفس المريضة وبواطنها ، ولكن ابن الرومي أرسل في بيت واحد صورة ناطقة حية للبخيل لا يغض من كمالها أنها مرجزة لا مشاهد فيها ولا فصول .

ولو يستطيع لتقتيره   تنفس من منخر واحد

ثم قال إن الأدب العربي سبق إلى الإشادة بالحرية والديمقراطية والاشتراكية والتعاون والسلام وضرب أمثلة لهذا ، منها قول أبي العلاء .

ظلموا الرعية واستجازوا كيدها   وعدوا مصالحها وهم أجراؤها

وقول الشاعر .

الخالطين غنيهم بفقيرهم   حتى يصير فقيرهم كالكافي

وقول معن بن أوس .

دعاني يشب الحرب بيني وبينه   فقلت له . لا بل هلم إلى السلم

٦ — أسلوبه .

كانت موهبته الفطرية ، ودرايته بمتن اللغة وذوقه المرهف ، وغيرته على الفصحى ، وحفاوته بها ، وحبه لها ، هي الدعائم الوطيدة التي قامت عليها خصائص أسلوبه .

١ — فهو حريص على التأنق في اختيار الكلمة ، مشغوف بالرصانة في نظم العبارة ، نفور من العامية ومن الركاكة ومن الإسفاف ، حتى إنه ليتجافى عن الكلمة إذا ما أحس أنها فقدت رونقها لكثرة الأدب والمعاجم ليقتنص كلمات من الفرائد الحسان يرددها في شعره ليكشف عنها أستار الإهمال

أو النسيان .

وفى غير ما تعصب أو تحيز أو جنوح إلى جدال أو مكابرة أو عناد أقول إن فى شعره وفى شعر كبار الشعراء من سابقيه ومعاصريه علوًا عن المستوى العام للقراء ولكن هذا لا يصح أن يتخذ ذريعة إلى لوم أو انتقاص ، لأن الأدب أو الفن أو العلم على اختلاف ضروبه وتعدد ألوانه لا ينبغى أن يكون فى مستوى واحد من التدانى أو التوسط أو العلاء ، ذلك بأن له درجات من الأقدار والمستويات بل إن لكل مستوى من هذا المستويات درجات متباعدات متفاوتات .

وإنه لمن الشطط أن تكلف الشاعر العملاق التزام مستوى عام واحد ، لأننا بهذا الإلزام نقل حريته ، ونحتجزه فى نطاق ضيق لا يتعداه ، ونحول بينه وبين التحليق والابتكار .

والعجب أن الذين ينكرون على الشاعر تجويده وسموه وعزوفه عن المستوى لا ينكرون أن الرسم والموسيقى والغناء لها بطبيعتها وبطبيعة القائمين بها درجات متفاوتات .

وعجب آخر أنهم يجحدون المستويات فى لغة الأدب ولا يجحدونها فى لغة العلوم ، لأن الحقائق العلمية التى تنشر على الجماهير يعمد كاتبوها إلى التبسيط ليتفهمها كثير من القراء ، فإذا ما قصدوا بها طبقة أرقى كان التبسيط أقل مقدارًا وأضيق نطاقاً ، وهكذا حتى تصير ملائمة للمختصين بهذه الدراسات . فلماذا لا يكون من حق الشعراء كلهم أو بعضهم أن يعبروا عن أفكارهم وعواطفهم بأسلوب سام فيه غموض على العامة ، لكنه وضع للمثقفين أثير عندهم ، تستحليه أذواقهم وتهش له نفوسهم ؟ .

على أن استمساك عزيز أباظة بالفصحى وكلفه بالانتقاء ليس معناهما كلفه بالإغراب ، بل معناهما اتخاذ اللغة العربية متناً ونحوًا وصرفاً وسيلة للتعبير عن العاطفة أو الفكرة ، وتنحية العامة عن الأدب الرفيع ، حتى لا تقع العين

فى حديقة الشعر أو بستان النثر إلا على وردة متفتحة ، أو حلنارة متوهجة ، أو أقحوانة مشرقة ، أو آذريونة نضيرة ، أو شجرة ثميرة ، أو دوحة وريقة أو نخلة رشيقة ، أو كرمة دانية القطوف ، أو عشب كالديباج .

من ذا الذى يقرأ أو يسمع هذه الأبيات ولا يشعر بانتقاء اللفظ وجزالة التركيب .

قال على لسان الرشيد فى مسرحية (العباسة) وهو يريد الوقيعة ببنى برمك لطغيانهم السياسى لكنه يتردد مخافة مما أشيع عن قصة أخته العباسة .

وإنى لأخشى قالة السوء فى غد   تقاذف كالدفاع فى البيد والمدن
بأنى من أجل العرض أثخنت فيهم   وللعرض قراضون بالثلب والطعن

وقال على لسان عائشة فى مسرحية (غروب الأندلس) .

الملك يلهو والحوادث حوله   متظاهرات والخطوب سراع
والقصر تفهق بالخنا قاعاته   ويبيت يروى إثمها ويذاع
والشعب مكدود القوى متخفر   إن الضعيف يصول حين يراع
الجور مضروب السرادق حوله   والهون والحرمان والأوجاع
قل للملوك أخشوا شعوبكم إذا   غضبوا وهم سغب البطون جياع

وقال على لسان بثينة فى مسرحية (غروب الأندلس) .

أرى الأرزاء مسرعة خطاها   ونحن إزاءها نمشى الهوينا
إذا لم نسبق الأحداث وثبا   تصلينا لظاها فاكتوينا

٢ — على أنه أضاف إلى هذا التأنق كلفا بجرس الجملة وموسيقاها ، وشغفا بتحسس المواءمة بين الكلمة وسابقتها ولاحقتها ، وبين العبارة وما تقدمها وما تأخر عنها ، كقوله على لسان حسن شاه فى مسرحية (قافلة النور) .

مشوا فى سناه ولبوا نداه   وعبوا هداه كتابا مبينا

ومن ذا الذى يقرأ هذه الأبيات أو يسمعها ولا يستشعر الرنين بين الحروف

المتحدة المخرج أو المتقاربة المخارج ،أو لا يحس موسيقى الأسلوب الناشئة من تتابع كلمات متوائمة الجرس متلائمة الوقع ، قال فى (وقفة على قرطبة) :

ماذا دهاها فأمست وهى ناهــدة ... فى غـير ما ألفحته من معاطفها
طوفت بالطلل الأســوان أسأله ... أين الخلافة فى حضنى خلائفها
أين ابن بجدتها شعت حضارته ... سنا على سالف الدنيــا وآنفها
البــاذل العلم عن أعلام جامعة ... تـدنى الثمار مزكاة لقــاطفها
فــزف كل كبير مــن عواهلها ... وخف كل وقــور من أســاقفها

وإذا كان الجرس بينا فى البيت الأول بين (دهاها وناهدة) و بين (ألفته ومعاطفها) و بينا فى البيت الثانى بين (الأسوان وأسأله)و (الخلافة وخلائفها) وفى البيت الثالث بين (ابن و بجدتها)و (سنا وسالف) وفى البيت الرابع بين (العلم وأعلام وجامعة) وفى البيت الخامس بين (زف وخف) و بين (كبير ووقور) فإن هذا كثير فى شعره مثل قوله :

يا رب رب مسىء بغى فتــاب وكبــر

٣ــ وشعره حافل بالتشبيه والاستعارة والمجاز والطباق ،فى مهارة ولباقة وطواعية ، فقوله . . .

أرنو فيرتد طــرفى راعشــا وجلا ... كهائب اللجة الكبرى وخائفهــا

وقوله :

وأن نمسى بلا رى ... وأنت البحــر والقطــر

وقوله .

لم يترك الدهر من راو وق أندلس ... إلا شفافة راح مــن عــوارفهــا

وقوله :

حيتك مصر فقد حميت ذمــارها ... والخطب فــوار المــراجل حامى

وقوله :

طوّفت بالطلل الأسوان أسألهُ أين الخلافة فى حصنى خلائفها ؟

وبعد

فماذا نستوحى من احتفالنا بذكرى عزيز أباظة ؟

إننا نستوحى دروساً وعبرًا عظيمة .

١ — فتزداد ثقتنا بلغتنا وبشعرائنا وأدبائنا الذين كتبوا بالفصحى منذ زمن بعيد ، وما زالوا يكتبون ، فأثبتت الفصحى على أقلامهم أنها ثرية مرنة طيعة قابلة للتطوير والتجديد ، قادرة على التعبير عن أنماط فنون الأدب وشئون الحياة .

٢ — ونعلم أن الشعر العربى ليس عاجزًا عن مسايرة المسرح كما قيل ، فقد استطاع أمير الشعر أحمد شوقى أن يبطل هذه الدعوى بمسرحياته التى ابتكرها ومهد بها الطريق لمن جاءوا بعده واقتفوا أثره ، فلما قضى حمل الراية بعده بيد فتية قوية عزيز أباظة .

٣ — ومن الوفاء لعزيز أباظة أن أنوه بوفائه وبتقديره العظيم لشوقى ، فى قوله : « ثم أراد الله للشعر المسرحى أن يعزف فى العربية ويزدهر ، فهدى إليه شوقى شاعرنا الخالد فعالجه ، واستطاع قبل أن يختاره الله لجواره ببضع سنوات أن يزف للشرق العربى مسرحياته النفائس ، ولست هنا بسبيل تناول مسرحية الشعر عند شوقى بالدراسة والتحليل والنقد ، فإنه لن يرضينى — وأنا من أكثر الناس إعجاباً به ، وإكبارًا له ، واستمدادًا منه — أن أجعل دراسة مسرحه قسما من بحث ، أو باباً فى فصل ، ولن يواتينى الوقت حتى إذا أنا حاولت ، ولكن ذلك لن يفوت بى أن أشهد بين أيديكم أن شوقى صاحب التمثيل كاد يرتفع إلى علياء المشارف التى تفرعها شوقى قيّم شعر الغناء .

وأشهد بين أيديكم إلى جانب ذلك أن شوقى فى مآسيه المتعددة وفى ملهاته الواحدة استطاع أن يدرس على طريقته جوانب من النفس الإنسانية ، وأن يعرض لمشاعرها بالتحليل الموفق ، والعرض المنمق ، واستطاع أن يتناول الأحاسيس والنزعات القومية ، وأن يشيد بها فى نماذج قوامها الصدق وملاكها الجمال ، واستطاع كذلك فى أغلب مسرحياته أن يفرغها فى القوالب الحية من الفن المسرحى ، وأن يتحرر إلى حد كبير من سلطان طاقته الغنائية الفارعة حتى يتسلل الحوار غير فاضل على مقتضياته ، وغير مخل بالمعنى الذى يتدافع فيه ، غير مسىء لأساليب العرض ، وغير معوق لتتابعه وتدفق حركاته .

٤ — ولست أنسى أن هذه الذكرى تلهمنا أن نشيد بجهود شعرائنا وكتابنا فى مصر وفى الأمة العربية ، وإنها لجهود عظيمة مخلصة جديرة بالتقدير والثناء ، ذلكم بأنهم منذ مشرق هذا القرن طالما هتفوا بالقومية العربية وبالوحدة العربية ، وطالما تغنوا بما للعرب من ماض مشرق مجيد يجب أن يتأسأوا به ، وطالما برموا بما قاساه العرب من حاضر حزين خزيان لا بد أن يتحرروا منه ، وطالما جلجلوا بما يشرئبين إليه من مستقبل كريم بسام ، عليهم أن يجدوا لتحقيقه ، فكانت هذه اليقظة العاملة ، وكانت هذه النهضة الشاملة ، وكانت هذه الصوى الهادية إلى طريق الوحدة والقوة والعزة .

وما من شك فى أن للأدب فضلا فى هذا كله لا يجحد ، وسيفاً واضحاً مشهودا لا يستبعد . فعلى الذين يُنْغِضون إلى الأدب رؤوسهم أن يعلموا أثره العظيم فى حياة الأمم ، وأن يعرفوا مكانته وأن يقدروا سدنته أحياء وموتى .

سيدى الرئيس .

سيداتى وسادتى .

إذا كان عزيز أباظة فارقنا ، فإننى أتخيله بقامته الفارعة ، ووجهه المشرق وخطواته المتئدة وصوته الجهورى ، أتخيله ما زال يخطر بيننا فى المجمع ، أو

الوطنية في شعر أحمد محرم

الوطنية في شعر أحمد محرم *

كانت السنوات التي عاشها أحمد محرم حافلة بالأحداث القومية ، والرجات الوطنية .

فقد ولد سنة ١٨٧١ وتوفي سنة ١٩٤٥ .

وفي هذه السنوات الأربع والسبعين سجل تاريخ مصر يقظة أعقبتها الثورة العرابية ، فلما غُلبت الثورة أعقبها الاحتلال البغيض بجرائره وآثامه ، ثم دوى في مصر صوت الشاب الوطني مصطفى كامل ليزلزل الاحتلال ويقض مضجعه ، فلما مات مصطفى خفت صوت مصر .

ثم كانت الحرب الكبرى الأولى ، فازداد الاحتلال عتواً واستكباراً ، واضطرت مصر أن تكظم غيظها إلى أن وضعت الحرب أوزارها ، ثم نهضت مصر من مجثمها ، وثارت ثورتها التاريخية المجيدة ، حتى أرغمت انجلترا على أن تطا من من غُلَوائها وتعترف لها ببعض حقوقها .

ثم كانت الأحزاب السياسية ، فشغل المصريون بالحكم وكان بأسهم في أكثر الأحيان شديداً بينهم ، وإن كانوا في بعض الفترات يجمعون قواهم ، ويطالبون بحقهم ، إلى أن كانت معاهدة سنة ١٩٣٦ ، وما وليها من أحداث شهدها الشاعر إلى سنة ١٩٤٥ .

عاصر أحمد محرم هذه الأحداث ، فتأثر بها ، وأثر فيها .

فهو حانق على الاحتلال البريطاني وما جره على مصر من كوارث ، وهو حزين على قوة مصر وكرامتها ومجدها ، خزيان من ضعفها وسوء أحوالها ، وهو ساخط على أبنائها المتكاسلين عن مناهضة العدو الدخيل :

---

* ألقيته في مهرجان الشاعر أحمد محرم الذي اقامته محافظة البحيرة بدمنهور من ٢٧ الى ٢٩ جمادى الاولى سنة ١٣٨٣ هـ (١٥ الى ١٧ اكتوبر ١٩٦٣) .

وكثيراً ما حضهم على الثورة، وطالما ندد بالأحزاب المتطاحنة ، و بالزعماء المهاترين ورأى أن الشعب وحده هو صاحب الحق فى تقرير مصيره .

فلم يكن عجيباً أن كان مصطفى كامل يقدر شعره ويشيد به على صفحات اللواء ، ويسميه نابغة البحيرة .

ولعله الشاعر المصرى الأول الذى هاجم الملكية والملوك قبل سنة ١٩٠٨ وهذه لمحة من مظاهر وطنيته .

١ ــ حب مصر

أحب شاعرنا وطنه حباً عميقاً ، ومن آثار هذا الحب أنه أهدى ديوانه ــ الذى طبع الجزء الأول منه سنة ١٩٠٨ ــ إلى النيل .وقال فى مقدمة الديوان لقد جرى أكثر الكتّاب والشعراء على أن يهدوا مؤلفاتهم إلى من شاءوا من ذوى الثروة والجاه . . . لكنى انصرفت بشعرى عن تلك المواقف . . . وآثرت أن أهدى ديوانى إلى النيل ذلك الأب الذى وهبنى نعمة الحياة .

فيا نيل أنت الهوى والحيـاة ... وأنت الأمـير وأنت الأبُ

ويا نيـل أنت الصديق الوفى ... وأنت الأخ الأصـدقُ الأطيبُ

٥ . . . .

وهبتك مُلْكَ القـريض العتيد ... وذلك أفضـل ما يُوهَبُ

ولذلك سمى نفسه شاعر الوطن ، فقد ناجى خزان أسوان بقصيدة منها قوله :

رويدك إن شخصك ملء عينى ... وذكرك مـا يزال على لسانى

أيَشْغَلُ شاعرَ الوطنِ المفدّى ... سواك وأنت شُغْلُ بنى الزمان(١)

---

(١) الديوان ١٠١/١ .

٢ – بغض الاحتلال

ولقد أبغض الاحتلال البريطانى أشد البغض، وسخط على أعوانه أشد السخط.

لذلك سمى يوم ١٤ سبتمبر سنة ١٨٨٢ اليوم الذى دخلت فيه الجنود الإنجليز القاهرة — يوم النحوس، ثم تنبه إلى أن المصريين يُنْحِبُون باللوم على ذلك اليوم، ويُخْلون أنفسهم من الملامة، وهم أولى باللوم والملامة، لأنهم عجزوا عن حماية ديارهم، ثم عجزوا عن الثورة فى وجه الدخلاء.

فلومك يا يوم النحوس ونَجْدَلُ	وأنت على ما أنت تضىء وتُقْبِلُ
ونحسب أن الجد قول نُذيعه	ونحسب أنا فى المقالة نَهْزِلُ
لعمرك ما أسلفتَ فينا جريرةً	ولكنّ شعبا خاملا يتعلّلُ
يلومك فيما كان من جبَلاته	فهل كنت تُغْرِيه ليالىَ يَجْهَلُ؟
كذلك شأن العاجزين وهكذا	يسىء إلى الأيام من ليس يعقلُ

إلى أن قال:

لحى الله قوماً حمّلونا من الأذى	بما ضيّعوا الأوطان ما ليس يُحْمَلُ
هُمُ خذلوها فاستبيح حريمها	وما برحت تَبْغى انتصاراً فتُخذَلُ(١)

وكثيراً ما حمل على الاحتلال فهو تارة يندد بفظائعه، إذ يتخيل مصر مريضة منذ عشرين عاماً — منذ الاحتلال إلى تاريخ القصيدة — وقد حار الناس فى معرفة دائها، لكن المهرة من الأطباء يعلمون داءها ودواءها، وما داؤها إلا الاستعمار، وما دواؤها إلا الاستقلال.

على أنه عاد فيئس من الشفاء، لأن الذين بيدهم الإصلاح هم الإنجليز أو أعوانهم وهم لا يريدون لمصر القوة ولأن أبناء مصر فى سُبات عميق.

---

(١) الديوان ١/٧٨.

كيف الشفاء لمصر من أدوائها ... أم كيف يُرجى عزُّها ويُرام؟
والمصلحون كما علمتَ وأهلها ... عنها على زجر المهيب نيام(١)

وهو حينما يحمل على الاحتلال ويندد بوعوده الكاذبة ، ويتبرم من إقامته الطويلة المملولة ، قال سنة ١٩٠٢ :

يادولةً رفعتْ على أوطاننا ... علماً تُنكَّس تحته الأعلامُ
أين المواثيق التي أبرمتها ... إن كان منكِ لموثقٍ إبرامُ
لم تحفلي بعهودنا فنقضتها ... يا هذه نقضُ العهود حرامُ
عشرون عاما عاكفتك وهكذا ... تأتي وتذهب بعدها أعوامُ

ثم نبه المصريين إلى أن الاحتلال عاقبة للجهل المتفشي فيهم .

طال المُقام وأنتِ لم يكن ... ليطول لولا الجهلُ منكِ مقامُ
دومى فما للجاهلين دوام ... وكذا يكون الجِدُّ والإقدامُ

وهو كذلك يتهكم بالجنود الإنجليز الذين كانوا يعيشون في مصر أيام الحرب الأولى ، وكانوا يسرعون إلى قتل المتظاهرين الثائرين من شباب مصر ، فيقول :

أيها الجند ظافرا يتمشى ... في الجماهير مُعجَباً مختالا
يوم غاب الحُماةُ واستصرخت مصـ ... ـر تنادى الرجال والأبطالا
هل قتلتَ الكُماةَ في الحرب غُلْباً ... أم قتلتَ النساء والأطفالا ؟(٢)

ثم يندد بغدر إنجلترا ونقضها لوعودها وعهودها بقوله .

ما ذكرنا لكم من الخير شيئاً ... عارضينا لكم على الدهر حالا
نذكرُ الحكمَ ظالما ما رأينا ... فيه عدلا ولا وجدنا اعتدالا
نذكر العهد سيئاً ما عرفنا ... فيه حرية ولا استقلالا

---

(١) الديوان ١/٨٣ .

(٢) غلب : جمع أغلب وهو الأسد والمراد البطل الشجاع .

نذكر الشر والبلاء جميعا فاذكروا عهدكم وشدوا الرحالا
طال عهد احتلالكم فحسبنا أن يوم الحساب يدعى احتلالا(١)

ثم ينذرهم بنهاية مشئومة تقضى على ملكهم ، وتذيقهم الوبال والنكال ..

٣ – ألم من ضعف مصر

ويحزن أشد الحزن كلما نظر إلى مصر فرآها تعانى الضعف والتأخر .

وكان منصفاً ، فلم يحمل على الإنجليز وحدهم ، بل حمل على المصريين أيضاً ، لأنهم قاعدون عن نصرة بلادهم ، واستعادة حريتهم .

يقول :

به من بنى مصر عناء مبرح فيا ليت شعرى هل يزول عناؤه
أما إنه لو كان يشفى غليله بكاء على مصر لطال بكاؤه
يقسمها الأقوام لاذو حمية فيحمى ولا واق فيرجى وقاؤه
ثوى فيه أقوام ملئنا ثواءهم ويا رب ثاو لا يمل ثواؤه
لقد كان يأبى أن يذل لغاصب فياليت شعرى أين ضاع إباؤه ؟
ويا ليت شعرى أية بان عزه وأين تولى مجده وعلاؤه(٢)

وتحسر على عزة مصر المضاعة ، فبدأ إحدى قصائده ، بوقفة على أطلال مجدها الدارس ، ثم بكى الوطن المضام .

أهذى ديار القوم غيرها الدهر فعوجوا عليها نبكيها أيها السفر
نسائلها أين استقل قطينها وهل تنطق الدار المعطلة القفر ؟
وكائن ترى من ذى ثمانين خضبت لطول البكا من شيبة الأدمع الحمر

---

(١) الديوان ٢ .
(٢) الديوان ١/٥٧ .

يبكي وطناً أودت بسالف زَهْوِه … حوادثُ دهرٍ من خلائقه الغَدر(١)

وأسف من ضعف مصر الصناعى ، لأن الصناعة من دعائم الرقى والقوة ، ولأن مصر عانت كثيرًا من جهل أبنائها بالصناعة ، قال فى افتتاح مدرسة محمد على الصناعية بالاسكندرية سنة ١٩٠٤ .

أَمْ يذيبُ الصخرَ طولُ عَنائها … ما تَنْقَضِي الآمالُ فى أبنائها
ترجو بهم نَيْلَ السعادة ، والفتى … كلُّ الفتى من كان عِنْدَ رجائها
أمسى الشقاء لها نَجَدِّدنا مالَهُ … متحولٌ عنها فيا لشقائها
هذا لعمركُمُ العقوقُ بعَيْنِه … أكذا تُخَلِّى الأمُّ فى بَلْوائها
تَبْكِي ونَضْحَكُ دونَها ولوانَّنا … بَشَرٌ بَكَيْنا رحمةً لبكائها
تَشْكو البَلايا التاركاتِ نَعيمَها … بُؤْسا وما تشكو سِوى جُهَلائها(٢)

ثم استنهض عزمات بنيها ليجودوا بالمال على تعليم الصناعة ، لأن الصناعة والعلم دواء مصر العليلة :

الجهلُ أصبحَ داءها المُزْرِى بها … ومن البليَّةِ أن تَموتَ بدائها
والمال وهْوَ أقلُّ ما أجْدَتكُمُ … نعم الدواءُ المرتَجَى لشفائها
إن الصنائع للحياة وسيلةٌ … فتعاونوا طُرًّا على إحيائها

٤ ـ نصح لمصر

كيف تنفلت مصر من قيود الاحتلال ؟

وكيف تسترد مكانتها ، وتصلح مرافقها ؟

لا وسيلة إلى ذلك إلا بالجهاد .

---

(١) الديوان ١/٧٣ .
(٢) الديوان ١/٥٩ .

ولطالما كرر أحمد محرم دعوته إلى الجهاد .

ولطالما أنحى باللوم على الشعب الراكد الخانع .

وكثيراً ما ذكّر بالمجد الغابر، ليجعل منه غذاء للحاضر ، وأملا فى المستقبل .

فأبناء مصر هم المسئولون عن شقائها، لأنهم لم يدرءوا الكيد عنها، بل آثروا الدعة والخمول، وتركوا الغاصب يعيث فيها، فليستيقظوا من سباتهم .

ألا إنها مصرُ التى شَقِيَتْ بنـا فيا ويْحَ مصرٍ ما الذى لقيتْ مصرُ
مضى عزها القُدْمُوسُ ما يستعيده بنوها فلا عزٌّ لديهم ولا فَخْرُ ؟(١)
هم رقدُوا عنها فطال رُقادهمْ فديتكم، هبُّوا فقد طلع الفَجْرُ
أما فيكمُ حرٌّ إذا قام داعيـا إلى صالحٍ أوفى فجاوبه حُرُّ ؟(٢)

وهو يُقَرِّع المصريين على صمتهم وسكونهم، ويَعْجَبُ من النيل كيف يفيض على شعب خامل عاق، ولو أنه جازى المصريين بما يستحقونه لغاض ليموتوا عطشاً.

قال فى سنة ١٩٠٢ :

عجبـا لهذا النيل كيف نَعُقُّهُ ويدوم منـه البرُّ والإكرامُ ؟
لو كان يَجْزِينـا بسوء صنيعنا أودى بهاتيـك النفوس أوام(٣)

ويهيب بهم أن يرضوا وطنهم، لأن حالهم التى هم عليها محزنة مسخطة .

وما مصر إلا موطن نحن أهلهُ عزيز علينـا أرضـه وسماؤُهُ
بنى وطنى لا تُسْخطوه عليكمُ فليس سواءً سخطهُ ورضاؤُهُ
بنى وطنى خلوا التخاذل إنـه بلاؤكمُ يجتاحكمْ وبلاؤه (٤)

ويدعوا المصريين سنة ١٩٠٢ إلى الثورة دعوة صريحة، إذ ينبههم إلى أنه

(١) القدموس : القديم .
(٢) الديوان ٧٣/١ .
(٣) الديوان ٨٣/١ . الأوام : العطش .
(٤) الديوان ٥٨/١ .

الاحتلال الجاثم على صدورها عاقبة لجهلهم بحقوقهم وواجباتهم ، ثم يهيب بهم أن يثوروا ليطردوا الغاصبين من ديارهم .

يا أمة خاط الكرى أجفانها هُبِّي فقد أوْدَتْ بك الأحلامُ
هُبِّي فما يحمى المحارمَ راقدٌ والمرء يُظْلَمُ غافلا ويُضامُ
هُبِّي فما يُغْني رُقادكِ والعدا حَوْلَ الحِمى مستيقظون قيام(١)

كانت له صرخات قبل الحرب الأولى ، والوعيُ الوطني ضيق المجال ، محصور في طبقة خاصة من أتباع الحزب الوطني .

فلما كانت ثورة سنة ١٩١٩ واحتدم الشعور الوطني ، أذكاه أحمد محرم بقصائده ، وبيَّنَ للشعب أن الحق الأعزل أمضى من الباطل المسلح ، وأن العزائم العظيمة أقوى من الجيوش والحصون والمدافع ، يريد بذلك أن يلهب المشاعر الوطنية ، ويُغَذِّيَ عواطف الشعب المجاهد المناضل ، ويُبَشِّرَه بالنصر القريب الحاسم .

لا يَسْتَقِلُّ الشعبُ يَتْرُكُ حقَّهُ ويَرَى البلادَ تجارةً ومتاعا
يخشى العدوَّ فلا يُطيق تشددًا ويُهال منه فلا يُريد نزاعا
إن الحياة لأمة مقدامة تُعْيِي العدوَّ شجاعةً ومصاعا(٢)
تُزْجِي إليه من الحفاظ جحافلاً وتقيم منه معاقلا وقلاعا
وإذا أراد بها الهضيمة أرهفتْ هِممًا يَضيقُ بها الدُّهاة ذراعا
يا ربَّ مصرَ تولَّ مصرَ وهَبْ لها شعبا يريد لها الحياةَ شجاعا
لو سِيمَ يوما أن يَبيعَ بلادَهُ بِما لك الدنيا معاً ما باعا

---

(١) الديوان ٨٣/١ .
(٢) المصاع : الجلاد والقتال .

ولما قام البوير (١) بثورتهم على إنجلترا ، وحاربوها دفاعاً عن وطنهم واستقلالهم نوه الشاعر بهم، وحيا وطنيتهم العالية ، وبطولتهم ، وثباتهم ، وهم فى نظره أهل للتقدير ، لأنهم ثوار يطالبون بحقهم المسلوب ، ولأنهم ثائرون على عدو مشترك بينهم وبين مصر :

وكانت ثورتهم مثلا عالياً يوجه أنظار قومه نحوه ، ليبصرهم بما فعل الثائرون ، ويشعرهم بما اعتمل فى نفوسهم فدفعهم إلى الثورة ، وهو يريد من قومه أن يثوروا على الاحتلال كما ثار أهل البوير .

فهل جاء البويرَ حديثُ قومى ... وما قومى بشىء فى الخصام
وما أبغى لقومى أن يَهُبُّوا ... لحرب لا تكون شفاء ظام
ولكنى رأيتهمُ نياما ... على ضَيْمٍ وخَسْفٍ واهتضام
وما اعتصموا بحبل الجِدِّ يوما ... ولا لاذوا بأكتاف الوئام

(١) اسس الهولنديون مستعمرة الكاب لتكون محطا لسفنهم المتجهة الى الشرق . لكن انجلترا انتزعت هذه المستعمرة ، وأقرت الدول انضمامها اليها سنة ١٨١٥ وتوافد عليها المهاجرون من الانجليز ، ولكن بقى الهولنديون هم أكثر سكانها ، وكانوا يشتغلون بالفلاحة ، وهم الذين سموا البوير .

ولما ضيق عليهم الانجليز فى معيشتهم هاجروا الى داخل افريقية ، واستوطنوا ناتال سنة ١٨٣٨ فتعقبهم الانجليز ، وضموا ناتال الى انجلترا سنة ١٨٤٨ .

فهاجروا الى مكان آخر ، ونزل بعضهم بحوض نهر الأورنج وكونوا جمهورية الأورنج ونزل آخرون بحوض نهر فال وكونوا جمهورية الترنسفال. ولكن سرعان ما طوقت مستعمرات انجلترا هاتين الجمهوريتين فى الوقت الذى احتلت فيه مصر سنة ١٨٨٢ ، واستولت على اقاليمها الاستوائية واكرهتها على اخلاء السودان ، وسرعان ماهم الانجليز بالقضاء على استقلال البوير : وقامت الحرب بين الانجليز وبينهم (١٨٩٩ — ١٩٠٢) ارتكب فيها كتشنر اشنع الوحشية ، وقاوم الشعب البويرى مقاومة الأبطال ثلاث سنوات ثم اضطر الى التسليم . وبذلك فقدت الجمهوريتان استقلالهما واستعمرتهما بريطانيا .

فيـا أسفى على وطنٍ كريمٍ غدا ما بيننا غَـرَضَ السهامِ
ونحن عـلى توجُّعِـهِ سكوتٌ كأنّا بعض سكان الرِّجامِ(١)

٥ ــ تنديد بالاستبداد

لم يحمل شاعرنا على الإنجليز وحدهم ، ولم يحمل على الأحزاب المتناحرة وحدها ، بل دفعته جرأته إلى أن نطق حيث صمت الشعراء ، وإلى أن جهر وصرح حيث داور بعضهم ولف وأغمض فى تعبيره .

فهو الذى لام الخديوى عباساً سنة ١٩٠٩ حينما قيدت الحكومة حرية الصحافة ، وكان فى لومه جريئاً صريحاً ناقماً عليه لمهادنته إنجلترا .

ماذا بدا لك فاعتزلتَ صفوفَنـا أفأصبحت حَرْبُ الغُزاةِ سَلاما ؟
الحرب دائرةٌ وجيشـك قائمٌ يُنْضِي السيوفَ ويَرْفَعُ الأعلاما
والملك مضطربٌ ومصرُ كعهـدها تدعو الحُماةَ وتشتكى الأقْوَاما
إن كنتَ خاذلَها ــ ولستَ بفاعلٍ فحُماتُها(٢) لا يخفرون ذماما
أتخـونُ مصرَ وما تحوَّلَ نيلُها سُماً وما انقلب الضياءُ ظلاما ؟
عباسُ رأيُك فى البلادِ وأهلِها إن الأذى يَسْتَصْرِمُ الأوغاما(٣)
إن كان عسفٌ فالزمانُ مؤرخٌ يُحْصِي لنا الحسناتِ والآثاما
قلمى ، كتابى ، أمتى ، وطنى ، متى نَشْفِى نفوساً تستطير أواما ؟

وقد ندد بالملكية والملوك ، وسخر من الرتب والألقاب ، وعبر عن رأيه هذا فى وضوح وجلاء قبل سنة ١٩٠٨ فسبق الحوادث بنحو خمسين عاماً ، وكأن الذى ذكره وصوره وليد ثورة الجيش سنة ١٩٥٢ ، أو كأنه صدى للأحاديث الخاصة التى كان الناس يتداولونها قبيل ثورة الجيش .

---

(١) الديوان ١/٨٦ ، الرجام : القبور .
(٢) حماتها : أبناؤها المجاهدون .
(٣) الأوغام : جمع وغم وهو النفس أو الحرب أو الحقد أو الثأر .

كذَبَ الملوكُ ومَنْ يحاول عندهُمْ شرفاً ويَزْعُمُ أنهم شرفاءُ
رتبٌ وألقابٌ تغرُّ وما بها فخرٌ لمُحْرِزها ولا استعْلاء
آناً تباعُ وتارةً هي خُدْعةٌ تُمْنَى بشرِّ سُمَاتِها الأمراء
كم رتبةٍ نَعِمَ الغبىُّ بنيلِها من حيثُ جاهلُها أسًى وشقاء

. . . .

ذَنْبُ الملوكِ رمى الشعوبَ بنكبة جُلَّى تنوءُ بحملها الغبْراء
لا المجدُ مجدٌ طالما عَبِثَتْ به أيْدِى الملوكِ ولا السَّناء سَنَاء
مالُوا عن الشرفِ الصميمِ وأحْدثُوا ما شاءت الأوهامُ والأهْواء

. . . .

ظُلْمٌ يُبرِّحُ بالبرىءِ وغِلْظةٌ يَشْقَى بها الضُّعفاء والفُقَراء
الحقِ منتَهك المحارم بينهم والعدل وهمٌ والوفاء هَباء
رفعوا العروش على الدماء وإنما تبقى السفينة ما أقام الماء

وهو يرى أن الكلمة للشعب ، فليست للملك أو حزب من هذه الأحزاب المتناحرة ، أو لزعيم من أولئك المتطاحنين على المآرب الفردية .

قال في سنة ١٩٢٥ مخاطباً اللورد جورج لويد .

أخا السكسون هل نُبِّئْتَ أنَّا جلاوذة لقَوْمِك أو عَبِيدُ (١)
لقد كذبوا عليك فليس فينا لمن يبغى الهضيمةَ مُسْتَفِيدُ (٢)
إذا سمعت الوفود إليك فاحذر عواقب ما تقول لك الوفود
فما أحدٌ بمالك أمر مصر وما بالشعب جُبْنٌ أو جُمودُ
مضت دنيا القيودِ وتلك دنيا تُذَمُّ بها وتُحْتَقَرُ القيودُ

---

(١) جلاوذة : خدم .
(٢) الهضمية : الظلم ، مستفيد : خاضع .

٦ ـ تنديد بفساد الأحزاب

كان أحمد محرم من أنصار الحزب الوطنى ، وظل وفياً للحزب ومبادئه حتى فى السنوات التى خفتت فيها صوت الحزب ، وانفض عنه كثير من رجاله .

فلما كثرت الأحزاب ، وتصارعت ، ونشأ عن صراعها ضعف المقاومة ، وسوء الحكم ، واللعب بالدستور ، ندد بها أحمد محرم : قال فى سنة ١٩٢٥ .

سائل الأحزابَ ماذا عندها غيرُ تَرْجاف وَهَمٍّ مُقْلق
وتأملْ هل ترى اليومَ سوَى دولةِ فوضَى وحكمٍ أخْرَقِ ؟
سجَنُوا الدستور طفلا ناعما واستبدوا بالسجن المُوثَق

وتهكم بالساسة المتنازعين على الحكم والمآرب الشخصية ، وصورهم فى واد والشعب فى واد ، وندد بانقسامهم الذى كان جناية على مصر ، قال فى سنة ١٩٢٥ .

دع الزعماء إن لهم لَدِيناً يدينُ بغيره الشعب الرشيدُ
إذا ذكروا الزعامة فهى دَعْوى يكيد بها الكنانة من يكيدُ
ولا تبقى البلادُ إذا أصيبتْ بمن يَبْغى الزعامةَ يَستفيدُ
لمَنْ تتألبُ الأحزابُ شتّى وما هذى الصواعق والرعودُ ؟
تداعَوْا للوغَى فهوَى صريعاً على أيديهمُ الوطنُ الشهيدُ

٧ ـ حزن على فلسطين

على أن أحمد محرم لم يحصر وطنيته فى نطاق مصر ، بل وسعت وطنيته مصر والعروبة والإسلام جميعاً ، لأنها كلها ديار أخوته فى القومية أو فى الإسلام .

وحسبنا أن نمثل ببعض ما قال فى نكبة فلسطين فى وقت لم تكن فيه قضيتها قد بلغت الأسماع والقلوب .

فهو حزين مما حل بشعب فلسطين ، وبما يتخوفه على جزء من الوطن العربى له قداسته ، وكبده مقروحة مما أصاب هنالك عرباً هم منا بمثابة الأبناء والإخوة وأبناء العم ، ويسميهم شهداء الحق وحماته ، اشتروه بأرواحهم الحرة أسخياء بها ، ولا يعترى نفسه يأس من نصرهم على عدوهم ، لأنهم أحرار يحمون بجهادهم وطنهم العربى المظلوم .

ثم يصور فلسطين نهبا باعه الإنجليز الذئاب لليهود الذئاب .

ويختم القصيدة بدعوة حارة يوقظ بها مصر لإنقاذ أختها فلسطين ، لأن نكبتها يجب أن تحزن مصر ، ولأن ترتق صفوفها :

فى حمى الحق ومن حول الحرم ... أمة تؤذى وشعب يهتضم
فزع القدس وضجت مكة ... وبكت يثرب من فرط الألم
ومضى الظلم خلياً ناعماً ... يسحب البردين من نار ودم
يا فلسطين اصطليها نكبة ... هاجها للقوم عهد مضطرم
الجهاد الحر يقضى حقه ... سؤدد العرب ويحميه العلم
فى فؤادى جرحك الدامى وفى ... كبدى ما فيه من حزن وهم
كم صريع لك فى أشلائه ... مصرع القربى وأشلاء الرحم
فجعونى فيه بابن صالح ... وأخ حر السجايا وابن عم
شهداء الحق ماتوا دونه ... وهو حى العز موفور الشمم
واشتروه بنفوس حرة ... بذلوها من سخاء وكرم
همم الأحرار تحمى وطناً ... عربياً سيم خسفاً وظلم
باعه ذئب لذئب غيلة ... فهو للذئبين نهب مقتسم
تنزع الأرزاق من أبنائه ... وتشل الأرض من فرط النهم

مصرُ ناجى من فلسطينَ الرُّبا وابعثى صوتَكِ من أعلى الهرَمْ
وإذا أعوزَهمْ أو أبَى فاستمدى الهمّ من هذا القلَم
وخُذى معنى الأسى منه فما لك من معناه إلا ما نَظَمْ
نبئيها أننا من وجدِها نجدُ العلقمَ فى العذْبِ الشَّبم

وفى قصيدة أخرى يتهكم بوعد بلفور، ويصور العرب أبطال كفاح وجهاد يؤثرون الموت على اغتصاب فلسطين منهم .

ويهيب بالشعوب الإسلامية أن تتنبه إلى خطر الصهيونية قبل أن يستفحل، ويطالبها بأن تسارع إلى نجدة أهل فلسطين، وإلى حماية أولى القبلتين، ويوحى إليها بألا تستطيب الحياة حتى تُطهّر فلسطين من غربان الصهيونية .

بلفورُ بئس الوعدُ وعدك للألى جعلوك للأمل الخَيّبِ سُلّما
إن الذين تجهلتَ حسنَ بلائهم ضربوا لك الأمثال كيما تعلما
الموت عند القوم أعذب مَشْرَباً مما يراد بهم وأطيبُ مَطْعَما
إيه شعوبَ المسلمين تنبهوا وتداركوا أسبابكم أن تُجذَما
اللهَ فى إخوانكم وبلادكم أفما ترون الخَطْب كيف تجهّما؟
أثبيتُ أولى القبلتين حزينةً وأستَ وسنانَ الجفون منعّما ؟

رحم الله أحمد محرم، وأجزل ثوابه ..

لقد اعتز بوطنه، وأعز وطنه .

ولقد باهى بعروبته، وشارك العرب فى أفراحهم وأتراحهم .

ولقد ناصر الإسلام، وأخلص النصح للمسلمين .

لم يصرفه عن واجب من هذا كله مال ولا إغراء، ولم يُضْعِفْ من وطنيته أو قوميته أو إسلاميته خوف من ذى جاه أو سلطان .

---

(١) مجلة الفتح العدد ٥٧٧ .

. . . .

وكأنى به فى شيحوخته ، جالساً فى مقهى (مظهر) كعادته ، أو متوكئاً على عصاه ، يجوس خلال دمنهور ، وهو يدندن بقوله .

قلمى كتابى أمتى وطنى متى تشفى نفوساً تستطير أواما ؟

وأحسب أنه لو امتد به العمر فرأى ثورة مصر المباركة ، وشاهد الوطن وقد تطهر من أوضار الاحتلال ، وجعل يطير إلى سماوات العلا والمجد ؛ لأنشأ فى تاريخ مصر الحديثة العظيمة إلياذة كإلياذته الإسلامية ، يخلد فيها أبطالها وجيشها وشعبها ، ويتبقى بها فى الخالدين من أدباء الوطنية والعروبة والإسلام .

شوقي والعلم

شوقي والعلم

تمهيـــد :

تعددت سمات العصر الحديث، فقيل: إنه عصر البخار ، ثم قيل: إنه عصر الكهرباء ، ثم سمي: عصر الطيران ،تارة ، وسمي: عصر تحرر الشعوب تارة ، فلما حطم العلماء الذرة أطلق عليه: عصر تحطيم الذرة، فلما نجحوا في إطلاق الصواريخ الدوارة والمنطلقة إلى النجوم قالوا: إنه عصر غزو الفضاء :

ولسنا نجد لهذا العصر سمة أعم في شمولها، ولا أدق في إطلاقها ، من أنه عصر العلم ، لأن العلم مصدر هذه المظاهر كلها فرادى ومجتمعة. والحق أن ما نشهده من جديد في العالم ، وما نعجب به من طريف في الحياة، ونستمتع به من خير ، وما يذهلنا من أعاجيب الاختراع ، إنما مرده إلى العلم ، ومرجعه إلى العلماء .

وليس من شك في أن الأمم تسمو بعلمها وبعلمائها ، فتعظم في عهود وترهب في أعاصير الحرب .

ولم يكن من المصادفة أن الاستعمار في حقيقته: سيطرة العلماء على الجهال فإن أوربا لم تستعمر الشرق إلا في عهود جهالته ، لأنها جنت عليه الضعف والفقر والعجز والتواكل والمرض ، وجرت وراءها الفرقة، والانقسام واختلاف الوسيلة والغرض ، وأعمت الشرقيين عن كنوز خيراتهم التي يطئونها بأقدامهم فتزاحم الغربيون على استغلالها وامتلاكها واحتكارها ، ومنّوا على بعض المواطنين بنفاياتها .

وما زال الشرق في غفلته أو سكرته إلى أن بعثه العلم من رقدته ، إذ تعلم أفراد منه ، وتصدروا صفوفه ، ونفخوا من روحهم القوي في روحه، ونصبوا أمامه المثل العالية لحياة العزة والكرامة ، واتخذوا من نشر العلم وسيلة لبث آرائهم،

فسرعان ما استفاق الغافل ، ونشط الخامل ، وهبت أمم الشرق تجاهد وتناضل، فالعلم هو الباعث على وثبات الشعوب ونهضات الأمم، وأيما نهضة اصطنعتها القوة التي لا تعتمد على أساس وطيد من العلم كانت كالحصن المشيد على كثبان من الرمال ، لا بقاء له ولا صولة ، ولا طاقة له بأول جولة . . .

وللعلم في نهضة مصر الحديثة تاريخ حافل ، وله في ثوراتها ووثباتها صوت موقظ باعث في القرن التاسع عشر والقرن العشرين.

فقد عادت البعوث العلمية التي أوفدت إلى أوروبا تحمل إلى مصر تفكيرًا جديدًا ، وترسم لمستقبل الوطن صورًا أرقى من صورته .

ذلك أن المبعوثين لم يكونوا أوعية يصب فيها العلم صبًا، ثم لا يعون غير العلم الصرف شيئًا ، بل كانوا يدرسون ، ويتذوقون ما يدرسون، ويفكرون في أحوال وطنهم وهم يدرسون .

كانوا محبين لوطنهم متطلعين إلى نهوضه ، وكانوا أصحاب عيون تنظر، وآذان تسمع ، وعقول تفكر ، وقلوب ترجوا وتأمل ، وعزيمة تريد وتحفز على العمل :

وحسبنا أن نمثل برفاعة الطهطاوي ، فقد تحدث سنة ١٨٣٠ م عن مجلس النواب الفرنسي معجبًا ، وتحدث عن الملك وحقوقه وواجباته ، وتحدث عن الحرية والمساواة ، ولخص الثورة الفرنسية ، وترجم الدستور الفرنسي ، ولم يقتصر على الترجمة ، بل كان يعلق برأيه . . .

ثم ألف كتبًا للتلاميذ ، عني فيها بتعليم الفتاة وآدابها ، ولم يكن في مصر حينئذ مدرسة للبنات ، ولكن بعد طبع كتابه (المرشد الأمين للبنات والبنين) بعام أنشئت سنة ١٨٧٣ أول مدرسة لتعليم الفتيات .

كان شوقي عظيم الزاد من الثقافة ، كثيرًا القراءة، وليس إثبات هذا بعسير فهذه معانيه وأفكاره ، وهذه تحليقاته في التاريخ ناطقة . .

ولقد يتأهب للقصيدة بجولات في القراءة هنا وهناك ، فيأتي بالعجيب ،

كما فعل قبل أن ينظم قصيدة (مملكة النحل) مثلا ؛ إذ درس حياة النحل ، معتمداً على العالم البلجيكى ميترلنك .

لهذا كان شوقى شديد الحرص على أن تتسلح مصر بالعلم ، فى الحرب وفى السلم وكان كلفا بالدعوات إلى العلم يرددها فى كثير من قصائده .

وهذا طبيعى ، لأنه ذاق حلاوة الثقافة : شرقية وغربية ، قديمة وعصرية ، وعلم من تجارب الأيام وعبر التاريخ أن العلم ذريعة القوة ، وعاش فى عصر الإفاقة واليقظة ونشاط الحركة العالمية فى مصر ، وعاصر الدعاة إلى إنهاض الشعب بالتعليم والتثقيف .

ثم إنه رأى أوروبا تتسابق فى ميادين المعرفة ، وتتنافس فى حلبة الاختراع ، وتعتز بعلمائها وأدبائها كما تعتز بقوتها المادية ، فود أن تقتدى مصر بها ، وألا يبقى جاهل تحت سمائها .

وهو إلى هذا كله مسلم يعلم أن الإسلام دين العلم والعقل وطالما أشاد شوقى بحضارة الإسلام وعظمة المسلمين وطالما فاخر بجهودهم العلمية وبفضلهم على الغرب :

كقوله :

حب السيادة فى شمائل دينكم والجِدُّ روحٌ منه والإقدامُ
والعلم من آياته الكبرى إذا رجعت إلى آياته الأقوام
لو تُقرئون صغاركم تاريخه عرف البنون المجد كيف يرام

ولشوقى فى هذا المجال شعر كثير متنوع ، نكتفى هنا بالأصول العامة التى عرض لها ، وهى :

١ — آثار العلم

كثيرًا ما أشاد شوقى بالعلم ، ونوه بأنه وسيلة الفوز والقوة والسبيل إلى حياة السعادة والسيادة ، وأنه سياج الأمة وحارسها وحاميها ، لأن العلماء بآرائهم وتدبيرهم واختراعهم ينهضون بالوطن ، ويحمونه من غير العدوان ، كما تحمى الأسود عرينها :

قال شوقى :

بالعلم تمتلك الدنيا وتضربها ولا نصيب من الدنيا لجهال
والعلم يعتصم الملك الكبير به كالغاب ما بين أساد وأشبال

وقال فى حفل افتتاح الجامعة القديمة :

وألق فى أرض منف أس جامعة من نورها تهتدى الدنيا بنبراس
ترك النفوس بلا علم ولا أدب ترك المريض بلا طب ولا آس

وقال :

إن سرك الملك تبنيه على أسس فاستنهض البانيين : العلم والأدبا

وقال فى قصيدة الأزهر يخاطب الملك فؤاد : إنك لا تدرى ما يخبىء الغيب لهؤلاء الفتية الذين يتعلمون ، فقد يلمع من بينهم كفيف لكنه نابغة مثل أبى العلاء المعرى ، وهنا سما شوقى بالعلم سموا يستثير الإعجاب ، لأنه قال للملك إنك لو تشترى هذا النابغة بنصف ملكك لم تخسر ، لأن المشترَى عظيم والمشترِى عظيم أيضاً .

والله ما تدرى لعل كفيفهم يوماً يكون أبا العلاء المبصرا
لو تشتريه بنصف ملكك لم تجد غبنا أجل المشترِى والمشترَى

وقال فى تحية دمشق :

الملك حــول لسان تحته أدب ... وتحت عقــل على جنبيه عرفان

ولم ينس فى الاحتفال ببنك مصر أن يقرن المال بالعلم فى الجلال والقدر ، لأنه دعامة من الدعائم التى يقوم عليها صرح الوطن ، وما قيمة المال بغير علم ؟ أليس هو الذى يثمر المال فى ميادين نافعة ، ويبتكر الوسائل للحصول عليه؟ هذه مصر قد احتكر الأجانب صناعتها وتجارتها ، وزاحموا المصريين حتى فى زراعتها منذ جهلت كنوزها ، فلما تعلمت شرعت تدبر شأنها ، وتسترد بعض مالها ، لأنها أحق بخيراتها .

يا طالبــا لمعــالى الملك مجتهــدا ... خذها من العلم أو خذها من المال
بالعلم والمال يبنى الناس ملكهم ... لم يبن ملك على جهل وإقلال

ولهذا كان حفياً بتوجيه الشباب إلى مناهل العلم ، وإلى بعث الثقة فى نفوسهم بأنهم أهل للعلا والمجد :

هــل علمتم أمــة فى جهلهــا ... ظهرت فى المجد حسناء الرداء ؟
فخــذوا العــلم على أعلامه ... واطلبــوا الحكمة عنــد الحكماء
واطلبوا المجد على الأرض فإن ... هى ضاقت فاطلبــوه فى السماء

وفى قصيدته التى كرم بها الرحالة أحمد حسنين أهاب بالشباب أن يتعشقوا البطولة والعلوم والآداب :

قل للشباب بمصر : عصركم بطل ... بكل غاية إقــدام له ولع
ما الجاه والمال فى الدنيا وإن حسنا ... إلا عــوارى حظ ثم ترتجع
عليكم بخيــال المجد فأتلفــوا ... حيــاله وعلى تمثــاله اجتمعوا
وإن نبغتم ففى عــلم وفى أدب ... وفى صناعات عصر ناسه صنع
وكل بنيــان قــوم لا يقوم على ... دعائم العــلم من أركنيه متصدع

ولم يفته أن يقرن العلم بالمال فى الجلال والأثر والقدر ، لأنه دعامة من دعائم

النهضة ، ولا قيمة للمال بغير علم ، فالعلم هو الذى يثمر المال فى ميادين نافعة ، ويبتكر الوسائل للحصول على المال . وهذه مصر قد احتكر الأجانب صناعتها وتجارتها ، وزاحموا المصريين حتى فى زراعتها ، حينما كانت مصر تجهل كنوزها .. فلما تعلمت مصر شرعت تدبر شئونها ، وتسترد حقوقها ، وتسيطر على خيرات الوطن :

يا طالبا لمعالى الملك مجتهدا   خذها من العلم أو خذها من المال
بالعلم والمال يبنى الناس ملكهم   لم يبن ملك على جهل وإقلال

لهذا كان كلفا بحث الحكومات على الإكثار من افتتاح المدارس ونشر التعليم ، حتى لقد جهر لعباس الثانى بأنه لا قيمة لسلطانه إذا لم يعز العلم ويرفع لواءه :

فانصر بهمتك العلوم وأهلها   إن العلوم قليلة الأنصار
لا يظهر الكبراء آية عزهم   حتى يعزوا آية الأفكار

وردد الدعوة له ولمن بعده ، كقوله :

أعد بالعلم سؤددها فإنى   وجدت العصر علما واختراعا

وقوله :

وألق فى أرض منف أس جامعة   من نورها تهتدى الدنيا بنبراس
ترك النفوس بلا علم ولا أدب   ترك المريض بلا طب ولا آس

وقوله :

إن سرك الملك تبنيه على أسس   فاستنهض البانيين . العلم والأدبا

وقال فى تهنئته للأستاذ أحمد لطفى السيد حينما ترجم (علم الأخلاق) لأرسطو :

وشغلت نفسك بالخصيب من الجهود عن العقيم

فخدمتَ بالعلم البلا د ولم تزل أوفى خديم
والعلم بنَّاء المآ ثر والممالك من قديم
كَسَّروا به نير الهوا ن وحطَّموا ذل الشكيم

وناشد وزير المعارف سعد زغلول على لسان المطرية أن ينشئ بها مدرسة، فقال له.

يا ناشر العلم بهذى البلاد وُفِّقتَ، نشر العلم مثلُ الجهاد
بالعلم ساد الناس في عصرهم واخترقوا السبع الطباق الشداد
أيطلب المجد ويبغى العلا قوم لسوق العلم فيهم كساد ؟

ثم صور التلاميذ والطلاب أبناء لسعد في قوله.

إن فاتك النسل فأكرم بهم ورب نسل بالندى يستفاد

وكان يحض الشعب على افتتاح المدارس، والعناية بالتعليم، كقوله.

فرب صغير قوم علَّموه سما وحمَى المسوَّمة العرابا
وكان لقومه نفعا وفخرا ولو تركوه كان أذى وعابا
فعلم ما استطعت لعل جيلا سيأتى يحدث العجب العُجابا

وحمَّل الشباب نصيبه في تنوير الشعب وتثقيفه، لأن الشباب في رأيه أعصاب القرى، وروادأهليها.

هزوا القرى من كهفها ورقيمها أنتم لعمر الله أعصاب القرى
الغافل الأمى ينطق عنكم كالببغاء مردِّدا ومكررا
يمسى ويصبح في أوامر دينه وأمور دنياه بكم مستبصرا

ولما شارف أول مجلس نيابى أن يجتمع، أمل شوقى أن يختص المجلس التعليم بقدر كبير من مال الخزانة.

البرلمان غدا يمد رواقه ظلا على الوادى السعيد ظليلا
نرجو إذا التعليم حرَّك شجوه ألا يكون على البلاد بخيلا

٢ — جرائر الجهل

لم يكتف شوقي بالدعوات المتكررة إلى النهوض العلمي ، بل أضاف إليها تنفيراً من الجهل ، وتحذيراً من عواقبه ، وتبشيعاً لجرائره على الأفراد والأمم ..

فكل ملك شيد بالقهر والقوة مجافياً للعلم مصيره الزوال ، لأن أسباب بنائه ومظان بقائه هي نفسها أسباب فنائه .

قال للترك .

هذا الزمان تناديكم حـوادثه ... يا دولة السيف كونى دولة القلم
فالسيف يهدم .فجرا ما بنى سحرا ... وكل بنيان علم غير منهـدم
قد مات فى السلم من لا رأى يعصمه ... وسوّت الحرب بين البَهْم والبُهَم
وأصبح العلم ركن الآخذين به ... من لا يقم ركنه العرفان لم يقم

وإذا كان عزرائيل ينتزع الأرواح من الأجساد فتصير جثثاً هوامد ، فإن الجهل ينتزع من الأرواح سماتها الإنسانية ، فينقل الجهلة إلى فصائل من الحيوان ليس لها من الإنسانية إلا اسمها .

الجهـل لا تحيا عليـه جماعة ... كيف الحياة على يدى عزريلا؟

وقال .

إنى نظرت إلى الشعوب فلم أجد ... كالجهـل داء للشعـوب مُبيدا
الجهل لا يلد الحيـاة مواته ... إلا كما تلد الرمـام الدودا
لم يخـل من صور الحياة وإنما ... أخطاه عنصرهـا فمات وليدا

وفى رأى شوقى أنه من بلاء الأمم سيطرة جهالها على شئونها ، أو استشارهم بالمشورة على ساستها ، لأن الجهل عدو الأمم الألد ، ومباءة شرور متلاحقة لا تنفد ، ولقد تنشأ عنه نعمة عفوا ومصادفة ، لكنها شقاء فى صورة نعيم ،

ونذير فى زى بشير ، وكثيراً ما قوض الدول ، وخرب العمران ، وأهلك الشعوب .

صَغُر الجهلُ أن يشير بنـوه | إنـه المُقـب العـدو الألـدا
نكّد كله ، وإن يـبدا بيضا | ء تَجرَّى على يديه لسَوْدا
طالما دمّـر المـمالك تدميـ | را وهد البلاد والناس هدا

ومهما تبلغ الأمة من القوة المادية التى لا يسندها علم فإنها خاوية سرعان ما تنهار ، لأن مظان بقائها هى أسباب فنائها .

وقد ضرب شوقى مثالا من الأتراك، إذ أقاموا دولتهم على البطش والجبروت غير مستند إلى العلم والعدل ، فتقوض ملكهم ، وشيعته الشعوب بالبغض الشامت .

رفعوا على السيف البناء فلم يَدُمْ | ما للبنـاء على السيوف دوامُ
أبقى الممالك ما المعـارف أسه | والعـدل فيـه حائط ودعام
فإذا جرى رشَدا ويُمْنا أمـركم | فامشـوا بنور العلم فهو زمام

لهذا نصح بالاعتماد على القوة والعلم معا .

هذا الزمانُ تناديكم حوادثه | يا دولة السيف كونى دولة القـلم
فالسيف يهدم فجرا ما بنى كرا | وكل بنيان علم غير منهـدم
وأصبح العـلم ركن الآخذين به | مَن لا يُقم ركنه العرفانُ لم يَقُم

٣ — الثقافة المستنيرة

١ — على أن شوقى لم يكن يريد من العلم والتعليم معارف ضحلة مقصورة على مناهج محددة ، وبرامج مقيدة ، بل أراد بالعلم والتعليم ثقافة مستزيدة ، ونهماً دائماً إلى الاطلاع والاستطلاع والكشف ، لأن مراحل الدراسة ما هى إلا مفاتيح لخزائن المعرفة التى لا تنفق كنوزها ، وكم من معلم

اقتصر على ماتعلمه فى المدارس ،وودع الكتاب يوم غادر المدرسة ، فصار بعد حين فى عداد القارئين لافى عداد المثقفين الذين يسايرون الأفكار المتجددة ،ويغذون عقولهم كما يغذون أجسامهم . فهو يريد بالعلم هذا النشاط الذهنى المتوقد ، وهذا النهم إلى الاستزادة من المعرفة .

٢ — وفى رأى شوقى أنه ليس أضر على العلم والمتعلم من أن يطلبه المتعلم للوظيفة وحدها ، لأن هذا النوع سيقتصر على ما تعلمه ، وسيودع الكتاب يوم تودعه المدرسة ، أو الجامعة ، فيصير بعد حين فى عداد القارئين لا فى عداد المثقفين الذين يسايرون الحركة الفكرية ، ويغذون عقولهم كما يغذون أجسامهم .

قال شوقى للشباب :

واطلبوا العلم لذات العلم لا	لشهادات وآراب أخر
كم غلام خامل فى درسه	صار بحر العلم أستاذ العصر
ومجدٍّ فيه أمسى خاملا	ليس فى من غاب أو فى من حضر

وقال فى كتابه (أسواق الذهب) :

« ما بال الناشىء وصل اجتهاده ، حتى حصل على الشهادة ، فلما كحل بأحرفها عينيه ، وظفرت بزخرفها كلتا يديه ، هجر العلم وربوعه ، وبعث إلى معاهده بأقطوعة ، طوى الدفاتر ، وترك المحابر ، وذهب يخايل ويفاخر ، ويدعى علم الأوائل والأواخر ، فمن يُنَبِّهه أن الشهادة طرف السبب ، وفاتحة الطالب والجواز إلى أفكار العلم والأدب؟ » .

٤ — الغاية من العلم

وإذْ كان شوقى شاعرًا مرهف الوجدان سمح النفس مولعاً بالسلام فى صلاته الخاصة داعية إليه فى علاقات الأمم بعضها ببعض ، فقد توخى من العلم أن يكون رياً للنفوس المتعطشة إلى الحق والخير ، وأن يكون وسيلة

لإسعاد البشر ، لأن العلم قبس من نور الله ، وهبة ثمينة من عطاياه ، ونعمة من نعمه على عباده ، حتى إنه لو صح أن الله يُرَى لكان العلم هو المصباح الذى الذى يراه به العلماء .

فمن الجرم أن يستخدم عالم علمه فى الشرور والإضرار بالناس ، لأن هذا ينافى وظيفة العلم وما يعلق عليه من آمال .

والعلماء النافعون هم الأبطال ، لأنهم لا يحاربون إخوانهم فيقوضوا حضارة ، ويخربوا مدنية ، بل هم يحاربوا أمراض البشرية ، ويطبون للإنسانية لتصح وتَسْلم ، وتسرع إلى الكمال ، وهذا هو الجهاد ، وتلك هى البطولة :

لو يُرَى الله بمصباح لما كان إلا العلم جل الله شأنا
با طرازاً يبعث الله بنه فى نواحى ملكه آنا فآنا
من رجال خلقوا ألوية ونجوماً وغيوثاً ورعانا (١)
قادة الناس وإن لم يقربوا طبعات الهند والسمر اللدا (٢)
وهم الأبطال كانت حربهم منذ شنوها على الجهل عوانا

أما العلم الذى يبتكر معاول التدمير والتخريب ، والإحراق والإزهاق ويُسلط الباطل على الحق ، والشر على الخير ، فالجهل خير منه .

فقد وصف الطيارة سنة ١٩١٠ ، ورحب بها مستبشراً أن تكون وسيلة خير وسلام ، وساخطاً عليها ومتعجلا دمارها إن صارت أداة تخريب وشر .

ربِّ إن كانت لخير صنعت فاجعل الخير بناديها لزاما
وإن اعتز بها الشر غداً فتعالت تمطر الناس الزؤاما
فاملأ الجو عليها رُجُماً رحمة منك وعدلا وانتقاما

---

(١) الرعان : جمع رعن وهو الجبل الطويل .

(٢) طبعات الهند : السيوف . السمر اللدان : الرماح القوية .

ووصف الغواصة سنة ١٩١٤، وختم وصفه بالضيق بها وبالدعاء بالفناء عليها وعلى مخترعها وعلى بحارتها وعلى البحر الذى تغوص فيه وتسبح .

خئون إذا غاصت غدور إذا طفت ملعنة فى سبحها وسراها
فلا كان بانيها ولا كان ركبها ولا كان بحر ضمها وحواها
وأف على العلم الذى تدعونه إذا كان فى علم النفوس رداها

وعرج فى إحدى مراثيه على الحرب الكبرى فسخط على المخترعات المدمرة التى لم تتورع من تخريب الأماكن المقدسة ، ووصف مخترعيها بأنهم أثمة مجرمون ..

يتقاذفون بذات هول لم تهب حرم المسيح ولا حمى العذراء
من محدثات العلم إلا أنها إثم عواقبها على العلماء

٢ — على أن شوقى مع تقديره للعلم أعظم تقدير ، وإشادته بمقدرة العلماء على الابتكار والاختراع ، آمن بأن للعلم حدوداً يجب ألا يتعداها ، فكان إيمانه بقضاء الله وقدره أقوى من إيمانه بالعلم ، لأن العلماء مهما أوتوا من المعرفة بشر خلقهم الله ، وليس علمهم إلا قطرة من علمه ؛ وما مقدرتهم وأعاجيب اختراعهم إلا ذرة فى طود القدرة الإلهية ، وهم ومخترعاتهم ومعارفهم بيد الله تعالى لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً .

لك الملك يا من خص بالعلم ذاته ومن فوق أرباب الملوك مآربه
فآمنت بالعلم الذى أنت نوره ومنك أياديه، ومنك مناقبه
نؤامن من خوف به كل غالب على أمره فى الأرض والداء غالبه
وآمنت بالله الذى عز شأنه وآمنت بالعلم الذى عز طالبه

لهذا رأى شوقى أن يقف العلماء من الغيبيات عند تصديقها ، وألا يعنوا نفوسهم فى استكناه حقائقها ، لأنها فوق علمهم .. يتبين هذا من قوله فى الحياة . « أحق أنها هى الدم حتى يتجمد؟ وأنها هى الحرارة حتى تتبرد ؟

وأنها هى الحركة حتى يقطعها السكون ؟ وأنها هى الحاران — الرو والجسد — حتى تفرق بينهما المنون ؟ . الحق أن افتئات الفلسفة على ضنائن الله سَفَه ، وأن علم الحياة عند الذى يَهَبُوا ويستردُّها ، والذى يَقْصِرُها ويَمُدُّها ، والذى يُخْلِقُها ويستجدُّها ، والذى كل حى سواه يموت ، وكل شىء ما خلاه يَفُوت » .

وسخر ممن زعموا أنهم عرفوا حقيقة الروح ، ورأى أن مزاعمهم أوهام مردها إلى اضطراب أعصابهم ، لأن الروح من ضنائن علم الله تعالى .

لا تسمعَنَّ لعصبــة الأرواح ما قالوا بباطل علمهم وكذابه(١)
الــروح للرحمــان جَــلَّ جلاله هــو مــن ضنائن علمه وغيابه(٢)
غُلِبُوا عــلى أعصابهم فتوهموا أوهــامُ مغــلوب عــلى أعصابه

ولم يكن شوقى يريد بهذا أن يحجر على العقول المفكرة والعبقريات المبتكرة ، بل أراد لها أن تجول فيما يتراءى فيه نجاحها ، أو يتوقع من ورائه ترقية المجتمعات وتطوير الحياة .

أما التطاول إلى الأسرار التى استأثر الله بعلمها فإنه جهد ضائع ، ووهم باطل ، وخبط فى غياهب ومجاهل ، وليس للعلم أن يحاول اقتحام ما استأثر الله بعلمه ، ولقد صدق سبحانه فى قوله . « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى ، وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » .

---

(١) الكذاب : الكذب .
(٢) غيابه : غيبه .

٥ — تعليم الفتاة

دعا شوقى إلى تعليم الفتاة ، لأنها بعد حين الأم التى تلد الأطفال أو الأشبال ، وتربيهم على أحسن مثال. وفى رأيه أن الأم هى الخالق للطفل بعد الله ، وهى التى تطبع ولدها ، وتشكله ، فيكون عظيما أو حقيراً ، وخيراً أو شريرا :

لولا التقى لقلت لم يخلق سواك الولدا
إن شئت كان العير أو إن شئت كان الأسدا
والبيت أنت الصوت فيه وهو للصوت صدى
كالببغا فى قفص قيل له فقلدا
وكالقضيب اللدن قد طاوع فى الشكل اليدا
يأخذ ما عودته والمرء ما تعودا

لهذا دافع عن حق النساء فى التعلم ، وضرب الأمثال بحالهن فى الإسلام ، فاخر بما كان لهن من آثار ، لعل الذين كانوا ينازعون فى تعليم الفتيات أن يقتنعوا بأن الإسلام لا يعارض فى تعليمهن ، بل يوجبه :

هذا رسول الله لم ينقص حقوق الأمهات
العلم كان شريعة لنسائه المتفقهات
ولقد علمت بناته لجج العلوم الزاخرات
كانت سكينة تملأ الدنيا وتهزأ بالرواة
روت الحديث وفسرت آى الكتاب البينات
وحضارة الإسلام تنطق عن مكان المسلمات
بغداد دار العالمات ومنزل المتأدبات
ودمشق تحت أمية أم الجوارى النابغات
ورياض أندلس نميـن الهاتفات الشاعرات

ولهذا كان أسيفاً من بطء الخطأ إلى تعليم البنات ، وكان يجهر بأن تعليمهن أجدر بالعناية من بناء الحصون والقلاع ، لأنهن اللائى سيلدن النابغين ويربينهم ، وينجبن الأشبال ويرضعنهم ، وينشئن للأمة جيلا كل فرد منه حصن للوطن :

قم ابن الأمهــات على أساس ولا تبن الحصون ولا القــلاعا
فهن يلدْن للتَّقصب المذاكى وهـــن يلدن للغــاب السِّباعا(١)
وجــدت معــانى الأخلاق شتى جُمعن فكن فى اللفظ الرِّضاعا

ولا سبيل إلى إنهــاض شعب جهلت نســاؤه ، لأنهـــن المربيات الأوليات ، وحسب البنين من الضرر أنهم يرضعون من أمهاتهم جهالة وكسلا وخنوعا :

وإذا النســاء نشأن فى أميــة رضـــع الرجال جهــالة وخمولا

وقد ساهم شوقى فى الاحتفاء بالجامعة المصرية القديمة سنة ١٩٠٨ ، وحيا الذين تبرعوا لها ، والذين دعوا إلى إنشائها ، ثم احتفلت الجامعة الجديدة ببعض منشآتها سنة ١٩٣١ ، فحياها شوقى بقصيدة منها :

ما هذه الغرف الزواهر كالضحا الشــامخات كأنهــا الأعــلام
من كل مرفوع العمود منور كالصبح منصـــدع به الإظلام
تتحطم الأميــة الكبرى عــلى عــرصــانه وتمزّق الأوهــام
هــذا البنــاء الفاطمى منــارة وقواعـــد لحضارة ودعــام
شــرفاته نــور السبيل وركنه للعبقــرية منــزل ومقــام

وإذا كان قد احتفى بالجامعة قديمة وجديدة فإنه كان يأمل أن تنشىء مصر جامعة للفتيات ، إذ قال فى سنة ١٩٢٠ فى رثائه للأميرة فاطمة إسماعيل

---

(١) القصب : مايتراهن عليه المتسابقون . المذاكى : الخيل المكتملة القوة .

التى تبرعت بمال كثير لإنشاء الجامعة .

يا جزع العلم على سكينة المؤقرة
من ذا يؤسى هذه الـ جامعة المستعبره
لو عشت شدت مثلها للمرأة المحرره

وذلك أنه لم يكن يدور بخلده حينئذ أن الفتيات سيخالطن الفتيان فى قاعات الدرس والمحاضرات ، ولعل هذا لم يكن يدر بخلد أحد فى ذلك الوقت ، وقصارى ماكان يأمل فيه المصلح أن تنشىء مصر جامعة للفتيات لما أنشأت جامعة للبنين ، وهذا هو الذى تمناه شوقى .

٦ — تمجيد المعلمين

هذا الكلف بالعلم البانى النافع جعل شوقى يمجد المعلمين فيذكر أن الله تعالى هو المعلم الأول ، وأنه بعث الرسل ليعلموا الناس ، وأن المعلمين أشبه بالرسل ، لأنهم يربون النفوس والعقول ، ويهدون الأمم إلى الخير والحق ، يرشدونها إلى العزة والمجد .

قم للمعلم وفه التبجيلا كاد المعلم أن يكون رسولا
أعلمت أشرف أو أجل من الذى يبنى وينشىء أنفساً وعقولا ؟
سبحانك اللهم خير معلم علمت بالقلم القرون الأولى
أرسلت بالتوراة موسى مرشدا وابن البتول فعلم الإنجيلا
وفجرت ينبوع البيان محمدا فسقى الحديث وناول التنزيلا

ولم ينس فى تقديره للمعلمين أن يبصرهم بواجبهم العظيم فى تربية النشء لأنهم المثل التى يحاكونها، فعليهم أن يكونوا قدوة طيبة ،وأن يطبعوا تلاميذهم وطلابهم على الإنصاف ، لأن الإنصاف ملتقى كثير من الفضائل :

ربّوا على الإنصاف فتيان الحمَى تجدوهمُ كهفَ الحقوق كهولا
فهو الذى يبنى الطبــاع قويمةً وهو الذى يبنىء النفوس عدولا
ويقيم منطق كلِّ أعوجَ منطقٍ ويريه رأيًا فى الأمــور أصيــلا
وإذا المعــلم لم يكن عدلا مشى روح العدالة فى الشباب ضئيلا
وإذا المعلم ساء لَحْظَ بصيرةٍ جاءت على يده البصائر حُولا
وإذا أتى الإرشاد من سبب الهوى ومن الغرور فسمِّه التضليــلا
وإذا أصيب القــوم فى أخلاقهم فأقم عليهم مأتمـا وعــويلا

وأشفق على المعلمين ، لأن الأمهات جاهلات لا يستطعن أن يشاركنهم فى تعليم النشء وتثقيفه وتربيته تربية صحيحة ، ولعل شوقى لو صرح بما فى نفسه لقال إن البيوت الجاهلة تهدم ما تبنيه المدارس ، وتعاند بعاداتها ونظمها ما تغرسه المدرسة فى نفوس الصغار ، لكنه لم يصرح بهذا ، واكتفى بقوله :

إنى لأعذركم وأحســب عبأكم من بين أعبــاء الرجال ثقيلا
وجــد المساعد غيركم وحرمتمُ فى مصر عون الأمهات جليلا
وإذا النساء نشأن فى أميــة وضــع الرجــال جهــالة وخمولا

٧ — حملة على تعويق الاحتلال للعلم

رأى شوقى تعويق الاحتلال البريطانى لنهضة التعليم فى مصر فجهز بجزنه مرات ، وكر بالسخط على الاحتلال كرات ، وهالة أن تتعثر خطوات التعليم هذا التعثر الذى يشهد به ثيودور روثستين فى كلام طويل مفصل أجتزىء منه بقوله : « إن إهمال التعليم فى مصر لمن أظهر سمات حكم اللورد كرومر ، ولقد وعد اللورد دوفرين أن ترقية التعليم ستكون من أهم ما يحرص عليه الحكام الجدد ، ولكن ما أعظم الخلف بين القول والعمل فى كل معاملات الإنجليز للمصريين . وليس التقهقر بالتعليم مقصورًا على عدد المدارس ، بل إنه يتناول المنهج أيضاً.

ولغة التعليم فى المدارس العالية ليست العربية، بل الإنجليزية ثم الفرنسية بدعوى أن العربية ليست لغة علمية ، وهذا طعن سخيف يكذبه تاريخ الحضارة والعلوم العربية فى القرون الوسطى ، إننا قلما نجد فى قطر من الأقطار ظمأ إلى حياض العلم ، لذى نجد، فى مصر ، ومع ذلك لا نجد حكومة قد سعت إلى رى ذلك الظمأ أضعف من سعى الحكومة المصرية » .

كذلك ندد المستر بويد كاربنتر بسياسة دانلوب وإفساده التعليم المصرى والرجوع به القهقرى .

أسى شوقى من سوء حال التعليم بمصر ، وتخلل أساه كثيراً من قصائده ، سواء أكان يدافع عن مصر وحقوقها ، أم يخايل بماضيها العظيم ، أم يستحث على نهضتها ، أم يشجع على عمل نافع ، أم يعرض لشأن يتداعى معه الأسى من الحاضر الأليم .

فهو يعزو إلى دنلوب مستشار المعارف من سنة ١٩٠٦ إلى ١٩١٩ أنه عوق التعليم ، فصارت مصر تمشى فى ميدانه سحفاً بينا تمشى الأمم الأخرى عدواً ، حتى صار المصريون عجزة عن صنع إبرة ، وهم الذين بنى آباؤهم المسلات فى زمن لا روافع فيه ولا آلات ، وقد ضرب المثل بالمسلة مشاكلة للإبرة ، فجاءت مشاكلة لطيفة :

كانت لنـــا قدم إليـــه خفيفة	ورمّتْ بدنـــلوب فكان الفيـــلا
حتى رأينـــا مصر تخطو إصبعا	فى العلم إن شئت الممالك ميـــلا
نجد الذين بنى المســـلة جـــدهم	لا يحسنـــون لإبرة تشكيـــلا
الجهـــل لا تحيـــا عليه جماعة	كيف الحياة على يدَىْ عزريلا ؟

ويقسم أن مصر ما كانت لتبلغ ما بلغته من رقى التعليم على الرغم من دنلوب وخططه المعوقة لولا ذكاء بنيها ، وإخلاص معلميها ، وحماسة شبابها ورجالها :

والله لولا ألســن وقرائح دارت عــلى فطن الشباب شَمولا
وتعهدت من أربعــين نفوسهم تغزو القنوط وتغــرس التأميلا
عرفَتْ مواضع جَدْبهم فتتابعتْ كالعيْن فَيْضا والغمام مَسيلا
تسدى الجميل إلى البلاد وتستحى من أن تكافأ بالثناء جميــلا
ما كان دنلوب ولا تعــليمه عنــد الشدائد يغنيان فتيــلا

ويرى أن الاحتلال جنى على التعليم إذ جعل المدارس مصانع لتخريج الموظفين على برامج محدودة ممسوخة ، فصاروا عاجزين عن منافسة الأجانب فى ميادين التجارة والصناعة ، فأخلوها لهم ، واضطروا إلى القناعة بفتات أرباحهم .

أرى وطنــاً تحــير ناشــئوه فما يجــدون مــن عمــل قِواما
فلا أسُسُ التجــارة فيه قَرَّتْ ولا ركن الصناعة فيــه قامــا
مــدارس لم تهيئهم لكسب ولم تَبْنِ الحيــاة ولا النظاما

وكان من أثر ذلك كله أن قل النابغون ، وندر الأسخياء على التعليم بما لهم ، فضعفت الصناعة والتجارة ، وتأخرت الزراعة، وصار المصريون يعتمدون على القطن وحده ينبوعاً للثروة ، فإذا كسدت سوقه اضطربوا ، وكادوا يشغلون بسوء حالهم المالية عن متابعة الجهاد ، ومناضلة العدو الغاصب :

فاض الزمان من النبوغ فهل فتًى غَمَــرَ الزمــانَ بعلمه وبيانه ؟
أين التجــارة وهى مِضْمار الغِنَى أين الصنــاعة وهى وَجْه عَنانه؟
أين الجــواد على العــلوم بماله أين المشــارك مصر فى فدانه ؟
أين الزراعــة فى جِنانٍ تحتكم كمخمائل الفردوس أو كجنانه ؟
أئذا أصاب القطنَ كاسدَ سوقِه قمنــا على ساقٍ إلى أثمانه ؟
يا من لشعب رُزْؤُه فى مــاله أنســاه ذكر مصــابه بنكيانه
الملك كان ولم يكن قُطْنٌ فلم يُغْلَبْ أبوتنــا على عمرانه

شوقي والشباب

شوقي والشباب

احتفى شوقي بالشباب أيما احتفاء ، فأعزهم واعتز بهم ، وناط بجهودهم وجهادهم حاضر الوطن العربي ومستقبله ، وصارحهم بما يؤلمه من الواقع المتخلف وأشاد بجهادهم وبطولتهم وصالح أعمالهم .

وكثيراً ما أنار لهم الطريق بالحكم والنصائح التي اختصهم بها ، وحببها إليهم

ولهذه الحفاوة بالشباب ثلاثة ينابيع :

أحدها : حبه لأبنائه ، وشعوره بحب الآباء لأبنائهم ، ومن واجب الأب الحدب على بنيه أن يزودهم بثمار تجاربه وخبرته ليهديهم سواء السبيل ، وليجنبهم ما قد يقعون فيه من أخطاء عرضت له أمثالها ، فتورط فيها أو تغلب عليها .

والآخر : أن شوقي كان ينوط بالشباب في مصر والعالم العربي آمالا جساماً هم أهل لتحقيقها ، لأنهم نشأوا في عهد اليقظة والنهوض والجهاد لتحرير الوطن وإعلاء شأنه .

أما الينبوع الثالث : فهو أن الشباب أطهار مبرأون من آفات الأغراض الشخصية والمطامع الذاتية والتنافس على المغانم والأسلاب وكراسي الحكم ، فقلوبهم متفتحة للنصح ، وأخلاقهم متقبلة للتوجيه .

لقد صور شوقي عزازة الأبناء على آبائهم بأنهم دماء آبائهم وشرايينهم وحياتهم ، وبأنهم المصدر لسعادة آبائهم ، سواء أكانوا قلة أم كثرة ، وبأن

الصالح منهم مفخرة لأبيه حتى إنها قد تولد غرورًا وفتنة، والطالح منهم نكبة تقبض الصدور ، وتحزن القلوب ، وهم إذا مسهم مرض مشغلة للنفوس ، وإذا ودعوا الحياة خطبٌ ما مثله خطب ، وفاجعة لا عزاء لها ، ولا طاقة للآباء باحتمالها .

البنـــون هم دمنا والحيـــاة والوُرُدُ(١)
لا تلـــدُ مِثْلَهم مهجـــة ولا كبد
يستوون : واحدهم في الحنـــان والعَدَد
زينـــةٌ ومصلحةٌ واستراحة ودَدُ(٢)
فتنـــة إذا صلحوا محنـــةٌ إذا فسدوا
شـــاغلٌ إذا مرضوا فاجـــعٌ إذا فُقِدوا
جُرْحهم إذا انتزعوا لا تَلُمـــه الضُّمُد
العـــزاء ليس لـــه آسـياً ولا الجلَد

وبلغ من إعزاز شوقى للأبناء أنه ربط الوطن بحبهم ، إذ صوره ينبوع الخير المأمول لهم بعد موت آبائهم، وصور الآباء وهم فى أجداثهم شوقاً يكاد يعيد الخفقان إلى قلوبهم . قال فى مناجاة النيل .

مما يُحَمِّلنـــا الهوى لك أفرخٌ سنطير عنها وهى عندك تُرزقُ
تهفو إليهم فى التراب قلوبنـــا وتكاد فيـــه بغـــير عرق تخفُق
تُـــرجَى لهم والله جـــل جلاله منـــا ومنك بهم أبرُّ وأرفـــق
فاحفظ ودائعك التى استُودِعتَها أنت الوفىُّ إذا أؤتمنتَ الأصـــدق

وما من شك فى أن شوقى أراد بالأبناء ذكورهم والإناث ، ولكنه مع ذلك خص البنات بالإشادة فى بعض قصائده ، فجعلهن ينابيع رحمة ، وكنوز

(١) الورد : جمع وريد .
(٢) دد : لهو ولعب .

محبة، وقال: إنهم يمتزن بالحنان على آبائهن، فيمرضنهم فى رعاية وعناية وحدب ويبكينهم إذا ماتوا بكاء طويل الأجل، ويترددن على قبورهم حيث يقدم العهد وينقطع الزوار، وهن لا يفتأن يتذكرن آباءهن ويذكرنهم، ويتحدثن بحميد فعالهم، وجميل مآثرهم.

إن البنات ذخائر من رحمة   وكنوز حب صادق ووفاء
الساهرات لعلة أو كَبْرة   والصابرات لشدة وبلاء
الباكياتك حين ينقطع البكا   والزائراتك فى العراء النائى
والذاكراتك ما حيين تَحَدُّثا   بسوالف الحرمات والآلاء

وأحس شوقى بما يشعر به بعض الآباء من ضيق بالبنات، فرد عليهم بأن البنات نعمة يجود الله بها على عباده، وبأنهن كنز رحمة وبر ومودة.

إنما البنت وإن ضاقوا بها   سَعةٌ يرزقها الله عباده
أثر الرحمة من والدها   ودليل البر عنوان الوداده

— ٢ —

فلا عجب أن شغل شوقى بالشباب، وأولاه عنايته، لأن الشباب هم أشبال اليوم التى يربيها الوطن لغده المأمول، فالوطنية تقتضى إعدادهم لتحقيق الأمل العظيم المنوط بهم:

إن الشباب غدٌ فليَهْدِهم لغدٍ   وللمسالك فيه الناصحُ الورعُ

ولهذا يفديهم شوقى بابنيه، وإنه لفداء عظيم، ويدعو الله أن يمد أجله ليسعد برؤيتهم وهم يحيون فى وطنهم ينعمون به وينعم بهم، ويرفعون مكانته إلى ذروة العلا والمجد، ويستبشر بهم خيراً، لأن حاضرهم ينبىء بأنهم سيعيدون إلى الوطن عزته وقوته:

يا شباب الغد — وأبناى الفدا   لكمُ — أكرمْ وأعززْ بالفداء

هل يمد الله لى العيش عسى   أن أراكم فى الفريق السعداء

وأرى تاجكم فوق السها   وأرى عرشكم فوق ذكاء

من رآكم قال مصر استرجعت   عزها من عهد خوفو ومناء

أمة للخلد ما تبنى إذا   ما بنى الناس جميعاً للفناء

— ٣ —

وكان يحزن أن يرى الاستعمار يكبل الشباب ويسد عليهم المسالك، فالتعليم ضيق المناهج، بعيد من القومية، قتال للنبوع، بغيض إلى النفوس المتحررة والآمال الوثابة :

هل راعكم أن المدا   رس فى الكنانة خاوية ؟

هجرت فكل خلية   من كل شهد خاليه

وتعطلت هالاتها   منكم وكانت حاليه

فهجرتم الوطن العز   يز إلى البلاد القاصيه

والجيش ضعيف مستضعف، يحول الاستعمار بينه وبين القوة فى البر والبحر، فتى ينهض الشباب نهضة وثابة تعوض الوطن ما فاته فى عصر تتسابق فيه الأمم إلى القوة :

البر ليس لكم فى طوله لجم   والبحر ليس لكم فى عرضه شرع

هل تنهضون عساكم تلحقون به   فليس يلحق أهل السير مضطجع

وهو يعدد من مخازى كرومر أنه أضعف الجيش المصرى، حتى صار شأن فتيانه صغيراً بين جيوش الأمم، لأنه اختص الإنجليز بالرتب العالية، وحرمها على أبناء الوادى، فأوصد فى وجوههم أبواب الأمل :

أم هل يقدلك الإضاعة فنه   جيش كجيش الهنديات ذليلا

انظر إلى فتيانه ما شأنهم   أو ليس شأنا فى الجيوش ضئيلا

حرمتهم أن يبلغوا رتب العلا ... ورفعت قومك فوقهم تفضيلا
فإذا تطلعت البلاد وأملت ... مستقبلا لم يملكوا التأميلا

— ٤ —

وكثيراً ما أشاد شوقى بجهود الشباب ، اعترافاً بفضلهم ، وتشجيعاً لهم ، وإيقاظاً للمتغافلين أو الغافلين منهم .

لهذا ساهم فى تكريم الشبان الذين أطلق سعد زغلول سراحهم سنة ١٩٢٤ كانت السلطة البريطانية قد أمرت بحبسهم ، وزف شوقى إلى مصر البشرى بأن أشبالها كبروا وخرجوا من السجون أسوداً ، وكرم هؤلاء الشباب بأن أمهم مصر رضيت جهادهم ، واعتزت بهم ، وقبلت التيجان المعقودة على رءوسهم .

ثم أثنى عليهم بأنهم عملوا فى صمت ، وخرجوا من السجون لا يباهون بما عملوا ، ووصفهم بالفطنة والحذر من ألاعيب المستعمر ، وبأنهم وقفوا على الوطن أنضر أعمارهم ، وقدموا لفدائه أرواحهم ، وليس لهم من غرض إلا الحرية والاستقلال ، وهذا هو الثواب الذى يريدونه ، وإنه لثواب عظيم ، لأن الجلاء هو العيد الحقيقى الذى يتشوف إليه كل مصرى :

يا مصر أشبال العرين ترعرعت ... ومشت إليك من السجون أسودا
قالوا أتنظم للشباب تحية ... تبقى على جيد الزمان قصيدا
قلت : الشباب أتم عقد مآثر ... من أن أزيدهم الثناء عقودا
قبلت جهودهم البلاد وقبلت ... تاجاً على هاماتهم معقودا
خرجوا فما مدوا حناجرهم ولا ... منوا على أوطانهم مجهودا
ما كان أفطنهم لكل خديعة ... ولكل شر بالبلاد أريدا
لما بنى الله القضية منهم ... قامت على الحق المبين عمودا
جادوا بأيام الشباب وأوشكوا ... يتجاوزون إلى الحياة الجودا

طلبوا الجلاء على الجهاد مثوبة ... لم يطلبوا أجر الجهاد زهيدا
والله ما دون الجلاء ويومه ... يوم تسميه الكنانة عيدا

ولما نهض الشباب بالدعوة إلى تشجيع المصنوعات الوطنية، وبدأوا بجمع التبرعات لإنشاء مصانع ، حياهم شوقى بقصيدة، صور فيها صوتهم مطرباً ساراً مبشراً بالخير ، تصغى إليه القلوب والأسماع ولا تمله، فهو تغريد ، وهو صوت الحق المبرأ من البغى والحسد والشهوات التى ما خالطت شيئاً إلا فسد . وصور الشباب المنتشر فى أرجاء الوادى يجمع التبرعات أزهارا تنتقل تارة وتستقر تارة،وهم فى تبكيرهم إلى جمع التبرع جماعات جماعات يشبهون أسراب النحل ، يتغنون بوطنهم ، ويحضون قومهم على التبرع لعمل نافع سيلمس الشعب أثره فى المستقبل القريب .

وهذه القروش القليلة تشبه رحيق الأزهار، يرتشفه النحل قليلا قليلا ، ثم يخرجه عسلا شهياً مختلفاً ألوانه فيه شفاء للناس .

فتيةَ الوادى عرفنا صوتكم ... مرحباً بالطائر الشادى الغرد
هو صوتُ الحق لم يبغِ ولم ... يحمل الحقدَ ولم يُخْفِ الحسد
وخلا من شهوة ما خالطتْ ... صالحاً من عمل إلا فسد
زَنْبَقُ المدْن وريحانُ القُرى ... قام فى كل طريق وقعد
باكراً كالنحل فى أسرابها ... كل سرب قد تلاقى واحتشد
قد جنى ما قلَّ من زهر الربا ... ثم أعطى بَدَلَ الزهر الشُّهُد
يجعل الأوطانَ أغْنيتَه ... وينادى الناس من جاد وَجَدْ

وشكر للشباب فى قصيدة الأزهر ما قاموا به من تثقيف وتهذيب، وطالبهم بالجد فى إيقاظ الفلاحين وتنويرهم ، لأنهم من القرى وهم أحق الناس بإحيائها .

يا فتية المعمور سار حديثكم ... ندًا بأفواه الركاب وعنبرا
هزوا القرى من كهفها ورقيمها ... أنتم لعمر الله أعصاب القرى

وكذلك نوه بشباب دار العلوم الذين ينهضون بتعليم اللغة الفصحى، ووصفهم بإحسان عملهم، وبتحقيق أمل العلم فيهم، وحسن ظن أساتذتهم بهم، وبأنهم بددوا ظلمات الجهل التى خيمت على المدن والقرى زمناً طويلا.

وحسبهم من الأثر الحميد أنهم رسل ثقافة فى حياتهم، ومناهل معرفة بعد موتهم، لأن الذى يموت منهم يسلم روحه بعد أن قسم فكره وعلمه على تلاميذ

يا عكاظ حوى الشباب فصاحاً — قرشيين فى المجامع لُسْنا
بثهم فى كنانة الله نورا — مِنْ ظلامٍ على البصائر أخنى
علّموا بالبيان لا للغرباء — فيه يوماً ولا أعاجم لُكْنا
فتية محسنون لم يُخْلفون العلـ — رجاء ولا المعلم ظنّا
صدّعوا ظلمة على الريف حلت — وأضاءوا الصعيد سهلا وحزنا
من قضى منهمُ تفرق فكرا — فى نُهى النشء أو تقسم ذهنا

— ٥ —

وكان ينتهز فرص التمجيد للذين قاموا بأعمال عظام، ليعرج على الشباب فيبعث حماسته وحميته، ويغريه بالاقتداء بهم ...

ففى تحيته للرحالة أحمد حسنين حض الشباب على البطولة والمغامرة فى عصر البطولة، والعلم والعزيمة، ونصحهم أن يجعلوا المجد هدفهم، وأن يصبروا على ما يتطلبه المجد من جلد، وبين لهم أن العصر، عصر علم وأدب واختراع وصناعة، ولا بد من أن تأخذ مصر نصيبها من هذا كله، وإلا تخلفت عن الأمم، ونقوض صرحها.

قل للشباب بعصرٍ. عصركم بطلٌ — بكل غاية إقدام له ولَعُ

أمنُ الممالك فيه همةٌ وحجا ... لا التُّرهات لها أمن ولا الخِدَع
عليكمُ بخيال المجد فأتلفوا ... حياله وعلى تمثاله اجتمعوا
أجملوا الصبر في جد وفي عمل ... فالصبر ينفع ما لا ينفع الجزع
وإن نبغتم ففي علم وفي أدب ... وفي صناعات عصر ناسُه صُنُع
وكل بنيان قوم لا يقوم على ... دعائم العصر من ركنيه منصدع

وهو ينصح الشباب بأن يتزودوا بالعلم في عصر العلم والاختراع ، حينما أشاد بالطيارين الفرنسيين اللذين قدما إلى مصر سنة ١٩١٤ ، ويطمئنهم على أن مستقبلهم بيد الله وهو خير أمين ومحقق للآمال ، وينهاهم عن الاستسلام لما يردده اليائسون من أن الدهر عاداهم ونقض قواهم ؛ لأن هذا وهم وخيال ، ثم يكرر حثهم على طلب المعرفة ، ويرشدهم إلى دراسة تاريخ آبائهم المشرق ليقتدوا بهم ، ويحبب إليهم الاستمساك بعروبتهم ولغتهم الفصحى التي أنزل الله بها كتابه ، وبعث نبيه ، ويحضهم على أن يتسلحوا بالقوة ويسودوا العالم ، لأن الغلبة للأقوياء ، وإذ كان المقام إشادة بالطيران والطيارين طالب شوقي الشباب بأن يشقوا طرقهم إلى المجد على ظهور الأرض ، فإذا استنفدوا هذه الطرق حتى ضاقت الأرض بهم ، فعليهم أن يتطلبوا للمجد طرقاً أخرى في الفضاء :

إنما مصر إليكمْ وبكمْ ... وحقوق البر أولى بالقضاءْ
عصركم حر . ومستقبلكم ... في يمين الله خير الأمناء
لا تقولوا . حطنا الدّهر فما ... هو إلا من خيال الشعراء
هل علمتم أمة في جهلها ... ظهرت في المجد حسناء الرداء
باطن الأمة من ظاهرها ... إنما السائل من لون الإناء
فخذوا العلم على أعلامه ... واطلبوا الحكمة عند الحكماء
واقرأوا تاريخكم واحتفظوا ... بفصيح جاءكم من فصحاء
أنزل الله على ألسنتهم ... وَحْيَهُ في أعصر الوحي الوِضاء

واحكموا الدنيا بسلطان فما خلقت نصرتها الضعفاء
واطلبوا المجد على الأرض فإن هي ضاقت فاطلبوه في السماء

وكذلك انتهز الفرصة حينما أشاد بالطيار صدقي سنة ١٩٣٠ وهو أول مصري جاء من ألمانيا إلى مصر راكباً طيارته، فاستحث الشباب على الاقتداء به، وتكهن بأن الأمم التي لا تصون استقلالها بسلاحها الجوي تعرضه للمطامع والعدوان .

يا سلاح العصر بشرنا به كل عصر بكمي وسلاح
إن عزا لم يظال في غد بجناحيك ذليل مستباح
فتكاثر وتآلف فيلقا تعصم السلم وتعلوا الكفاح
مصر للطير جميعاً مسرح ما لنا فيه ذنابي أو جناح
لم لا يفتن فتيان الحمى ذلك الإقدام أو ذاك الطماح
من فتى حل من الجو بهم فتلقوه على هام وراح
إنه أول عصفور لهم هز في الجو جناحيه وصاح

وكثيراً ما كان يمزج بين النصح والتوجيه والأمل الذي يزجيه .
والفخار بالوطن وماضيه ، ليضاعف حماسة الشباب إلى الجد والعمل، ويزيده شغفا بوطنه العظيم الجدير بالعبادة .

يا فتية النيل السعيد خذوا المدى واستأنفوا نفس الجهاد مديدا
وتنكبوا العدوان واجتنبوا الأذى وقفوا بمصر الموقف المحمودا
الأرض أليق منزلا بجماعة يبغون أسباب السماء قعودا
أنتم غداً أهل الأمور وإنما كنا عليكم في الأمور وفودا
فابنوا على أسس الزمان وروحه ركن الحضارة باذخاً وشديدا
الهدم أجمل من بناية مصلح يبني على الأسس العتاق جديدا
وجه الكنانة ليس يغضب ربكم أن تجعلوه كوجهه معبودا
ولُّوا إليه في الدروس وجوهكم وإذا فرغتم واعبدوه هجودا

إن الذى قسم البــلاد حبــاكمُ   بلداً كأوطــان النجــوم مجيدا
قد كان — والدنيا لحودٌ كلها —   للعبقــرية والفنــون مهودا

وكان لا يقتصر على التوجيه وإسداء النصح ، بل يبشر أيضاً بمستقبل مشرق ، ويغرى الشباب بجهاد موصول مثمر .

أيها الجيل الذى نرجو لغــدْ   غــدُك العــز ودنيــاك الرَّغَدْ
أنت فى مَدْرجة السيل وقــد   ضلَّ مَنْ فى مَدْرج السيل رقد
قدتَ فى الحق فقــد فى مثله   من نواحى القَصْدِ اوسُبْل الرَّشَد
إن تابَ اليــوم لقــاء قائدا   كم لــواءٍ لك بالأمس انعقــد

— ٦ —

ولقد كان يؤسف شوقى أن المغرضين من رجال السياسة كانوا يبثون بين الشباب عوامل الفرقة والمنافسة المنحرفة والانقطاع المحيط للنجاح ، فحذر الشباب من الاغترار بهؤلاء المفسدين ، واستنكر من الأحزاب المتصارعة أن تجر الشباب إلى مهاوى صراعها .

وكان لبقاً فى نصحه للشباب أن يسلكوا طريقاً غير هذا الذي سلكه آباؤهم ، وفى تهوينه من الجاه الذى نالوه ، والمال الذى جمعوه ، لأنه عارية لا بد أن يتخلوا عنها ، ولن يبقى غيرُ الذكر الحميد والعمل النافع للوطن .

لا يعجبنكم ساعٍ بتفــرقة   إن المقَصّ خفيفٌ حين تمتطع
قد أشهدوكم من الماضى وما نبشت   منه الضغائنُ ما لم تشهد الضبُع
ما للشبــاب وللمــاصى نمر بهم   فيه على الجيف الأحزاب والشيع
لا يمنعنكمُ بِرُّ الأبــوة أن   يكون صنعكمُ غيرَ الذى صنعوا
لا يعجبنكم الجاه الذى بلغــوا   من الولاية والمالُ الذى جمعوا
ما الجاه والمال فى الدنيا وإن حَسُنا   إلاَّ عوارىُّ حظ ثم تُسْترجع

ولم يكتف شوقي بالنصح الموجه إلى الحق والخير ، وتسديد الشباب إلى أن ينهض بنفسه وبأمته، بل قرع الشباب على تقصيره حيث يستحق التقريع ، وأنبه على أفعاله حيث ينبغي التأنيب ، وهذا هو مسلك المربي الحازم .

لهذا جاء في مناجاته للشمس أن تقص على الشباب المعاصر تاريخ الفراعنة في زهو ومبالغة ، لأن هؤلاء الشباب مولعون بالمبالغات من ناحية ، وضعاف العزمات والآمال من ناحية ثانية ، حتى إنهم لا يعملون عملا يبشر بالخير .

فغالي في بنيك الصيد غالي ... فقد صبّ الغلو إلى بنينا
شباب قُنَّع لا خير فيهم ... وبورك في الشباب الطامحينا

ولما أطلق الرصاص على سعد زغلول شاب أحمق، حزن شوقي ، لأن الشباب انحدر إلى درك من الطيش والتهور والاغتيال، وهم لا يدركون رخامة ما يرتكبون من جرم ، ولا يعلمون شيئاً ، مما يعلمه، الساسة المحنكون ، وجهر بأن حياة الوطن لا تشاد على اغتيال الزعماء الأبرياء ، ولا على تداول الأحزاب مقاعد الحكم ، بل إنها تشاد على دعائم من القوة الحربية والعلم والخلق القويم .

وعزا شوقي هذه الرعونة إلى الجهل وقصر النظر وقلة الخبرة وسوء الأخلاق، وأنحى باللائمة على المدارس والمعلمين ، لأنهم المسئولون عن أخلاق الشباب ، وهو بهذا يلقي عليهم التبعة التي لم يلق مثلها على الآباء .

أرى مصر يلهو بحد السلا ... ح ويلعب بالنار ولدانها
وراح بغير مجال العقو ... ل يجيل السياسة غلمانها
وما القتل تحيا عليه البلا ... د ولا همة القول عمرانها
ولا الحكم أن تنقضي دولة ... وتقبل أخرى وأعوانها

ولكن على الجيش تقوى البلا ... د وبالعلم تشتد أركانها
فأين النبوغ وأين العلو ... م وأين الفنون وإتقانها ؟
وأين من الخُلْق حظ البلا ... د إذا قتّل الشّيبَ شبانها ؟
وأين من الربح قسط الرجا ... ل إذا كان فى الخُلْق خسرانها ؟
وأين المعلم ما خطبه ؟ ... وأين المدارس ما شأنها ؟
لقد عبثت بالنّياق الحُدا ... ةُ ونام عن الإبْل رُعْيانها
إلى الخُلْق أنظر فيما أقو ... ل وتأخذ نفسى أشجانها

ولما كثرت أحداث انتحار الطلبة لرسوبهم فى الامتحانات اختصهم شوقى بقصيدة من عيون شعره ، ختمها بتبغيض اليأس إلى نفوسهم ، وتبصيرهم بجرائر الانتحار على وطنهم ، ثم فتح أمامهم أبواب الآمال ، وضرب لهم الأمثال ، ووجههم إلى ما يجب عليهم أن يمارسوه ويتعلقوا به ،وعاد فنفرهم من الانتحار بأنه جريمة تغضب الله وتغضب الناس ، وأرشدهم إلى أن الانتحار ليس شجاعة لأنه جبن عن مناضلة الصعاب ، وإنما تتحقق الشجاعة فى ميدان الجهاد للدفاع عن الوطن حيث الفخار والثواب .

من هذه القصيدة قوله..

نشأ الخيرِ ، رويدا ، قتلكم ... فى الصبا النفسَ ضلال وخُسُرْ
لو عصيتم كاذب اليأس فما ... فى صباها ينحر النفسَ الضّجِرْ
فيم تخفون على آبائكم ... ألم الشكل شديدا فى الكِبَرْ
فيم تجنون على آبائكم ... بين إشفاق عليكم وحذر
فمصاب الملك فى شبانه ... كمصاب الأرض فى الزرع النَّضِرْ
ليس يدرى أحد منكم بما ... كان يُعْطَى لو تأنّى وانتظر
رب طفلٍ بَرّح البؤسُ به ... مُمْطِرٍ الخير فتياً ومَطَر
وصبى أزرت الدنيا به ... شبَّ بين العز فيها والخطر

ورفيع لم يسوده أبٌ ... من أبو الشمس ومن جَدُّ القمر؟
فلكٌ جارٍ ودنيا لم يَدُمْ ... عندها السعد ولا النحس استمر
قاتلُ النفس ولو كانت له ... أسخط الله ولم يُرْضِ البشر
ساحة العيش إلى الله الذى ... جعل الوِرْدَ بإذنٍ والصَّدَر
لا تموت النفس إلا باسمه ... قام بالموت عليها وقهر
إنما يسمح بالروح الفتى ... ساعة الروع إذا الجمع اشتجر
فهناك الأجر والفخر معا ... من يعش يُحْمَدْ ومن مات أجِرْ

هذه لمحة إلى حفاوة شوقى بالشباب وإعزازه وتوجيهه إلى الحق والخير والمجد والعلاء .

وهكذا كان شوقى حفيا بالشباب ، حدبا عليه ، حريصا على توجيهه وتسديده ، مبشرًا له ومستبشرًا به ، مخلصا فيما قال وفيما دعا إليه .

القوة الحربية في شعر شوقي

القوة الحربية فى شعر شوقى

كان شوقى — كما وصف نفسه صادقاً — شاعر مصر ، الهاتف بمجدها ، الأسيف لضعفها ، المبشر بمستقبلها العظيم المشرق :

وإنى لغريد هذى البطاح   تغذى جناها وسلسالها
ترى مصر كعبة أشعاره   وكل معلقة قالها
أدار النسيب إلى حبها   وولى المدائح إجلالها
أرق بغابرها العبقرى   وغنى بمقبل البكا حالها
ويروى الوقائع فى شعره   يروض على الناس أطفالها
وما لحوا بعد ماء السيوف   فما ضر لو لحوا آلها ؟

وقد تمثلت فى تصويره للقوة الحربية ثلاثة ظواهر .

— ١ —

أما الظاهرة الأولى : فهى إشادته بماضينا القوى ، فرعونياً وعربياً ، كقوله فى تمجيد رمسيس الثانى .

وسما للعلا فنال مكانا   لم ينله الأمثال والنظراء
وجيوش ينهضن بالأرض ماأكا   ولواء من تحته الأحياء

وتصويره موكب فرعون وقد عاد من الحرب مظفراً ، بأنه موكب جليل رهيب حافل منسق ، يشرق فيه فرعون بين الصفوف والكتائب والقنا كالشمس تسفر فى ركام السحب ، فتخشع الأبصار لرؤيته ، وبصره خاشع

للشمس أصله وإلهته، وفى لَحَقٍّ من ركبه ملوك أسرى أذلة ، هم ملك يمينه، إن شاء أعتقهم ، وإن شاء قتلهم .

كم موكب تتخايل الدنيــا به يُجْلَى كما تُجْلَى الهموم ويُنْسَق
فرعون فيه من الكتائب مقبــل كالسحب قرنُ الشمس منها مُفْتق
تعنو لعــزته الوجــوه ووجْهُهُ للشمس فى الآفاق عان مطــرق
آبت من السفر البعيد جنـــوده وأتته بالفتح السعيد الفيــلق
ومشى الملوك مصفّدين ، خدودهم نعــلٌ لفــرعون العظيم ونُمْرَق
مملوكة أعنــاقهم ليمينه يأبى فيضرب أو يَمُنّ فيُعْتَق

وكثيراً ما أشاد شوقى بالقوة الحربية فى الإسلام ،لأن الحرب ما دامت لحماية الدين والوطن أساسٌ فى النظام البشرى القائم على الصراع ، وسلاح لا غنى عنه للحق ، ليحتمى به و يتقوى ، كقوله فى مناجاة النبى :

علمتهم كل شىء يجهــلون به حتى القتــال وما فيه من الذمم
دعــوتهم لجهــاد فيــه سؤددهم والحرب أسٌّ نظام الكون والأمم

وقوله :

الحرب فى حــق لديك شريعة ومن السموم الناقعــات دواء

وقوله :

الحق عــرض الله كلُّ أبيــة بين النفوس حمًى له ووقــاء

وكثيراً ما نوه بالمسلمين المظفرين ، وفاخر بهم ، وحث على الاقتداء بآثارهم .

— ٢ —

وأما الظاهرة الثانية فهى حزن شوقى من ضعف مصر الذى تردت فيه بعد الاحتلال البريطانى ، إذ تسلط الإنجليز على الجيش ، واستأثروا برتبة العالية ، على حين أن أبناء مصر مبعدون عنها ، محرومون أن يؤملوا فيها ، محترقون بالأسى من مهانة مصر ومهانتهم .

يقول للورد كرومر :

أم هل يَعُدُّ لك الإضاعة منّةً ... جيش كجيش الهنديات ذليلا ؟
انظر إلى فتيانه ما شأنهم ... أو ليس شأنا فى الجيوش ضئيلا ؟
حرّمتهم أن يبلغوا رتب العلا ... ورفعت قومك فوقهم تفضيلا
فإذا تطلعت الجيوش وأمّلت ... مستقبلا لم يملكوا التأميلا

وليس ينسى أن يذكّر كرومر بأن الجيش المصرى الباسل هو الذى احتمل الأعباء الجسام فى استعادة السودان ، وأن الجيش الإنجليزى كان على هامش الفتح ، ثم كان جزاء مصر وجيشها أن ادعت بريطانيا اشتراكهما فى فتح السودان ، وأن أهملت الجيش المصرى عامدة ، وأضعفته متعمدة :

من بعد ما زفوا لإدورد العلا ... فتحا عريضاً فى البلاد طويلا

ويناجى شوقى توت عنخ آمون فيسأله : أجزعت على مصر القوية حين بدا لك حماها مستباحاً ، لا سلاح يحميه ، ولا حصون تقيه ؟ أجزعت لما رأيت أرضها بغير جيش ، وبحرها بغير سفين ؟ ، إننى أعلم أنك حزنت ، وأنك أعرضت عن النظر إلى وطنك المستضعف :

قل لى : أحين بدا الثرى ... لك هل جزعت على العرين ؟
آنست ملكاً ليس بالشا ... كى السلاح ولا الحصين
البر مغلوب القنا ... والبحر مغلوب السفين

لمـا نظـرتَ إلى الديـا ر صـدفتَ بالقـلب الحزين

ثم يناجيه مرة أخرى ، فيتخيله قد بعث ،واجتاز أربعين قرناً ، حتى بلغ العصر الحاضر ، فوجد إنجلترا قد اغتصبت السودان تبنى به سدودا ، واحتلت قناة السويس ، ورفعت بها علمها ، فحزن أيما حزن ، وسخط على رحلته هذه ، وود أنها لم تكن ، وأن جدار قبره لم ينشق عنه ، وأن عينه لم تتفتح :

سافر أربعين قرناً عدا | حتى أتى الدار فألفى عندها
إنجلترا وجيشها ولوردها | مساولة الهندى تحمى هندها
قامت على السودان تبنى سدها | وركزت دون القناة بندها
فقال والحسرة ما أشدها | ليت جدارا القبر ما تدهدها
وليت عينى لم تفارق رقدها | قم نبئى يا بنتأور ما دهى

ويهمه فى قصيدة ثالثة ، حينما صدت مصر عن مؤتمر لوزان بعد الحرب الكبرى الأولى ، استهانة بها ، لأن صوتها لا يرهب ، وجيشها لا يرعب ، ولو أنها كانت ذات عدة وعديد لخطبت الدول ودها وتطامنت لها ، وحسبها من الخزى أن كرزون وزير إنجلترا ومندوبها فى المؤتمر يمثل مصر على أنها مستعمرة إنجليزية ، أو أمة قاصرة وإنجلترا هى الوصية :

أتعلم أنهم صلفوا وتاهوا | وصدوا الباب عنا موصدينا؟
ولو كنا بجسر هناك سينا | وجدنا عندهم عطفاً ولينا
سيقضى كرزن بالأمر عنا | وحاجات الكنانة ما قضينا

وأسف شوقى ، لأن جو مصر الضاحى أكثر الجواء ملاءمة للطيران ، وطائرات الأمم تئز فيه ، وليس لمصر طائرة :

مصنر للطير جميعا مسرح | مالنا فيه ذنابى أو جناح

رب سرب قاطع مر به   هبط الأرض مليّاً واستراح

وإذا كانت إنجلترا تعوق نهضة جيشنا زاعمة أنه خطر على طريقها إلى إلى الهند ، فهل يا ترى تعوقنا عن الطيران فى جونا ، بدعوى أنه أيضاً طريقها إلى الهند ؟ :

وبث الشباب شكواه من ضعف مصر الحربى فى عصر يدين بالقوة :

السبر ليس لكم فى طوله لجم   والبحر ليس لكم فى عرضه شُرُع

— ٣ —

أما الظاهرة الثالثة : فهى الحض المنكرر على التسلح :

وإذا كان شوقى قد دعا إلى السلام ، وحببه إلى الأنام ، فإنه كان يريده الوسيلة إلى الحياة الحرة الأبية ، لكن دراسته التاريخية ، وبيئته السياسية ، وأحداث عصره التى شهدها ، أوحت إليه أن الأمة لا حياة لها فى هذا العالم المستأسد إلا إذا درعت بالجيش ، فلا عجب فى أن نجد شوقى القوة الحربية برية وبحرية وجوية .

ولا عجب فى أن أكثر من دعوة الأمة إلى أن تتسلح

بل العجب لو أنه تغافل ، أو لبس مسوح النساك ، فزين السلم والدعة لمصر ، لتقابل الإساءة بالإحسان ، والعدوان بالصفح والغفران .

وقد صور تمجيده للقوة فى حوار تخيله بينه وبين ابنته ، إذ جاءته تطلب لعبة لها ، فقال لها أنت محبة للسلم ، مبغضة للحرب ، ولكن الدعوة إلى السلم قد أخفقت منذ زمن بعيد ، لأن الناس كالوحوش تفترس من لا سلاح يحميه .

ثم قدم لها بندقية تحتمى بها ، وربما أن تستبدل بها أكبر منها إذا ما كبرت وبين لها أن البندقية تكفل لها الحياة الحرة والسعادة والسلام ، فنظرت إليه ابنته نظرة تدل على عجبها من نزعته هذه ، لأنها تعلم أنه يحب للسلام ، وأن يدين بأن السلام أليق بالإناث .

فقال لها لقد ضللت الحق لأنك صغيرة ، إن السلام وهم وخيال ، فلو تمثل الرسل جميعاً فى رسول واحد ، وتمثلت الكتب السماوية كلها فى كتاب واحد ، واجتمع الناس من قدماء ومتأخرين ، ووقف بينهم هذا الرسول خطيبا داعياً إلى السلام مرغباً فيه ، لا نصرفوا عنه جميعاً ، فلم يسمعوا ، لأنهم صم عن الدعوى إلى السلام ، عمى عمن يدعوهم إليه ، جاحدون لآثاره كلها :

ولى طفلة جازت السنتين … كبعض الملائك أو أطهر
أتتنى تسألنى لعبة … لتكسرها ضمن ما تكسر
فقلت لها : أيهذا الملاك … تحب السلام ولا أنكر
ولكنّ قبلك خاب المسيح … وباء بمنشوره القيصر
فلا ترج سلما من العالمين … فإن السباع كما تفطر
من يعدم الظفر بين الذئاب … فإن الذئاب به تظفر
فإن شئت تحيا حياة الكبار … يؤملك الكل أو يحذر
فخذ هاك بندقة نارها … سلام عليك إذا تُسعر
ففيها الحياة لمن حازها … وفيها السعادة والمفخر
فيها السلام الوطيد البناء … لمن آثر السلم أو يؤثر
فلو جيء بالرسل فى واحد … وبالكتب فى صفحة تنشر
وبالأولين وما قدّموا … وبالآخرين وما أخروا
لينهض منا بينهم خاطباً … على العرش نُصّ له منبر
يقول . السلام يحب السلام … ويأجركم عنه ما يأجر
لصُمّ العباد فلم يسمعوا … وكُفّ العباد فلم يبصروا

لهذا احتفى شوقى بالقوة الحربية ، ورأى أنها حصن الدولة ومظهرها ، وأنها الوسيلة الناجحة فى تحقيق الآمال ، لأن الأمم لا تُقدّر الحق الذى لا تؤازره قوة ، ولأن الحقوق لا تنال بالخطب الطوال التى لا ترجّع رنّتها مدافع

قوية . .

فقل لبنان يقول ركن مملكة على الكتائب يُبْنَى الملكُ لا الكتُب
لا تلتمس غَلَبا للحق فى أمم الحق عندهم معنى من الغَلَب
لا خير فى منبر حتى يكون له عود من السُّمر أو عود من القُضب

ويقول :

وما السيف إلا آية الملك فى الورى ولا الأمر إلا للذى يتغلب
تنام خطوب الملك إن بات ساهرا وإن هو نام استيقظت تتألب
ومن شرف الأوطان ألا يفوتها حسامٌ معزٌ أو يراع مهذَّب
وما الملك إلا الجيش شأنا ومظهرا ولا الجيش إلا ربه حين ينسب

ويكرر هذا المعنى فى كثير من قصائده ، كقوله :

الملك والدولات ما يبنى القنا والعلمُ لا ما ترفع الأحلام
والحق ليس وإن علا بمؤيد حتى يُحَوَّط جانبيه حسام
خط النبى براحتيه خندقا ومشى يحيط به قنا وسهام

وكان ينتهز المناسبات للإشادة بالقوة وتمجيدها ، فقد أشاد به فى حديثه عن النحل ، فالذى يؤسس ملكاً أو يصون عرشاً فالسلاح عدته ، ولا ملك فى ظلال الأعلام المنشورة والسيوف المشهورة ، لأن الملك عرين لا بد له من أسد يحميه بمخالبه القوية الحداد ، وأنيابه الزرق الفواتك .

من يبن ملكا أو يذد فبالقنا المجرره
ما الملك إلا فى ذرا الألوية المنشره
عرينه قد كان لا يحميه إلا قسوره
رب النيوب الزرق وا لمخالب المذكره

على أن شوقى لم يكتف بالإشادة ، بل كثيراً ما دعا مصر إلى أن تتسلح .

من ذلك أنه حض الشباب على أن يتجهوا إلى تقوية الجيش إذا ما آل إليهم الحكم .

قل للشباب بمصرَّ . عصركم بطل بكل غاية إقدام له ولع
ماذا تُعدون بعد البرلمان له إذا خياركم بالدولة اضطلعوا
البرليس لكم فى طوله لجم والبحر ليس لكم فى عرضه شرع

وإذْ كان الطيران السلاح الذى أعدته الدول للنصر ، فقد سماه شوقى سلاح العصر ، وتكهن بأن الأمة التى لا تتقى نيران أعدائها بأجنحة من طائراتها مصيرها الهزيمة والمذلة ، وقد تحقق ما تكهن به . وود أن تستكثر مصر منه لتعتصم به سلاحها ، وتستعصم به فى كفاحها ، وعجب من شباب مصر الذين لا يستهويهم الطموح إلى أن يطيروا كما طار صدقى فتكرمهم مصر كما كرمته .

يا سلاح العصر بُشِّرنا به كل عصر بكمى وسلاح
إن عزاً لم يظلل فى غد بجناحيك ذليل مستباح
فتكاثر وتألف فيلقاً نعصم السلم وتحبو للكفاح .
لم لا يفتن فتيان الحمى ذلك الإقدام أو ذاك الطماح
مس فتى حل من الجو بهم فتلقوه على هام وراح

كذلك حض شوقى على القوة البحرية فى قوله :

يا معشر الإسلام فى أسطولكم عزٌّ لكم ووقاية وسلام
جودوا عليه بمالكم واقضوا له ما توجب الأعلاق والأرحام
سيل الممالك جارف من شدة وقُوًى وأنتم فى الطريق نيام
حب للسيادة فى شمائل دينكم والجدُّ روح منه والإقدام

و بعد .

فليت شوقى بيننا ، ليشهد مصر الثائرة وقد حققت ما أراده لها من قوى

مرهوبة فى البر والبحر والجو ، تصون استقلالها ، وتطهر أرض العرب من الدخلاء ، وتسابق الأمم القوية فى التسلح بأحدث سلاح .

ليت الزمن امتد بشوقى ليشهد قوة مصر وانتصارها ، فيعتز كما نعتز ، ويتيه كما نتيه ، ويتناسى آلام الماضى فى نشوة الحاضر العظيم الوضاء .

ولو أن شوقى يعيش فى مصر الثائرة كما نعيش لما قال :

تـرى مصر كعبـة أشعاره   وكل معلقـة قالهـا
أرق بغـابـرها العبقـرى   وغـنى بمثل البـكا حالها

بل لقال :

أرق بحاضرهـا العبقرى   وغـنى لركب العـلا حالها

دعائم الأسرة السعيدة فى شعر شوقى

دعائم الاسرة السعيدة
فى شعر شوقى

الأسرة وحدة المجتمع ، وأساسه الأول، وهى قديمة قدم الإنسانية ، فإن آدم أبا البشر ما كان ليطيق الإقامة فى الجنة وحيدا ، فخلق الله تعالى حواء ، لتقاسمه النعيم ، وهنالك عاشا سعيدين إلى أن أضلهما الشيطان ، فهبطا إلى الأرض ، فقاسيا مُرَّ الحياة معاً ، كما ذاقا حلوها من قبل معا .

وقوام كل أسرة زوج وزوجة ، يمتزجان ويندمجان فيكونان الأساس الأصيل الكامل ، لأن الخالق سبحانه وتعالى نقص من الرجل ما تكمله المرأة ، وانتقص من المرأة ما يكمله الرجل ، ليتآلفا ويترابطا ويقبلا على الحياة ، وتهش لهما الحياة ، فهما كالنغم الموسيقى يكمل فيه العود ما يعوز الكمان ، أو هما كطاقة الزهر ، جمالها فى تعدد الأشكال والألوان .

وللأسرة مقومات تكفل بقاءها نماءها وسعادتها ، وقد عرض شوقى لبعض هذه المقومات فى شعره وفى نثره ، وأشاد بها فى مناسبات شتى ، ولكن على طريقة الشاعر الذى يكتفى باللمح والإشارة والإثارة، ولا يجنح إلى تفصيل وتدليل وتعليل .

— ١ —

ولا شك أن الأمومة الصالحة أول دعامة فى صرح الأسرة السعيدة، فكان من حقهـــا أن يختصها شوقى بتنويهه وعنايته ، فقـــال إنها « رسالة المرأة على هذه الأرض ، وشأنها الأول فى الحياة ، وهى حجر الأساس فى الأسرة ، وقواعدُ المجتمع وأركانه منذ قام إلى يوم ينفضّ ، فى الأمومة اجتمعت خلال

البر ، وتبعات واجب ، وصور البطولة ، وفضائل الإيثار ، ومواطن الصبر الجميل ، وكأن الأمومة فى البيت الملكة فى الخلية أو العذراء فى البيعة .

جمال الأمومة لمحة من جمال الحياة ، وشعاع من عبقريتها ، وهو أحفل أياما ، وأطول مقاما ، وأصدق أحلاما : وهل غير الأمومة تاج للمرأة تلبسه من مختلف الشعر ألواناً ؟ .

ولقد أولى شوقى الأم عنايته، لأنها المعين الذى يفيض بالأفراد والأسر والقبائل والجماعات ، فهى التربة الخصيبة التى تنبت الحب ، فإذا ما نضج حبها أنبت حباً آخر ، هى التى تمنح بنيها — بعد الله — حياتهم ، فهم فى بطنها أجنة يغتذون من دمها ، وهم بعد الوضع أطفالا يرتضعون من لبنها ، ويتنعمون برعايتها وحبها ، ويتشكلون إلى حد كبير بأخلاقها وتربيتها ، ثم هم فتياناً وشبانا معقد أملها ، وهى نجى نفوسهم ، وملاذ الحائن منهم ، وقسيمة الفرح المحبور ، فإذا ما كبروا فهم حماتها وفخارها ، وهم ذكوراً وإناثا حياتها المتجددة ، وثمراتها الواعدة : لهذا مجدها بقوله .

لولا التقى لقلتُ لم يَخْلُقْ سواكِ الولدا

ولم ينس شوقى أن يصف هذه المرأة الجديدة بالأمومة بأن تكون على قسط من العلم ، لتحسن عشرة زوجها ، وتجيد تربية أبنائها ، فقال فى تصوير أثرها فى ابنها :

إن شئتِ كان العَيْرَ أو إن شئت كان الأسدا(١)
وإن تُرِدْ غَيّا غَوَى أو تَبْغِ رُشْدا رَشَدا
والبيتُ أنتِ الصوتُ فيـ ـه وهو للصوت صَدى
كالببّغا في قفص قيل له فقلّدا

(١) العير : الحمار .

وكالقضيب اللدن قد طاوع في الشكل اليدا
يأخذ ما عودته والمرء ما تعودا

فلا عجب أن كان الوطن أشد حاجة إلى الأمهات الصالحات من حاجته إلى الجيوش والحصون والقلاع :

قم ابن الأمهات على أساس ولا تبن الحصون ولا القلاعا
فهن يلدن للقصب المذاكي وهن يلدن للغاب السباعا
وجدت معاني الأخلاق شتى جمعن فكن في اللفظ الرضاعا

ومد شوقي بصره فوجد جهل الأمهات من أسباب ما يعاني الوطن من ضعف خلقي ، وتخلف علمي ، وتأخر مادي ومعنوي ، فرثى لحال الوطن ، وأشفق على القائمين بشئون التعليم حينما كان جهل الأمهات فاشياً ، لأنهم وحدهم ينهضون بأعباء التعليم ، ولا يجدون عوناً من الأمهات ، فالذي تبنيه المدرسة يهدمه البيت الجاهل ، قال شوقي .

إني لأعذركم وأحسب عبأكم من بين أعباء الرجال ثقيلا
وجد المساعد غيركم وحرمتم في مصر عون الأمهات جليلا
وإذا النساء نشأن في أمية رضع الرجال جهالة وخمولا

فلم يكن بد لشوقي من الدفاع عن حق الفتاة في أن تتعلم ، ومن الدعوة إلى تثقيفها ، ومن ضرب الأمثال بنساء مسلمات اشتهرن بالعلم وشاركن في الحياة العامة في صدر الإسلام وفي عصوره الزاهرة ، فقال .

هذا رسول الله لم ينقص حقوق المؤمنات
العلم كان شريعة لنسائه المتفقهات
رضن التجارة والسيا سة والشئون الأخريات
ولقد علمت بناته لجج العلوم الزاخرات
كانت سكينة تملأ الد نيا وتهزأ بالرواة

روت الحديثَ وفسَّرتْ أى الكتاب البينات
وحضارة الإسلام تَنْطق عن مكان المسلمات
بغداد دار العالمات ومنزل المتأدبات
ودمشق تحت أمية أم الجوارى النابغات
ورياض أندلس نَمَيْنَ الهاتفات الشاعرات

ولم يكن زمن شوقى قد أتاح للفتاة أن تتخرج فى الجامعة، فود لو أن فى مصر جامعة خاصة بالفتيات، يتزودون فيها بما ينفعهن من علوم وآداب وثقافة، قال فى رثاء الأميرة فاطمة إسماعيل سنة ١٩٢٠، وكانت قد تبرعت بمال كثير لإنشاء جامعة القاهرة.

من ذا يُؤَدِّى هذه الـ جامعة المستَعْبَرَة(١)
لو عشتِ شدتِ مثلها للمرأة المحرَّرَة

فلما كثرت المتعلمات، وجعلن يساهمن فى الحياة العامة بالقدر الذى يليق بهن، طرب شوقى، وأشاد بحفلة من حفلاتهن التى تعودن أن يقمنها فى كل عام مرة للأعمال الخيرية، وللإنفاق على الأسر البائسة التى تستحى من الاستجداء، فقال:

يمشين فى سوق الثوا ب مساومات رابحات
يلبسن ذلَّ السائلا ت وما ذكرن البائسات
فوجوههن وماؤها ستْرٌ على المتجملات

واستشرف فى هذا العمل وأشباهه نهضة تبشر بخير كثير، لأن النسوة الجاهلات متحجرات يشبهن الموتى المحنطة.

مصر تجدد مجدها بنسائها المتجددات

(١) المستعبرة : الباكية .

النافرات مس الجمود كأنه شبح الممات
هل بينهن جسوا مدا فرق وبين المومياءات ؟

— ٢ —

على أن شوقى لم يغفل عن عامل من عوامل السعادة الأسرية وهو التناسب بين سن الزوج والزوجة ، فقد هاله أن بعض الأثرياء الطاعنين فى السن تهالكوا على الزواج بفتيات فى أعمار أحفادهم ، فأنحى باللوم على هذا الزواج ، وحذر من العواقب الوخيمة التى لا بد أن يتمخض عنها ، فقال :

بعضُ الزواج مُذَمَّمٌ ما بالزنا والرق إن قيسا به من عار
فتشتُ لم أر فى الزواج كفاءة ككفاءة الأزواج فى الأعمار

— ٣ —

والأخلاق الكريمة التى تتحلى بها الأمهات والفتيات عامة راسخة فى سعادة الأسرة ، لأن الجمال الرفيع فى رأى شوقى ليس جمال الأجسام والحلى والملابس والأصباغ ، بل هو دماثة الطبع ، وطهارة النفس ، وسلامة العرض ، وصيانة الشرف ، يقول : « يا أيتها الفتاة المدلّةُ بصباها المزهوّة بحسنها ، المترقبة من ورائهما لذة الحب وفيض السعادة ، اذكرى أن الجمال حر طليق إلا من قيدين كلاهما أجمل منه : الشرف والعفاف ، فإذا انسلّ منهما عثر فى خطاه الأولى ، وذوى فى إبان النضرة » .

لهذا نصح النساء أن يترفقن فى مطاليهن العامة ، وأن يعتدلن فى أعمالهن ، ويعتصمن بكتاب الله وسنة رسوله فقال :

هـذا مقـام الأمهـا ت . فهل قدرت الأمهات ؟
اذكر لهـا اليـابان لا أم الهـوى . المتهتكات
مـاذا لقيت مـن الحضـا رة . يـا أخى التـرهـات ؟
لم تلق غـير الـرق مـن عسـر على الشرق عات
خـذ بالكتـاب وبالحـديـ ث وسـيرة السـلف الثقـاة

وبين أن الخلق القويم حصن للمرأة وسياج ، يضطر من يراها إلى إجلالها ، فكأنها وهي سافر مريم البتول والناظر إليها راهب طاهر القلب :

فقـل للجـانحين إلى حجـاب أتحجب عن صنيع الله نفس
ذا لم يستر الأدب الغـوانى فلا يغنى الحـرير ولا الدمقس
تأمـل هـل ترى إلا جـلالا تحس النفس منـه ما تحس
كأن الخـود مـريم فى سفور ورائيهـا حـوارى وقس
تهيبهـا الرجـال فلا ضمير يهم بهـا ولا عين تحس

— ٤ —

ولا بد لسعادة الأسرة من حب متبادل يصل ما بين أفرادها جميعاً من آباء وأمهات وبنين وبنات .

ولقد برع شوقى فى تصوير المحبة التى كانت بينه وبين أبيه، فجعلها صداقة عالية حارة حلوة ربطتهما معاً فصارا شخصاً واحداً ، قال فى رثائه :

مـا أبى إلا أخ فارقتـه وده الصـدق وود الناس مين
طالمـا قمنـا إلى مـائدة كانت الكسـرة فيها كسرتين
وشـربنا مـن إناء واحـد وغسلنـا بعد ذا فيـه اليدين

وكان حفياً بابنته أمينة ، وطالما داعبها بشعره ، كقوله :

أمينتي في عامها الـ أول مثل الملك
صالحة للحب من كل وللتبرك
كم خفق القلب لها عند البكاء والضحك
وكم رعتها العين في السـ ـكون والتحرك
فإن مشت فخاطرى يسبقها كالممسك
ألحظها كأنها من بصرى في شرك

وكثيراً ما مجد شوقى الأنوثة والإناث ، وصور البنات كنوز رحمة وذخائر نعمة ، ونصح الآباء أن يستبشروا بهن ، ويغدقوا من حبهم وعطفهم عليهن ، لأنهن اللائى يسهرن على آبائهم إذا ما كبروا أو مرضوا ولأنهن الوفيات لهم الباكيات عليهم إذا ما ودعوا الحياة :

إن البنات ذخائر من رحمة وكنوز حب صادق ووفاء
والساهرات لعلة أو كبرة والصابرات لشدة وبلاء
والباكيات حين ينقطع البكا والزائرات في العراء النائى
والذاكرات ما حين تحدثاً بسوالف الحرمات والآلاء

وهو متأثر في هذا كله بما صدعت به الشريعة الغراء من تقديرها للأنوثة ، فالله سبحانه وتعالى يقول : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة » ، ويقول : « ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف » ، ويقول . « وعاشروهن بالمعروف » .

والنبى عليه الصلاة والسلام يضرب أرفع المثل فى إعزاز المرأة بأفعاله وأقواله ؛ وحسبنا قوله : أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقا وألطفهم بأهله .

وكان يصلى وهو يحمل على عاتقه أمامة بنت ابنته زينب ، فإذا سجد وضعها ، وإذا قام حملها .

ولطالما أوصى برعاية البنات والحدب عليهن :

— ٥ —

ومن الضرورى للسعادة الأسرية أن ينهض الآباء والأمهات برعاية أولادهم وأن يرشدوهم إلى الحق والخير ، وأن يبصروهم بما ينفعهم فى الحياة ، وأن يزودوهم بما عرفوا من تجارب .

هكذا رشد شوقى ابنه عليا فى قوله :

يا علىُّ إن أنت أوفيْـ ـتَ على سنِّ الفتوه
دافع الناسَ وزاحمْ وخذ العيش بقوه
لا تقل كان أبى إيـ ـاك أن تحذو حذْوه

وهكذا أرشد ابنته أمينة فى قوله :

فقلت لها أيهذا الملاك تحبُّ السلامَ ولا أنكرُ
ولكن قبلك خاب المسيح وباء بمنشوره القيصر
فلا ترجُ سلما من العالمين فإن السباع كما تُفْطَر
ومن يعْدَم الظفر بين الذئا ب فإن الذئاب به تظفر

وعلى الأبناء أن يطيعوا آباءهم وأمهاتهم ، لأنه لا هناءة لأسرة يتمرد فيها الأبناء على الوالدين ، ولا فلاح لأولاد يعقون من يؤثرونهم بالخير على أنفسهم ، وقد صور شوقى هذه الفكرة فى قصة خيالية ، فقال .

رأيت فى بعض الرياض قُبَّره تطيِّر ابنها بأعلى الشجره
وهى تقول . يا جمال العش لا تعتمد على الجناح الهشِّ
وقف على عود بجنب عودى وافعل كما أفعل فى الصعود
فانتقلت من فنن إلى فنن وجعلتْ لكل نقْلة زمن

كي يستريح الفرخ في الأثناء   فلا يَمَلّ ثقل الهواء
لكنه قد خالف لإشاره   لما أراد أن يظهر الشطاره
وطار في الفضاء حتى ارتفعا   فخانه جناحه فوقعا
فانكسرت في الحال ركبتاه   ولم ينل من العلا مناه

— ٦ —

وقد فطن شوقى إلى مسلك حميد يبلغ الأسرة مرفأ السلامة والأمان والهدوء والاستقرار ، وهو الاقتصار على زوجة واحدة ، ما لم تكن ثمة ضرورة أو حاجة لأن التعدد العابث داء وبيل يفصم عرى المودة ، ويشعل الضغينة بين الزوجتين وبين الإخوة غير الأشقاء ، ويوقد في البيت نار الغيرة والدس وسوء الظن والعداء .

ولهذا أحل الإسلام تعدد الزوجات ، وحدد أقصى حد بأربع ، وأوجب العدل بين الزوجات ، وحذر من الميل المجحف .

وللتعدد في الإسلام حكم وأهداف(١) ليس من بينها الخضوع للنزوات والأهواء ، والاستجابة للنزق والاستطراف ، والتنقل من زوجة إلى أخرى كما يتنقل الطائر من شجرة إلى شجرة .

لكن بعض الأثرياء وبخاصة الذين كانوا يصطافون في الآستانة جعلوا يتبارون في الزواج بفتيات تركيات ، ويتباهون بالمصاهرة إلى أسر تركية ، وكان من الطبيعي أن يجاريهم آخرون في تعدد الزوجات من فتيات ونساء غير تركيات ، ولم يبال هؤلاء ولا أولئك بما بين الزوج والزوجة من فارق كبير في السن ، ولم يمدوا أبصارهم إلى المستقبل القريب الذي يصاب فيه الزوجات

(١) راجع سماحة الاسلام للمؤلف .

الجديدات بالترمل ، ويتكب الأطفال بالتيتم ، وتمزق فيه روابط الإخوة أبناء العلات .

لهذا حمل شوقى على مثل ذلك التعدد ، و بغضه إلى أصحاب الاستطراف .

١ — فعده ظلماً للزوجات ، وأهاب بالكتاب أن يدفعوا هذا الظلم ، وسخر من ذوى اليسار الذين يضارون زوجاتهم — العفيفات الطيبات رفيقات أعمارهم ووالدات أبنائهم — بضرائر من فتيات تركيات ، وتهكم بكبار السن الذين يتصابون ، ويصبغون شعر رءوسهم ، ويتزوجون من بنات فى أسنان حفيداتهم ، ويشغلون بهن عن أسرهم ، وكان الأجدر بهم أن يشغلوا بالعبادة والتوبة .

ونقم شوقى من أمهات الفتيات التركيات اللائى خدعهن الثراء ، وأعماهن عن حسن الاختيار ، وباعد بينهن وبين حكمة الشريعة ، ووصف هذا الزواج بأنه بيع ورق وعار ، وختم نفثته بأن العماد الأول فى سعادة الحياة الزوجية هو تناسب الزوجين فى السن والميول والأفكار .

ولكن لماذا اختص شوقى الأمهات بنقمته ، ولم يذكر الآباء ؟ .

يبدو أن مقاليد الرضا والقبول كانت بأيدى الأمهات ، أو أن سلطانهن فى التزويج كان أقوى من سلطان الآباء ، وهن دائماً ألصق بالبنات من الآباء وأعلم بسرائرهن وأسرارهن وميولهن ، وأقدر على إقناعهن بالرضا أو الرفض .

ظلم الرجال نساءهم وتعسفوا ... هل للنساء بمصر من أنصار
يا معشر الكتاب أين بلاؤكم ... أين البيان وصائب الأفكار ؟
أيهمكم عبث وليس يهمكم ... بنيان أخلاق بغير جدار
عندى على ضيم الحرائر بينكم ... نبأ يثير ضمائر الأحرار
مما رأيت وما علمت مسافرا ... والعلم بعض فوائد الأسفار

فيه مجالٌ للكلام ومذهبٌ ... ليراع (باحثة) و(ست الدار) (١)؟
كثرتْ على دار السعادة زُمرةٌ ... من مصر أهلُ مزارع ويسار
يتزوجون على نساء تحتهم ... لا صاحبات بغىٍّ ولا بشرار (٢)
شاطرنهم نعمَ الصِّبا وسقينهم ... دهرا بكأس للسرور عُقار
الوالداتُ بنيهم وبناتهم ... الحافظاتُ العرضَ كالأسوار
الصابراتُ لضَرَّةٍ ومضَرَّةٍ ... المحييناتُ الليلَ بالأذكار
من كل ذى سبعين يكتمُ شيبَهُ ... والشيبُ فى فَوْدَيْه ضوء نهار (٣)
يأبى له فى الشيب غيرَ سفاهة ... قلبٌ صغير الهم والأوطار (٤)
ما حبّه عطفٌ ولا رفقٌ ولا ... برٌّ بأهلٍ أو هوًى لديار
كم ناهدٍ فى اللاعبات صغيرةٍ ... ألهته عن حَفَدٍ بمصر صغار (٥)
مهما غدا أرواح فى جَوْلاته ... دفعته خاطبةٌ إلى سمسار
شغلَ المشايخ بالمتاب وشُغْلُهُ ... بتبدل الأزواج والأصهار
فى كل عام همّه فى طَفْلة ... كالشمس إن خُطبت فللأقمار (٦)
يَرْشُو عليها الوالدين : ثلاثةٌ ... لم أدر أيهمُ الغليظ الضاري
المال حلّلَ كلَّ غيرِ مُحلَّلٍ ... حتى زواج الشِّيب بالأبكار
سحرَ القلوبُ فربَّ أمٍّ قلبها ... من سحره حَجَرٌ من الأحجار
دفعتْ بُنيّتَها لأشأم مضجع ... ورمتْ بها فى غربة وإسار
وتعللتْ بالشرع ، قلتُ كذبتِهِ ... ما كان شرع الله بالجزار

---

(١) باحثة البادية وست الدار : ملك حفنى ناصف وكانت تنشر مقالات تذيلها بهذا التوقيع أو ذاك . . .

(٢) البغى هو البغاء .

(٣) الفود : جانب الرأس الذى يلى الاذن .

(٤) الهم : الهمة . الأوطار : جمع وطر وهو الغاية.

(٥) الحفد : الحفدة .

(٦) الطفلة : الرخصة الناعمة .

ما زُوِّجَتْ تلك الفتاة وإنما — بيع الصبا والحسنُ بالدينار
بعض الزواج مُذَمَّمٌ، ما بالزنا — والرِّق، إن قيسا به من عار
فتشتتُ لم، أن فى الزواج كفاءة — ككفاءة الأزواج فى الأعمار(١)

ولقد بلغ من تقبيح شوقي لتعدد الزوجات أن عزا إليه انحلال الأسرة، وجعله من الأسباب التى أغرت بعض الطلبة بالانتحار :

قال فى انتحار الطلبة(٢) :

لامه الناسُ وما أظلمهم — وقليلٌ مَن تغاضى أو عَذَرْ
قال ناس : صَرْعةٌ من قَدَرٍ — وقديماً ظلم الناسُ القَدَر
ويقول الطب : بل مِن جِنَّةٍ — ورأيتُ العقل فى الناس نَدَر
ويقولون : جفاءٌ راعه — من أب أغلظَ قلباً من حجر
وامتحانٌ صَعَّبَتْهُ وَطْأةٌ — شدَّها فى العلم أستاذٌ نَكِر(٣)
لا أرى إلا نظاماً فاسداً — فكَّك العلم وأودى بالأسر
من ضحاياه ومنا أكثرها — ذلك الكارهُ فى غَضّ العُمُر
نزل العيشَ فلم ينزل سوى — شُعْبَةِ الهم وبَيْداء الفِكَر
ولقد تُنْهِكه نَهْلك الضنى — ضَرَّةٌ منظرها سُقْمٌ وضُرّ
ويلاقى نصباً مما انطوى — فى بنى العَلاَّت من ضغن وشرّ
إخوةٌ ما جمعتْهم رحمٌ — بعضهم يمشون للبعض الخَمَر(٤)
لم يَرُ فُرِفُ مَلَكُ الحب على — أبَوَيْهم أو يبارك فى الثمر
خلق الله من الحب الورى — وبنى الملك عليه وعَمَر

---

(١) الشوقيات ١/١٥٠ .
(٢) الشوقيات ١/١٤٥ .
(٣) نكر : داهية فطن .
(٤) المراد أن بعضهم يختل بعضا .

— ٧ —

ولقد كان شوقى حرباً على الطلاق الذى لا تلجىء إليه الضرورات ، وكان شديد الحملة على العابثين بالعلاقة الزوجية الذين يطلقون بطرا أو سفها أو شرها إلى التغيير ، وذكرهم بأن الطلاق هو الحلال البغيض إلى الله، ودعا منذ منذ زمن بعيد إلى تقييد الطلاق بأن يشرف عليه قضاة يحمون الأسرة من العابثين .

قال شوقى : « دواء ساء استعماله، فصار هو الداء، ودرع للتوقى عادت آلة اعتداء، حلال عليه بشاعة الحرام، وحق يتشرّه إليه اللئام، ويكْره عليه الكرام .

منع الله به الظلم رأفة بكم ورحمة، فما بالكم قلبتم الحكم ، وعكستم الحكمة ؟.

تختلقون الرّيب ، وتطلقون على غضب ، وتسرّحون بلا سبب .

أيها الناس إن كان الكتاب تسمّح ، فإن الحديث قد لمح ، هبوا أن الشارع أطلق الطلاق ، اتكالا على الدين والأخلاق، أليس الموقف موقف حذر ، والمسألة فيها نظر ؟ .

أولئك أمم النصرانية ، أصحاب الحضارة الحاضرة ، حرّم الطلاق دينُهم ثم حلّلته قوانينهم، ولكنْ بإشراف قضاة يحمون نظم الزواج من عبث الخاصة وجهالة العامة »(١) .

(١) أسواق الذهب ٩٠ .

نظرات في مراثي شوقي

نظرات فى مراثى شوقى

— ١ —

يحفل ديوان شوقى بقصائد الرثاء ، حتى أنها تبلغ السبعين ، نشر منها تسع وخمسون بالجزء الثالث من الشوقيات ، وبقى بعضها بالطبعة الأولى من الشوقيات سنة ١٨٩٨ ، وسأنشر بديوان شوقى إن شاء الله ما جدّ بعد ذلك .

ولا عجب فى وفرة مراثى شوقى وفرة لا نظير لها فى شعر أحد من شعراء العربية القدامى أو المحدثين ، لأن شوقى كان شاعر مصر وشاعر العروبة وشاعر الإسلام ، يعبر عن أفراح المصريين والعرب والمسلمين وعن أتراحهم ، فلم يكن بد من رثائه لعظمائهم وعزائه فى سادتهم وقادتهم .

ولو لم يفعل شوقى هذا لاتهم بالجحود والجمود والتبلد .

ثم أنه كان على صلات حميمة ببعض الذين رثاهم ، فجاء موتهم فجيعة له ، أحزنت قلبه حينا ، وأبكت عينيه دمعا سخينا ، فنفس عن نفسه بشعر عبر عن آلامه.

— ٢ —

ولقد جاءت مراثى شوقى على أربعة ضروب هى ضروب المراثى العربية منذ كانت إلى اليوم .

أولها التفجع والتوجع والبكاء والأنين ، إذا ما كانت الصلة الغلابة بين

الشاعر والمتوفى هى صلة المودة والمحبة والعلاقات الخاصة، كرثاء شوقى لوالده وجدته وصهره عبد الحليم العلايلى وصديقه حسين شيرين .

وثانيها الإشادة بمآثر الميت ، والتنويه بمناقبه ، إذا كان من الساسة الكبار ، أو المجاهدين الأحرار ، أو المناضلين لتحرير الوطن من أوهاق الاحتلال ، مثل رثاء شوقى لمحمد فريد وسعد زغلول وعبد الخالق ثروت وعبد العزيز جاويش وإسماعيل أباظة وعبد الحميد أبو هيف وأمين الرافعى وفوزى الغزى وعمر المختار .

كذلك إذا كان المرثى من زعماء الإصلاح ذوى الأصوات الجهيرة فى الدعوة إلى إنهاض الوطن علمياً واجتماعياً وحضارياً كما نجد فى رثاء شوقى للشيخ محمد عبده وقاسم أمين وعمر لطفى وعاطف بركات .

وكذلك إذا كان من الشعراء والكتاب والعلماء والفنانين ذوى الأصالة والصدق ، كرثائه لمحمد عبد المطلب وحافظ إبراهيم والمنفلوطى وجرجى زيدان ويعقوب صروف وسلامة حجازى .

أما الضرب الثالث فهو التعزية وتحبيب الصبر والرضا بقضاء الله وقدره إلى الشخص الذى فقد عزيزاً ، مثل عزاء شوقى للبارودى فى ابنته، وتعزيته للدكتور محمد حسين هيكل فى ابنه .

وأما الضرب الرابع فهو الحكمة المتصلة بخداع الحياة وأباطيلها ، مثل تعزيته لصديقه حامد خلوصى فى والده ورثائه للأميرة فاطمة إسماعيل .

لكن السمة البارزة فى مراثى شوقى هى التأبين ، وتمجيد السجايا والمآثر والمناقب ، والتنويه بالفعال الطيب ، والجهد النبيل ، والعمل النافع المثمر ، والثناء على ما خلف المرثى من جلائل الآثار .

ولقد يمزج بهذا الضرب فيضا من بكائه ودمعه ، إذا كانت له مودة

وصحبة ، كما نجد فى رثائه لسعد زغلول ولعبد الخالق ثروت وعلى أبو الفتوح ولمصطفى كامل .

— ٣ —

من عجب أن بعض خصوم شوقى حاولوا عبثاً أن يثلموا برجه الشامخ ، فوجهوا إلى شعره أباطيل شتى ، منها أنه أكثر الرثاء إكثاراً ينبىء عن تكلف وتملق ، كأنه موكل بتشييع كل من مات .

وتناسى أولئك الحاقدون أن شوقى كان يرثى بلسان مصر كلها ، فإذا كان الميت زعيما أو عظيما صور شوقى فجيعة الأمة ، وناب عنها نيابة لم يكن غيره أجدر بها منه .

ولقد صور هذه النيابة تصويراً رائعاً فى قوله :

رُبَّ جارٍ تلفتتْ مصر تُوليـ ـه سؤال الكريم عن جيرانه
بعثتنى معزِّيا بمآقى وطنى أو مهنئاً بلسانه
كان شعرى الغناء فى فرح الشر ق وكان العزاءَ فى أحزانه

ثم إنه كان صديقاً منذ عهد الشباب لبعض الذين رثاهم ، وظلت صلته بهم صافية ندية إلى أن فارقوا الحياة ، وقد جهر بهذا فى رثاء بعضهم ، كقوله فى رثاء مصطفى كامل :

يا أخا النفس فى الصِّبا لذة الروح فى الصغرْ
وجليلا ذخرتُهُ لم يقومْ بمدَّخَرْ
حال بينى وبينه فى فُجاءاته القَدَرْ
كيف أجزى مودة لم يَشُبْ صفْوها كدر
غمرُ دمعٍ أقولُهُ قلَّ فى الشأن أو كثُر
وفؤاد معلَّلٌ بالخيالات والذِّكَر

لم ينم عندك ساعة في الأحاديث والسَّيَرَ

وقوله في رثاء على أبو الفتوح مشيرًا إلى صداقتهما حينما كانا يطلبان العلم معا في جامعة مونبليه بفرنسا .

إنِّي التفتُ إلى الشبا ب الغابر المُتَمَثِّلِ
فرأيت أيامنا عجلَتْ ن وليتها لم تَعْجَلِ
كانت موطَّأة المهاد لنا عذاب المَنْهَل
ذهبت كحُلْمٍ بَيْنَدَ أنْ نَ الحلم لم يتأول
إذ نحن في ظل الشبا ب السوارف المتهدّل
جاران في دار النوى متقابلان بمنزل
أبكي وأبكاك ضاحكا ن على خمائل مُوتَبلي
والدرس يجمعني بأفضل طالب ومُحَصِّل
حتى تبدَّلْنا وذا ك العهد لم يَتَبَدَّل

ولما رثى سعد زغلول صور زعامته وصلابته ومقاومته الباسلة للاحتلال البريطاني ، وأشاد ببطولته التي تعالت على الوعيد والنفي والتشريد ، ونوه بافتنانه في الخطابة وبالتفاف الأمة من حوله ، ثم صور حزنه الخاص على سعد، لأنهما كانا صديقين في باريس وفي مصر ، وعاشت صداقتهما نقية قوية .

أين من عينَيّ نفسٌ حرةٌ كنت بالأمس بعينَيّ أراها ؟
كلما أقبلتُ هزَّتْ نفسَها وتراءَى بشْرُها بي ونَداها
وجرى الماضي فماذا ادَّكَرَتْ وادِّكارُ النفس شيءٌ من وفاها
لستُ أنسَى صفحةً ضاحكة تأخذ النفسَ وتَجْري في هواها
وحديثا كروايات الهَوَى جَدَّ للصب حنينٌ فرواها

كذلك كان صديقاً لعبد الخالق ثروت ، فقال في رثائه .

عطفتُ فيك إلى الماضي وراجعني ودٌّ من الصِّغر المعسول مُنْعَقِدُ

صافٍ على الدهر لم تُقْفِرْ خلايتُهُ   ولا تغيّرَ فى أبياتها الشُّهُد
حتى لتحسك مرموق الهلال على   حداثةٍ تعدُ الأوطان ما تَعِد
والشعر دمع ووجدان وعاطفة   يا ليتَ شعرى هل قلتُ الذى أجد ؟

كان من حق شوقى أن يضيق بهؤلاء الحاقدين، وأن يرد عليهم ردودا مفحمة فبماذا رد عليهم ؟ .

رد عليهم فى رثائه ليعقوب صروف بأنه يرثى إخوانه قضاء لحق الصداقة والوفاء، وما مراثيه إلا لحق وتبع لدموعه .

يقولون يَرْثِى كلَّ خلٍّ وصاحب   أجل إنما أقضى حقوق صحابى
جزيتهمُ دمعى فلما جرى المدَى   جعلت عيون الشعر حُسْنَ ثوابى

وفى رثائه لإسماعيل أباظة تبرم بلومهم ، وقال إنهم عابوه حينما مدح مدحاً يصور الممدوح قدوة حسنة، ويحبب إليه الخلق الفاضل والعمل الطيب ، فلما رثى الموتى لاموه وعابوه،وهو لا يبتغى من رثائهم جزاء ولا عطاء، وإنما وفى لهم وقدرهم وأشاد بفضلهم ورعى عهدهم ، فواعجبا ممن يحسدون رفات الموتى ، ويعيبون من ينوه بفضلهم .

وقد عقب على هذا بحكمة تؤيد رده ، هى أن الذى لا يفى للموتى لا يفى للأحياء ، فمن الضلال اتهام الراثى للموتى ومحاولة انتقاصه .

يقولون يرثى الراحلين فويحهم   أأمَّلْتُ عند الراحلين الجوازيا ؟
أبوا حَسَدًا أن أجعل الحىَّ أسوةً   لهم ومثالا قد يصادف حاذيا
فلما رثيت الميْتَ أقضى حقوقه   وجدتُ حسودا للرُّفات وشانيا
إذا أنت لم تَرْعَ العهود لهالك   فلست لحىٍّ حافظَ العهد راعيا

ولما رثى سعيد زغلول ابن أخت سعد زغلول ومتبناه سبق لائميه إلى ذكر ما ستلوكه ألسنتهم ، أو تسوِّده أقلامهم، وهو أنه ما رثى سعيدًا إلا ملقا لخاله

سعد ، ورد عليهم بأنه لا يتملق سعداً ، بل يحبه ويؤيده، ولا يريد من حبه وتأييده ما يتمناه غيره من مآرب ومنافع ، وإن سعداً لجدير بكل الحب والتقدير والتأييد والمديح .

سيقولون مبارثاه على الفضل ولكن رثاه زُلفَى لمخاله
ليس بيني وبين خالك إلا أنني ما حييتُ في إجلاله
لست أرجوه كالرجال لصيد من حرام انتخابهم وحلاله
هو أهل لأن يردَّ لقومي أمرهم في حقيقة استقلاله
وأنا المرء لم أر الحق إلا كنتُ من حزبه ومن عماله
رُبَّ حرٍّ صنعت فيه ثناء عجز الناطقون عن تمثاله

على أن شعور شوقي بالضيق من لوم الحاقدين امتد إلى مشاركته بعض من رثاهم في ضيقهم بالتحامل والنقد المتجني :

في رثائه للمنفلوطي وصف لمثواه الأخير بأنه ملاذ استراح فيه من حقد خصومه ، لأنهم كثيراً ما شنوا عليه هجمات ردها إليهم بانتاجه المتصل ، وفي هذه المرثية بشرى للمنفلوطي بأن الجيل المعاصر له فيه أشخاص مرضى القلوب ، ولا بد أن ينقضوا ويخلفهم أصحاء ينصفونه ، ويقضون له بحقه :

سكن الأحبة والعدى وفرغت من حقد الخصوم ومن هوى الأشياع
كم غارةٍ شنوا عليك دفعتها تصل الجهود فكنتَ خير دفاع
والجهد مؤت في الحياة ثماره والجهد بعد الموت غيرُ مُضاع
فإذا مضى الجيل المراضُ صدوره وأتى السليم جوانبَ الأضلاع
فافزع إلى الزمن الحكيم فعنده نقد تنزه عن هوى ونزاع

كذلك استعلن شعوره بالضيق من الحاقدين في رثائه لحافظ إبراهيم ، إذ افتتح القصيدة بأنه كان يود أن يموت قبل حافظ ، ليرثيه حافظ وينصفه ، وكان يود أن يكون فداء لحافظ الوفيّ المنصف ، وأن يكون الحاقدون فداء

لشوقى ، لأن أقلامهم لا تقطر إلا ضغناً وسماً ، ولأنهم هدامون يحاولون بناء أنفسهم على كرائم الأنقاض ونفائس الأشلاء .

لكنهم لم ينالوا من حافظ شيئاً ، وكذلك لم ينالوا من شوقى شيئاً ، ومن ذا الذى يستطيع أن يصعد إلى الجوزاء ليحطم رفرفها ؟ .

قد كنت أوثر أن تقول رثائى ... يا منصف الموتى من الأحياء
ووددتُ لو أنى فداك من الرَّدَى ... والكاذبون المرجفون فدائى
الناطقون عن الضغينة والهوى ... الموغرو الموتى على الأحياء
من كل هدّامٍ ويبنى مجده ... بكرائم الأنقاض والأشلاء
ما حطّموك وإنما بك حطموا ... من ذا يحطم رَفْرَفَ الجوزاء ؟

— ٥ —

إذا كان شوقى أكثر شعراء العربية رثاء فإنه كان أكثرهم مساءلة الموتى عن الموت وعما بعده ، فلطالما توقف فى مراثيه ليسأل الموتى عن حقيقة الموت والروح سؤال المحتىّ القلق الحيران المشتاق إلى أن يتعلم ما يجهل . .

من هذا سؤاله للمنفلوطى :

اليوم أبصرتَ الحياةَ فقل لنا ... ماذا وراء سرابها اللمّاع ؟
وصِفِ المنونَ فكم قعدتَ ترى لها ... شبحاً بكل قرارة ويَفَاع

ومنه تسآله لحافظ إبراهيم :

ماذا وراء الموت من سَلْوَى ومن ... دعة ومن كرم ومن إغضاء ؟
اشرح حقائق ما رأيت ولم تزل ... أهلا لشرح حقائق الأشياء

كذلك مساءلته لقاسم أمين :

هلا بُعِثْتَ فكنت أفصح مخبرٍ … عما وراء الموت من لازار(١) ؟

انفُضْ غُبارَ الموت عنك وناجني … فعساى أعلم ما يكون غُبارى

هذا القضاء الجد فارو وهات عن … قلم المنية أصدق الأخبار

وكذلك استخباره إسماعيل صبرى :

قل لى بسابقة الوداد أقاتلٌ … هو حين ينزل بالفتى أم شاف ؟

واستفساره من جرجى زيدان .

وضَعْتَ خير روايات الحياة فضعْ … رواية الموت فى أسلوبها العالى

وصِفْ لنا كيف تجْفُو الروح هيكلها … ويستبد البِلَى بالهيكل الخالى

وهل تَحنُّ إليه بعد فُرْقته … كما يحن إلى أوطانه الجالى(٢)؟

وسؤاله لعبد المطلب :

قم صِفِ الخلد لنا فى مُلْكه … من جلال الخَلْقِ والصُّنْع العَجَبْ

وثمارٌ فى يواقيت الربا … وسُلاف فى أباريق الذهب

وانثر الشعر على الأبرار فى … قُدُسِ الساح وعُلْوِىِّ الرَّحَب

استعِرْ رضوانَ عودَىْ قَصَبٍ … وترنَّمْ بالقوافى فى القَصَب

واسْقِ بالمعنى إلهيا كما … تتساقون الرَّحيقَ المنسكب

وعلى هذا الغرار اعترف عبدَ العزيز جاويش :

نشدتك بالموت إلا أبَنْتَ … أأنت شقىٌّ به أم سعيدٌ ؟

وكيف يُسَمَّى الغريبَ امرؤٌ … نزيل الأبوة ضيفُ الجدود ؟

وكيف يقال لجارِ الأوا … ئل جار الأواخر ناءٍ وحيد ؟

غفر الله لشوقى ، فقد رثى عشرات من أقطاب العربية والإسلام ، ثم غوب ، فرثاه ، عشرات من شعراء العروبة والإسلام .

---

(١) لازار : عازار : اسم الرجل الذى احياه عيسى عليه السلام .

(٢) الجالى : النازح عن وطنه .

براعة شوقي في مطالعة

براعة شوقى فى مطالعه *

- ١ -

لمحة إلى قيمة المطالع

حينما نردد النظر فى بعض كتب النقد كالصناعتين لأبى هلال العسكرى والمثل السائر لابن الأثير الموصلى والعمدة لابن رشيق(١) نجدهم قد نوهوا ببراعة مطلع القصيدة ، واستجادوا الابتداء الجيد ، واسترذلوا المطلع القبيح ، وضربوا أمثلة شتى للجيد والردىء .

وهم مجمعون على أن يكون مطلع الكلام من الشعر أو من الرسائل دالا على الغرض المقصود من الكلام ، إن كان تهنئة فتهنئة ، وإن كان مدحاً فمدحاً ، وإن كان عزاء فعزاء ، وهكذا .

ومتفقون أيضاً على أن يتسم المطلع بالجودة وبالجمال ، لأنه أول ما يقرع الأسماع ، وبه يستدل على ما عند الشاعر أول وهلة .

وقد أصابوا فى هذا ، لأن المطلع إذا كان حسناً بديعاً ، ومليحاً رشيقاً ، وحلواً سهلا ، وفخماً جزلا ، كان داعية إلى الإنصات لما يجىء بعده من كلام .

وفى الشعر العربى فى جميع عصوره كثير من المطالع الجياد المتصلة بموضوع القصيدة ، لسنا فى حاجة إلى التمثيل لها .

---

* نشر بالهلال ربيع الآخر ١٣٩٧ ابريل ١٩٧٧ .

(١) الصناعتين ٤١٧ والمثل السائر ٩٦/٣ والعمدة ١٤٤ .

ولكن يحسن أن نذكر بعض أمثلة من المطالع القبيحة التي استشهد بها النقاد ، وقولهم: إن الشاعر ينبغي له أن يحترز من أمثالها فى مفتتح قصائده ، كأن يحترس مما يتطير منه ، وبخاصة فى قصائد المدح والتهنئة ، لأن المدحة أو التهنئة إذا تصدرهما ما يتطير منه كانت نذيراً لا بشيراً

كذلك يجب على الشاعر ألا يجرد من نفسه شخصاً يخاطبه لأن الخطاب فى ظاهره موجه إلى الممدوح ، وهذا لا يليق .

من الأمثلة على هذا أن الخليفة المعتصم لما فرغ من بناء أحد قصوره جلس فيه ومعه جمع من أهله وأصحابه ، وأمرهم أن يلبسوا الديباج ، وجعل سريره فى الإيوان المنقوش بالفسافسا ، وكان فى صدر الإيوان صورة العنقاء ، وجلس المعتصم على سريره المرصع بالجوهر ، وعلى رأسه التاج فيه الدرة اليتيمة ، وفى الإيوان أسرة من الآبنوس عن يمين الخليفة ويساره إلى باب الإيوان ، وكلما دخل رجل رتبه الخليفة نفسه فى الموضع الذى يراه ، فما رأى الناس أحسن من ذلك اليوم .

وفى هذه المناسبة استأذن المغنى إسحاق بن إبراهيم فى النشيد ، فأذن الخليفة له ، فأنشده شعراً ما سمع أحسن منه في صفته وفى وصف المجلس إلا أن أوله بكاء للديار القديمة ، وبقايا آثارها ، وهو :

يا دار غيرك البلى ومحاك يا ليت شعرى ما الذى أبلاك

فتطير المعتصم ، وتغامز الحاضرون ، وعجبوا كيف غفل عن هذا إسحاق ، مع فهمه وعلمه وطول خدمة للملوك .

قال راوى الخبر : فأقمنا يومنا هذا ، وانصرفنا ، فما عاد منا اثنان إلى ذلك المجلس ، وخرج المعتصم إلى سر من رأى ، وخرب القصر .

كذلك أنكروا على أبى نواس قوله فى بدء قصيدة مدح بها بعض بنى برمك ، وقد بنى دارا ، وأفرغ فيها جهده ، ثم انتقل إليها :

أَرَبْعَ البِلَى إن الخشوع لبادى   عليك وإنى لم أخنك ودادى

وختمها بقوله :

سلامٌ على الدنيا إذا ما فَقَدتُمُ   بنى برمك من رائحين وغادى

فتطير منها البرمكى ، وكلح وجهه، وظهرت الوَجْمَةُ عليه، ثم قال: نعيتَ إلينا أنفسنا يا أبا نواس .

فما كانت إلا مُدَيدَة حتى أوقع بهم هارون الرشيد .

ومن المطالع القبيحة قول ذى الرُّمَّة فى مطلع مدحته لعبد الملك ابن مروان :

ما بال عينك منها الدمع ينسكب   كأنه من كُلًى مَفْرِيَّةٍ سَرِب

ولا شك أن الشاعر يتغزل، ويريد نفسه بهذا الخطاب على سبيل التجريد ولكن الخطاب فيه قبح المواجهة ،لأنه يوهم أن المخاطب هو عبد الملك ، فمن حقه أن يغضب ، وبخاصة أن عينه كان بها رمش ،فهى دائمة الدمع ، ولهذا قال للشاعر : وما سؤالك عن هذا يا بن الفاعلة ؟ .

ولما أنشد الأخطل عبد الملك بن مروان قصيدته التى أولها :

خفَّ القطين فراحوا منك أو بكَرُوا   وأزعجتهم نوًى فى صَرْفها غِيَرُ

قال له عبد الملك : لا ، بل منك ، وتطير من قوله ، فغير ذو الرمة كلمة منه ، وقال .

خف القطين فراحوا اليوم أو بكروا .

ومثل هذا أنهم عابوا على المتنبى قوله فى مطلع أول قصيدة مدح بها كافورا .

كفى بك داء أن ترى الموت شافيا   وحسبُ المنايا أن يكنَّ أمانيا

وإن كان المتنبي يخاطب نفسه في الحقيقة ، لأن المخاطب في الظاهر هو كافور ؟

— ٢ —

مطالع شوقي

أما مطالع أحمد شوقي فإن أكثرها يتسم بالجودة البارعة، وبالبداية الرائعة وباقيها حسن لا عيب فيه، حتى إننا نَصْدُقُ وننصف حينما نقول: إن أمير الشعر أغنى شعراء العربية مطالع جيدة .

ومن ذا الذي يقرأ ديوان شوقي بإمعان وإنصاف ولا يجتذب انتباهه أن كثيراً من مطالع قصائده ينبيء عن موضوع القصيدة كلها ، ويلخصه في بيت واحد ، ويشوق السامع أو القارىء إلى ما بعد المطلع ؟ .

وخير ما نفعل في هذا المقام أن نسوق هذه الأمثلة .

١ — الهمزية النبوية مطلعها :

وُلِدَ الهدى فالكائنات ضياء   وفم الزمان تبسمٌ وثناء
الروح والملأ الملائك حوله   للدين والدنيا به بشراء

وبعد هذا يجيء الحديث عن مولد النبي صلى الله عليه وسلم وعن سيرته وعن أخلاقه :

٢ — وصف الوقائع العثمانية اليونانية في عهد السلطان عبد الحميد سنة ١٨٩٧ م ، في قصيدة مطلعها :

بسيفك يعلو الحق والحق أغلبُ   ويُنصَر دين الله أيان تَضْرِب

ثم جاء تفصيل تناول مدح السلطان ، وتهنئته بالنصر ، وزهو الشاعر

بهذا النصر ، ووصف المعارك فى دقة وفى بيان رائع :

٣ – القصيدة التى هنأ بها الغازى مصطفى كمال بانتصاره فى الحرب والسياسة ، مطلعها .

الله أكبر كم فى الفتح من عجبِ   يا خالد الترك جدد خالد العرب

وبعد هذا إشادة به قرية مصطفى كمال ، ووصف رائع لانتصاراته :

٤ – حينما أعلن مصطفى كمال إلغاء الخلافة الإسلامية ، بعد فرحة المسلمين بانتصاره ، ونفى الخليفة من تركيا ، رثى شوقى الخلافة ، لأنها كانت رابطة للمسلمين ، ونبه العالم الإسلامى إلى إسداء النصح لمصطفى كمال ، لعله يبنى ما هدم ، وكان مطلع قصيدته خير معبر عن موضوعها ، وهو :

عادت أغانى العرس رَجعَ نُواح   ونُعيت بين معالم الأفراح

كفنت فى ليل الزفاف بثوبه :

٥ – ولما ألقيت قنبلة سنة ١٩٠٥ على الخليفة ، من نصارى الأرمن ، ونجا من شرها ، هنأه شوقى بقصيدة مطلعها :

هنيئاً أمير المؤمنين فإنما   فى نجاتك للدين الحنيف نجاة .

٦ – وحينما توجه الخديوى عباس إلى الحج ودعه شوقى بقصيدة مطلعها :

إلى عرفات الله يا بن محمد   عليك سلام الله فى عرفات

٧ – ولما تغلب البلغار على أدرنة وامتلكوها رثاها شوقى بقصيدة مطلعها :

يا أخت أندلس عليك سلامُ   هوت الخلافة عنك والإسلامُ

فلخص موضوع القصيدة كلها فى هذا المطلع الباكى .

٨ – وحينما انتصر الأتراك على اليونان فى الحرب ، فرح شوقى ، وقال :

قصيدة مطلعها .

بحمد الله رب العالمينا وحمدك يا أمير المؤمنينا
لقينا فى عدوك ما لقينا لقينا الفتح والنصر المبينا

ثم فصل المواقع والانتصارات .

٩ — وفى الاحتفال بمرور مئة سنة على تولى محمد على حكم مصر ، قال قصيدة مطلعها :

علمٌ أنت فى المشارق مُفْردْ لكَ فى العالمين ذكر مُخَلَّدْ
حبذا دولة وملك كبير أنت بانى ركنيهما يا محمد

فأشار إلى ما سيذكره من مناقبه وآثاره .

١٠ — وكان مطلع قصيدته بمناسبة وصول جثمان الخديوى إسماعيل إلى مصر سنة ١٨٩٥ :

حلم مَدّه الكرى لك مدّا وسُدًى تـرتجى لحلمك ردّا

فصور فى هذا المطلع ما سيذكره فى القصيدة من آمال إسماعيل وطموحه وإصلاحه .

١١ — وبدأ قصيدته (انتحار الطلبة) بقوله :

ناشىء فى الورد من أيامه حَسْبه الله أبا لورد عَثَرْ ؟

ثم ذكر سخطه على الشباب اليائس ، وبسط لهم الآمال الفسيحة :

١٢ — وافتتح قصيدته فى أبى الهول بقوله :

أبا الهول طال عليك العُصُرْ وبُلِّغتَ فى الأرض أقصى العُمُرْ
فيالدةَ الدهر لا الدهر شبْ بَ ولا أنت جاوزت حد الصغر

ثم وصف أبا الهول وصفاً رائعاً بارعاً، وأشاد بعظمته ، ونوه بافتنان الفراعنة في نحته ، وقص بعض أحداث مصر الفرعونية التي عاصرها أبو الهول .

١٣ — ومطلع قصيدته في مملكة النحل هو :

مملكــــــة مــدبّره بامـــــرأة مـــؤمَّــره
تحمــل في العمـــال والصُّــنّاع عــبء السيطرة

وفي هذا المطلع إلمام بموضوع القصيدة في براعة .

١٤ — وافتتح قصيدته في الأزهر بقوله:

قم في فم الدنيا وحيِّ الأزهــرا وانثر على سمع الزمان الجوهرا

فأشار إلى ما تضمنته القصيدة من إشادة بما للأزهر من مفاخر في خدمة الإسلام والعروبة .

١٥ — كذلك افتتح قصيدته في دار العلوم بقوله :

اتخذت السماء يا دار ركنــا وأويْت الكواكب الزُّهْر سُكْنَى
أنت كالشمس رفرفا والسماكيْـ ـن رواقاً وكالمجرَّة صَحْنا

فلخص ما سيشيد به من آثارها في صيانة العربية الفصحى والنهوض بها كتابة وخطابة وشعرا .

١٦ — وله قصيدة في نقابة الصحفيين مطلعها :

لكل زمـــان مضى آيـــةٌ وآية هــذا الزمـــان الصحف

والإشارة هنا إلى موضوع القصيدة جلية . . .

١٧ — وعلى أثر ضرب الأسطول الإيطالي بيروت والحرب مشتعلة

طرابلس الليبية بين خصمين : الأول هم الترك والعرب والمصريون، والثاني هم الإيطاليون ، قال شوقي قصيدة مطلعها :

يا رب أمرك في الممالك نافـذ　　والحكم حكمك في الدم المسفوك

وبعد المطلع تحدث باكياً :

١٨ — وفي حفل تكريم المعلمين افتتح قصيدته بقوله .

قم للمعلم وفّه التبجيلا　　كاد المعلم أن يكون رسولا

ثم نوه بآثار المعلمين في تربية النشء ، وترقية الوطن .

١٩ — ولما احتفلت مصر بإنشاء بنك مصر أول بنوكها ساهم شوقي بقصيدة مطلعها :

قف بالممالك وانظر دولة المال　　واذكر رجالا أدالوها بإجمال

فجاء المطلع موائماً للموضوع أيما مواءمة :

٢٠ — وبدأ قصيدته في السخط على تناحر الأحزاب في مصر سنة ١٩٢٤ وفي الدعوة إلى تآلفها ، بقوله .

إلام الخلف بينكم إلاما　　وهذى الضجة الكبرى علاما ؟
وفيم يكيد بعضكم لبعض　　وتبدون العداوة والخصاما ؟

وفي هذا المطلع إشعار بما سيجيء بعده :

٢١ — وحينما هم سعد زغلول بالسفر إلى إنجلترا لمفاوضة الإنجليز ، وكان يومئذ رئيس الوزارة ، أطلق عليه النار شاب أخرق ، ولكن الله سبحانه وتعالى أنجاه ، فنظم شوقي قصيدة هنأ بها سعداً وهنأ مصر ، بدأها بقوله :

نجا وتماثل ربّانها　　ودقّ البشائر رُكبانها

فصور السفينة قد نجت بعد أن أوشكت على الغرق ، وصور بحارتها وركابها فرحين يدقون الطبول ، وهو يريد نجاة سعد وسلامة مصر .

٢٢ — وعند ما قدم طياران فرنسيان من باريس إلى القاهرة سنة ١٩١٤ ، رحب بهما شوقى ، وكان مطلع قصيدته دالا على موضوع القصيدة وهو .

يا فرنسا نلت أسباب السماء وتملكت مقاليد الجواء

٢٣ — ولما قدم جماعة من طيارى فرنسا إلى القاهرة ، قال قصيدة أخرى مطلعها يشير إلى موضوعها .

قم سليمان بساط الريح قاما ملك القوم من الجو الزماما

٢٤ — وافتتح قصيدته فى وصف قصر أنس الوجود بقوله .

أيها المنتحى بأسوان دارا كالثريا تريد أن تنقضا

ثم وصف القصر وبكى ماضيه وماضى مصر .

٢٥ — وله قصيدة فى نهر النيل وفى تاريخ مصر ، مطلعها .

من أى عهد فى القرى تتدفق وبأى كف فى المدائن تُغْدِق؟

وليس أبرع من هذا المطلع لهذه القصيدة .

٢٦ — وحينما ضرب الأسطول الفرنسى دمشق بمدافعه بكاها شوقى فى قصيدة من روائعه ، مطلعها .

سلام من صَبا بَرَدى أرق ودمعٌ لا يُكَفْكَفُ يا دمشق

٢٧ — وله قصيدة فى تلاميذ المدرسة ، وعهد الطفولة ، ومصاير الأيام مطلعها :

ألا حبذا صحبة المكتب وأحبب بأيامه أحبب

وصف بعده تلاميذ المكتب ومقاعدهم وملابسهم ولهوهم ومراجهم وآمالهم وتصرف الزمان بهم .

٢٨ — وحين قدم الطيار المصرى صدقى من برلين إلى القاهرة سنة ١٩٣٠ حياه شوقى بقصيدة تحدث فيها عن أثر الطيران فى السلم والحرب ، ووصف حسرته لأن مصر لم تمارس الطيران إلى ذلك الوقت ، وشجع الشبان أن يتسابقوا فى مجال الجو ، وأثنى على طلعت حرب مدير بنك مصر ، لأنه أنفق على تعليم صدقى فى ألمانيا ، ثم حيا شوقى صدقى ، ووصف حفل استقباله ، ووصف جمال جو مصر وملاءمته للطيران ، مطلع القصيدة قوله :

أعقابٌ فى عَنان الجو لاح أم سحابٌ فرَّ من هُوجِ الرياح

٢٩ — ولما كشف النقاب عن توت عنخ آمون ، قال شوقى قصيدة مطلعها :

قم سابق الساعة واسبِقْ وعدَها

الأرض ضاقت عنك فاصدَعْ غِمدَها

فصور فى هذا المطلع الكشف عن توت عنخ أمون بعثا ، وصوره ضاق بالأرض محبساً ، فانفلت منها وانطلق ، ثم جعل يصفه ، ويصف حضارة مصر فى عهده.

٣٠ — ويوم أقيم تمثال نهضة مصر ، وأزيح الستار عنه فى احتفال عظيم ، قال شوقى قصيدة ، مطلعها :

جعلتُ حلادها وتمثالها عيون القوافى وأمثالها

فذكر فى المطلع أنه اختص مصر بروائع شعره ، وجعلها حلياً لها وزينة

وتمثالا ، ثم انتقل إلى حبه لمصر ، وإلى وصف مهرجان الاحتفال ، وإلى عظمة التمثال ومعناه الذي يرمز إليه ، وفرح المصريين به .

٣١ — وفى احتفال مصر بيوم ١٣ نوفبر سنة ١٩٢٧ ذكرى الجهاد ، قال شوقى قصيدة ، ذكر فيها الجهاد ، وشهداء الشباب ، والتضحية فى سبيل الاستقلال والتحرر ، مطلعها .

فى مهرجان الحق أو يوم الدم   مهجٌ من الشهداء لم تتكلم

٣٢ — وحيا شوقى زعيم الهند غاندى حينما مر بقناة السويس فى طريقه إلى مؤتمر المائدة المستديرة بلندن ، فمجد غاندى ، وأشاد بكفاحه فى تحرير الهند ، وأوصاه أن يأخذ حذره من المتفاوضين معه ، ومطلع القصيدة موائم لموضوعها أيما مواءمة ، هو :

بنى مصـــر ارفعـــوا الغـــار   وحيّـــــوا بطـــل الهنـــــد

٣٣ — ومراثيه كلها على هذه الوتيرة ، مثل قوله فى رثاء عمر المختار الذى قتله الإيطاليون :

ركزوا رُفاتك فى الرمـــال لواء   يســـتنهض الوادى صباح مساء

وقوله فى رثاء حافظ إبراهيم :

قد كنت أوثر أن تقـــول رثائى   يا منصـــف الموتى من الأحياء

وقوله فى رثاء سعد زغلول :

شيعوا الشمس ومالوا بضحاهـــا   وانحـــنى الشرق عليهـــا فبكاها

أما بعد ، فهذه لمحة إلى براعة شوقى فى مطلع قصائده ، لا ينكرها خصوم لشوقى ، ولا للشعر العمودى الذى لم يعرف شوقى سواه .

الصورة الفنية فى شعر شوقى[١]

الصور الفنية
في شــعر شــوقي

— ١ —

الصور الشعرية هي التعبير الذي ينقل شعور الشاعر أو أفكاره، معتمداً على التجسيد لا على التصريح ولا على التجريد، فهي إذن تصوير لعاطفة الشاعر وتجربته، وتصوير لفكرته التي انفعل بها.

وهي لهذا وسيلة من وسائله في استعمال اللغة على الوجه الذي يكفل نقل مشاعره وأفكاره، فيؤثر في نفوس قرائه.

وهذه الصورة الشعرية مادتها الألفاظ الحسية التي تجسد، لتمثل الأدب في الألوان والظلال والخطوط في الصور المرسومة.

وقد تتحقق الصورة في تركيب كامل، وقد تتحقق في لفظ مفرد، والخيال ينبوعهما معا.

ولقد يتبادر إلى الذهن أن الصورة الشعرية تعبير مجازي، وفي هذا بعض الحق، لكنه ليس الحق كله، لأنها كما تجيء في تعبير مجازي، تجيء في تعبير حقيقي.

على أن التعبير المجازي لا يستجاد في التصوير إلا إذا كان أقوى من التعبير الحقيقي في نقل التجربة، لأنه صورة الغرض منها التعبير وليست مقصودة لذاتها.

وهذان النوعان في شعر شوقي.

---

* المجلة يونية ١٩٦٢.

— ٢ —

فقد اعتمد فى التصوير على اللغة الحقيقية أحياناً ، فلم يلونها بمجاز .
كقوله فى نكبة دمشق حينما ضربها الأسطول الفرنسى بمدافعه سنة ١٩٢٦ .

وأين دُمَى المقاصر من حجال ... مهتكة وأستار تشق
برزن وفى نواحى الأيك نار ... وخلف الأيك أفراخ تزق
إذا رمن السلامة من طريق ... أتت من دونه للموت طرق
بليل للقذائف والمنايا ... وراء سمائه خطف وصعق
إذا عصف الحديد أحمر أفق ... على جنباته وأسود أفق

فهو فى هذه الأبيات يرسم مشهداً للكارثة ، فيصور النساء قد يرزن من خدورهن هاربات مذعورات ، والنيران تشتعل من حولهن ، فلا يجدن طريقاً للسلامة ، والسماء تبرق وترعد بالقذائف ، والأفق المقابل للبحر محمر بنيران المدافع ، والآفاق الأخرى مظلمة مسودة من الدخان المتراكم .

ولم يلجأ فى هذه الصورة إلى مجاز .

ومن هذا الضرب قوله فى وصف المعراج :

جبت السماوات أو ما فوقهن بهم ... على منورة درية اللجم
حتى بلغت سماء لا يطارلها ... على جناح ولا يسعى على قدم
وقيل كل نبى عند رتبته ... ويا محمد هذا العرش فاستلم

ففى هذه الأبيات صورة تمثل النبى قد صعد إلى أعلى أوج ، والأنبياء من ورائه ، فلما قاربوا العرش أمروا أن يتوقف كل منهم فى المكان الملائم لقدره ، وأذن لمحمد وحده أن يدنو من العرش ويستلمه . والذى توحى به الصورة علاء النبى وتقديمه على سائر الأنبياء ، وليس بها نوع من المجاز .

— ٣ —

وكثيراً ما اعتمد شوقى على المجاز فى إبراز الصورة الشعرية المعبرة عن عواطفه أو أفكاره، حيث كانت اللغة الحقيقية لا تسعفه بالصورة التى يريد إبرازها :

وهذه الصور فى شعره على ضربين :

أحدهما صور كاملة مؤلفة من صور جزئية مترابطة. ترسم مشهداً عاماً ، كقوله فى بكاء الخلافة حينما ألغاها مصطفى كمال :

عادت أغانى العرس رجع نواح ونعيت بين معالم الأفراح
كفنت فى ليل الزفاف بثوبه ودفنت عند تبلج الإصباح
شيعت من هلع بعبرة ضاحك فى كل ناحية وسكرة صاح
ضجت عليك مآذن ومنابر وبكت عليك ممالك ونواح
وأتت لك الجمع الجلائل مأتماً فقعدن فيه مقاعد الأنواح

ولكى نتبين الصورة على حقيقتها يجب أن نتذكر أن شوقى كان قد ابتهج بانتصار مصطفى كمال ، وتوسم فى عهده عزا للخلافة والإسلام ، فحياه بقصيدة قبل هذه ، فلما خيب مصطفى كمال الأمل المنوط به وألغى الخلافة ، حزن شوقى ، لهذا نجده يصور الخلافة التى كان يأملها عروساً ، ويصور هتاف المسلمين بها ودعواتهم إليها ، واستبشارهم بظهورها أغانى ، فلما ألغيت انقلبت الأغانى بكاء وعويلا ، ونعيت العروس ومعالم الفرح بها قائمة .

ونمى شوقى الصورة فجعل العروس كفنت بثوب زفافها ، ودفنت فى صباح عرسها ، وفى هذا من الأسى والإيحاء بالفجيعة ما فيه. وصور الحزن الشامل بأنه أفقد الناس صوابهم ، وغير شعورهم من النقيض إلى نقيضه ، إذ حل

الدمع محل الضحك ، وخلفت الغيبوبة اليقظة والصحو .

ونمى صورة الفجيعة فى الخلافة وما يجره إلغاؤها من ضرر بالمسلمين حينئذ بتصوير المآذن قد ضجت ، والمنابر قد ارتجت ، إذ أن المآذن والمنابر من مظاهر العبادة فى الإسلام ، وبتصوير الجمع قد احتشد فى مآتم تندب الخلافة لأن صلاة الجمعة مظهر من مظاهر اجتماع المسلمين فى كل أسبوع مرة .

وبهذا رسم شوقى صورة مكتملة للفجيعة ، تنبىء عن حزنه ، وتوحى بالأسى إلى من يقرأ القصيدة .

ومن الصور المكتملة قوله يصف الفتح العربى لمصر :

ما كانت الفسطاط إلا حائطا يأوى الضعيف لركنه والمرهق
وبه تلوذ الطير فى طلب الكرى ويبيت قيصر وهو منه مؤرق
عمرو على شطب الحصير معصب بقلادة الله العلى مطوق
يدعو له الحاخام فى صلواته موسى ويسأل فيه عيسى البطرق

وهذه الأبيات تصور الحكم الإسلامى العادل المصلح ممثلا فى فاتح مصر وحاكمها الأول عمرو بن العاص . لكن شوقى لم يسلك إلى الفكرة تعبيراً مباشراً ، بل سلك إليها الصورة ، فجعل الفسطاط حصناً يلجأ إليه الضعفاء والمستعبدون ، فيجدون فيه أمنهم الذى فقدوه ، وحريتهم التى حرموها ، والحكم العادل الذى يفتقدونه .

على أنه نمّى الصورة برسم الطيور تلوذ بالفسطاط تطلب الاطمئنان لتنام ، لأن عسف الروم كان يفزعها ويطاردها ، كما يفزع المصريين ويطاردهم ، فلا الاستقرار فى مكان .

ثم صور عمراً جليلاً مهيباً فى مظهره المتقشف ، فهو يجلس على حصير ولا يلبس تاجاً ، لكن الإسلام يكسبه جلالاً أعظم من جلال التاج ، ويحليه بقلادة أفخم من قلائد الملوك .

وفى البيت الأخير تكملة للصورة، إذ جعل اليهود والنصارى راضين عن حكمه، فرحين بعدله وتسامحه، يدعون له فى صلواتهم، ويُشهدون موسى وعيسى على ما ينعمون به من عدل وحرية واطمئنان .

ولقد يعمد شوقى إلى الأسطورة فيصورها تصويرًا متأنقاً فياضاً بالمشاعر والحركة ، حتى ليخال القارىء أنها حقيقة تاريخية ، كقوله فى عذراء النيل .

ونجيبــة بين الطفــولة والصبــا	عذراء تَشْرَبُهُا القلوب وتَعْلَقُ
كان الزفاف إليــك غاية حظها	والحظ إن بلغ النهـــاية مُوبق
زُفت إلى ملك الملــوك يحثهـــا	دين ويدفعهـــا هـــوى وتشوق
مجلوة فى الفلك يحــدو فلكها	بالشاطئين مـــزغرد ومصـــفق
فى مهرجـــان هـــزت الدنيـــا به	أعطافهـــا واختـــال فيـــه المشرق
فـــرعون تحت لوائه وبنـــاته	يجرى بهن على السفين الزورق
حتى إذا بلغت مواكبهـــا المدى	وجـــرى لغايته القضاء الأسبق
وكســـا سماءَ المهرجـــان جـــلالة	ســيف المنيـــة وهو صَلْتٌ يبرق
وتلفتت فى اليم كل ســـفينة	وانثال بالوادى الجموع وحدقوا
ألقت إليـــك بنفسها ونفيسهـــا	وأتتلك شـــيقة حواها شيق (١)

فى هذه الصورة المكتملة حسناء عذراء فتانة، منتهى أملها أن تزف إلى النيل ، وقد تحقق أملها فزفت إليه فى حفل رائع ، إذ زينت وزين فلكها ووقفت جماهير الشعب على الشاطئين ، الرجال يصفقون والنساء يزغردن ، والنيل والشطآن فى مهرجان عظم اختالت فيه مصر ، وكان فرعون يشهد المهرجان والأعلام تخفق حوله، وكانت بناته فى زورقهن يجرى بهن بين السفن . فلما بلغت عروس النيل فى مواكبها إلى الموضع المعتاد ، وأحاطت بها السفن ،

---

(١) موبق : مهلك . صلت : ماض صقيل .

وتطالت منها الجموع ، وازدحم الشاطئان بحشود المتفرجين ، رمت العروس بنفسها فى النهر راغبة مرغوبة ، وطالبة مطلوبة :

وأحياناً يعمد شوقى إلى الحقيقة التاريخية فيصورها تصويراً يضفى عليها بهاء وجلالا وجدة ، ويجسمها تجسيما يزيدها وضوحاً ويمثلها للعين تمثيلا كقوله فى وصف انتصار نابليون فى موقعة استرلتز على ملكى الروسيا والنمسا :

حول (إسترليز) كان الملتقى	واصطدام النسر بالمتنسرين
وضع الشطرنج فاستقبلته	بيبنان عابث باللاعبين
فإذا الملكان هذا خاضع	لك فى الجمع وهذا مستكين
صدت شاه الروس والنمسا معا	من رأى شاهين صيدا فى كمين ؟

وهناك نلحظ أنه اختار الشطرنج أساساً للصورة، لأنه يعتمد على المهارة فى رسم الخطة وتنفيذها ، فهو شبيه بالحرب ، وأراد أن يدل على مهارة نابليون واستهانته بخصميه، فجعله يستقبل اللعب بيد لبقة لا تعبث بأدوات اللعب ، بل تعبث باللاعب نفسه ، لهذا سرعان ما انتصر على خصميه .

لكن شوقى نمى هذه الصورة الفريدة بما لم يعهده الناس فى لعب الشطرنج ، إذ المعهود أن يكون على الرقعة ملك واحد ، وأن يصاد الملك فى كمين أما نابليون فقد صاد ملكين اثنين فى كمين واحد .

وكثيراً ما تتميز الصورة بالحركة مضافة إلى الألوان والظلال ، كما سبق فى بعض الأمثلة ، وقوله :

وللحرية الحمراء باب بكل يد مضرجة يدق

وهذا يجعلنا نتخيل الحرية التى لا تنال بغير الجهاد والدم حمى جميلا ، ومأوى ظليلا ، له باب لا تطرقه إلا الأيدى المضرجة بدم الجهاد والبطولة والشهادة .

وكقوله :

وقد صفا بردى للريح فابتردت لدى ستور حواشيهن أفنانُ
ثم انثنت لم يزل عنها البلال ولا جفت من الماء أذيال وأردان

فالريح هنا فتاة راقها ماء بردى فنزلت فيه لتستحم ، وكانت الأغصان التي على حافته ستارًا لها ، ثم خرجت من النهر ولم تنشف بللها ، ولم يجف هذا البلل ، يريد أن الريح مرت بالنهر فحملت بعض مائه فبردها ، ولكن شتان ما بين التعبيرين .

ومن هذا قوله في نجاة سعد زغلول من العدوان عليه سنة ١٩٢٤ :

نجا وتماثل ربانها ودق البشائر ركبانها
وهلل في الجو قيدومها وكبر في الماء سكانها
تحول عنها الأذى وانثنى عباب الخطوب وطوفانها
نجا نوحها من يد المعتدى وضل المقاتل عدوانها(١)

ففي هذا المشهد يرسم شوقي الشعب المصري في سفينة لها ربان واحد ، صوبت إليه رصاصة فسلم منها ، فدق الركاب طبولهم وغنوا ، وظهرت الفرحة على السفينة نفسها ، على قيدومها وعلى سكانها .

وفي تمثيل سعد بنوح السفينة تنمية للصورة ، إذ أن سعدًا ملاذ ورسول نجاة ، كما كان نوح ملاذًا ورسول نجاة .

ولقد يضيف إلى الحركات الكبيرة حركات صغيرة معبرة عن الانفعال أو العاطفة ، كهذا المشهد الذي رسمه لمغازلة فتاة من حسان لبنان ، إذ أنه علق بها ، فتبعها ، فدخلت الكنيسة ، فوقف يرتقبها ، فلما خرجت اعترض

---

(١) هلل : قال : لا اله الا الله قيدوم السفينة : مقدمها . سكان السفينة ذيلها .

طريقها ، فنفرتْ وأعرضت ، فاتجه إلى غيرها بالمغازلة؛ فغارت ، وأقبلت عليه :

واغن أكحل من مهـا (بكفية) عَلِقَتْ محاجرُه دمى وعلقته
دخل الكنيسة فارتقبت فلم يطل فأتيت دون طريقه فزحمته
فازورّ غضبانا وأعرض نافرا حالٌ من الغيد الملاح عرفته
فصرفت تلعابى إلى أترابه وزعمتهن لبُستانى فأغرته
فمشى إلىّ وليس أول جؤذر وقعت عليه حبائلى فقنصته
قد جاء من سحر العيون فصادنى وأتيت من سحر البيان فصدته

ومن هذا قوله وهو بالأندلس :

يا نائح الطلح أشباه عوادينا نشجى لواديك أم نأسى لوادينا
ماذا تقص علينا غير أن يدا قصت جناحك جالت فى حواشينا
رمى بنا البين أيكا غير سامرنا أخا الغريب وظلا غير نادينا
كل رمته النوى ريش الفراق لنا سهما وسل عليك البين سكينا
إذا دعا الشوق لم نبرح بمنصدع من الجناحين عى لا يلبينا
لم تأل ماءك تحنانا ولا ظمأ ولا ادكارا ولا شجوا أفانينا
تجر من فنن ساقا إلى فنن وتسحب الذيل ترتاد المواسينا
أساة جسمك شتى حين تطلبهم فمن لروحك بالنطس المداوينا ؟

فهو فى هذا المشهد يخلع حالته على طائر يتخيله، وقد صور هذا الطائر مبعدًا عن وطنه ، وحزينا لهذا الابعاد، دائم الحنين والذكرى ، والتلهف إلى مائه وعشه ، وقد أصابه الحزن بالمرض والضعف فجناحه مهيض ، وحركاته من غصن إلى غصن جرجرة على ساق شبه ، كسيرة ، وذيله مدلى ، وهو يتردد على الأطباء ليعالجوه أو ليواسوه، ولكنه لا يجد فيهم بغيته ، لأن مرضه نفسى لا يبرئه إلا عودته إلى وطنه .

وشوقى يريد بهذه الصورة نفسه ، ويقصد بجزئياتها وصف حالته وهو بالمنفى ، وإنما اختار الطائر لأنه معروف بحبه ووفائه لوطنه ، وشوقه إلى الرجوع إليه إذا فارقه ، ولعله كان يريد أن يعود إلى مصر فى سرعة كما يستطيع الطائر أن يعود إلى وطنه فى سرعة .

— ٤ —

إذا ما انتقلنا إلى الصورة الجزئية وجدناها كثيرة ممثلة فى التشبيه والاستعارة والكناية .

أما التشبيه فبعضه جيد ، لأن شوقى لم يقمه على تشابه سطحى فى المظهر ، بل أقامه على تماثل المشبه والمشبه به فى وقعهما على النفس وأثرهما فى الشعور كقوله فى وصف الحديث النبوى :

أما حديثك فى القلوب فشرع والعلم والحكم الغوالى الماء

ذلك أن الظمآن يستطيب مشرع الماء ، بل يجد فيه حياته ، وكذلك المسلمون يستطيبون الحديث النبوى ، ويجدون فيه رشادهم وانقاذهم من الضلال وإذا كان المشرع يقدم لوارديه ماء يحيى ، فإن الحديث النبوى يكفل لوارديه حياة العقل والوجدان .

ومن هذا قوله :

شافى النفس من نزعات شر كشاف من طبائعها الذئابا

لأن الميول والنزعات الشريرة بغيضة مخيفة ضارة بالمجتمع الذى يعيش فيه ذووها ، فهى كغريزة الافتراس فى السباع ، والذى يستطيع أن يشفى النفوس من الشر الغالب عليها يحاول عسيراً ، ويقدم للناس خيراً كثيراً ، كمن ينتزع من السباع طباعها .

وكذلك قوله فى وصف أبطال الحرب :

كأن الوغى نار كأن جنــــودنا   مجوس إذا ما يمموا النار قربوا (١)

فهو يصور المحاربين مقبلين على الحرب فى رضا وسرعة وتلبية لدافع العقيدة ، ورغبة فى المثوبة ، بالمجوس الذين يقبلون على نارهم المعبودة ويقربون لها القرابين .

. وقد يستعين شوقى بتشبيه ضمنى — هو فى حقيقته تدليل عقلى — لتصوير فكرته أو شعوره ، والتدليل على صوابها ، لكنه لا يسلك مسلك التجريد الذى يعوزه شعور القائل ، فيطبع الصورة بطابع التصريح الذى لا إيحاء فيه ، كما فعل ابن الرومى فى قوله :

قد يشيب الفتى وليس عجيبـــا   أن يرى النور فى القضيب الرطيب

لأن مشيب الفتى يثير الاشفاق والدهشة على حين أن النور فى الغصن الرطيب يثير الإعجاب والمسرة ، فليست بين المنظرين علاقة شعورية ولكن الشاعر أراد أن يخفف من اشتعال الشيب فى رأس الفتى بأن الغصن الرطيب يطلع نورا ، فنظر إلى العلاقة السطحية ولم ينظر إلى العلاقة النفسية ، وبهذا جاء تعليله عقليا صرفا لا يمازجه شعور .

لم يفعل شوقى مثل ذلك ، بل جاء تعليله موصولا بشعوره ، فقوله فى الحض على الزكاة ، ودعوة الأغنياء إلى إشراك الفقراء فى أموالهم :

يريد الخـــالق الرزق اشـــتراكا   وإن يك خص أقواما وحـــابى

فما حـــرم المجـــد جنى يديه   ولا نسى الشـــقى ولا المصـــابا

ألم تـــر للهـــواء جـــرى فأفضى   إلى الأكواخ واخـــترق القبـــابا

---

(١) قربوا : قدموا قرابين للنار .

وأن الشمس فى الآفــاق تغشى جمى كسرى كما تغشى اليبــابا
وأن المــاء تروى الأســد منه ويشــفى من تلعلعهــا الكلابا
وســوى الله بينكم ، المنــايآ ووســدكم مع الرســل الترابا

فهو يدلل على المشاركة فى المآل بأن الله سوى بين الناس فى ضروريات الحياة ،سوى بينهم فى الانتفاع بالهواء وبالشمس وبالماء ، كما سوى بينهم فى الموت والعودة إلى التراب ، ولكل من هذه وقعها فى النفس ، وأثرها فى الاقتناع بالمشاركة .

وأما الاستعارة فكثيرة ، وأكثرها مبنى على تشبيه جيد ، كقوله :

يــا غــاب بولــون وبى وجــد مــع الذكــرى يزيد
خفقــت لــرؤيتــك الضــلو ع وزلــزل القــلب العميد

وقوله فى وصف قصر أنس الوجود :

شاب من حولها الزمان وشابت وشــباب الفنــون ما زال غضا

وقوله فى مناجاة النيل :

و بأى نول أنت ناســج بردة للضفتين جديدها لا يخلق
تســود ديباجا إذا فارقتهــا فإذا حضرت اخضوضر الاستبرق
فى كل آونــة تبــدل صبغــة عجبــا وأنت الصــابغ المتــأنق

وقوله فى وصف الشريعة الإسلامية :

مشت الحضارة فى سناها واهتدى فى الدين والدنيا بها السعــداء

ومن الكنايات الجيدة قوله فى خبرته بحلو الحياة ومرها :

فمــن يغــتر بالدنيــا فإنى لبســت بها فأبليت الثيــابا
لهــا ضحكات القيــان إلى غبى ولى ضحك اللبيب إذا تغــابى

جنيت بروضهـا وردا وشوكا وذقت بكاسها شهدا وصابا

وكنايته عن القلب بالدم واللحم بين الضلوع ، وكنايته عن الدموع الحمر بأنها ذوب القلب ، فى قوله :

ولى بين الضلوع دم ولحم هما الواهى الذى ثكل الشبابا
تسرب فى الدموع فقلت ولى وصفق فى الضلوع فقلت ثابا

وقوله فى وصف خداع الدنيا :

أخا الدنيا أرى دنياك أفعى تبدل كل آونة إهابا
وأن الرقط أيقظ هاجعات وأترع فى ظلال السلم نابا
ومن عجب تشيب عاشقيها وتفنيهم وما برحت كعابا

— ٥ —

على أن الصورة قد تظهر متفككة غير متناسقة الأجزاء، فقوله فى وصف الحديث النبوى :

أما حديثك فى القلوب فمشرع والعلم والحكم الغوالى الماء
جرت الفصاحة من ينابيع النهى من دوحه وتفجر الانشاء
فى بحره للسابحين به على أدب الحياة وعلمها أرساء
أتت الدهور على سلافته ولم تفن السلاف ولا سلا الندماء

فالحديث النبوى فى هذه الصورة ، مورد للعلم والحكمة، ثم دوحة ، ثم ينبوع ، ثم بحر ، ثم خمر ، وفى هذا خلط وبعد عن الملاءمة ولو أنه صوره بواحد من هذه وأكمل الصورة ونماها بما يلائمها لجاءت منسقة مكتملة.

وبعض الصور تعوزه الدقة حتى فى المشابهة السطحية المظهرية ، ومعنى

هذا أنها خالية من العلاقة النفسية التى ينبغى أن يقوم عليها التصوير ، كقوله فى قصر أنس الوجود :

قف بتلك القصور فى اليم غرقى ممسكاً بعضها من الذعر بعضا
كعذارى أخفين فى الماء بضا سابحات به وأبدين بضا

ففى هذه الصورة قصور غرقى فى النهر ، تماسك أعمدتها وجدرانها وسقوفها من شدة الذعر ، وهى تشبه فى حالتها هذه حساناً سابحات فى النهر أخفين بعض أجسامهن وأظهرن بعضه ، وشتان ما بين الحالين فى مراعاة الروابط الشعورية ، لأن القصور غرقى مذعورات يتعلق بعضها ببعض ، أما الحسان السابحات فمن شأنهن المراح والنشاط والابتهاج والحركة : على أن التشابه المظهرى نفسه غير موفق ، لأن منظر الأبنية الضخام العتيقة فى النهر لا يماثل فى شىء منظر العذارى السابحات .

وقد تجىء الصورة نابية غامضة كقوله فى المعراج :

العرش تحتك سدة وقوائما ومناكب الروح الأمين وطاء

لأن وضع العرش تحت النبى غير مفهوم ، ولأن العرش لا يلائم جلاله أن تضاف إليه أعمدة وباب ، ثم أنه لا يستساغ أن يقف النبى على مناكب جبريل لأن هذه صورة لا تليق بالحامل ولا بالمحمول .

وكذلك جاء فى وصف الحديث النبوى :

أتت الدهور على سلافته ولم تفن السلاف ولا سلا الندماء

لأنه لا يليق تصوير الحديث النبوى وسلطان بلاغته بالخمر ، ولا يصح تصوير دارسيه والمعجبين بما تضمن من روعة وهداية وتشريع بشاربى الخمر ، لأن المقام أجل ، ولأن الخمر حرام فى الإسلام ، إلا إذا أراد الخمر الصوفية وهى رمز للوجد عند الصوفى .

وبعض الصور قديم مطروق كقوله :

والليث دونك بأسا عند وثبته إذا مشيت إلى شاكى السلاح كمي

وقوله :

لا يقولن امرؤ أصلى فما أصله مسك وأصل الناس طين

وقوله :

كأن الوغى نار كأن بنى الوغى فراش له فى ملمس النار مأرب

الصورة فى أدب الرافعى

الصورة فى أدب الرافعى

يتجلى لمن يتتبع حياة مصطفى صادق الرافعى ، ويدرس شعره ونثره أنه لم يكن شاعراً فى قالب إنسان، بل كان إنساناً فى قالب شاعر ، لأن الشاعرية قوامه وكيانه .

فقد كان شاعراً فى يقظته إلى الهمسة الخافية ، وفى إدراكه الخالجة المتوارية وفى انفعاله بالحدث الذى قد يمضى عابراً لا يكاد يلتفت إليه أحد .

وكان شاعراً فى تخير الكلمة ، واصطفاء الجملة ، والانطلاق إلى آفاق من الخيال يسبح فيها فنه وافتنانه ، ليعبر عن عواطفه وأفكاره .

ولقد صار من الأصول الفنية التى يكاد النقاد يجمعون عليها أن الصورة الأدبية هى الوسيلة الفنية التى يصور بها الأديب تجاربه ، لينقلها إلى الناس ، فيشاركوه فى عواطفه وفى أفكاره .

وليست الصورة الأدبية هى التشابه الظاهرى الذى تدركه العيون أو الآذان أو غيرهما من الحواس ، بل هى التصوير لما أحسه الأديب فى أعماق نفسه من مشاعر ، ولهذا قيل إن الشعر ضرب من التصوير .

والحق أن الرافعى شاعر رسام وكاتب مصور ، وأرجح أنه لو لم يكن أديباً لكان رساماً ، لأنه ذو مقدرة على اقتناص الأخيلة ، وعلى رسمها بتعبيره

---

* ألقيته فى مهرجان الرافعى بطنطا مايو ١٩٦٩ ونشرته مجلة الثقافة .

المسعف ، ولأنه ماهر فى رسم صور جزئية يتلو بعضها بعضا لتصنع الصورة الكلية للفكرة أو للعاطفة فى إطار جميل رائع .

ويصور الرافعى فى شعره وفى نثره صفات وسمات ، لعل من أبرزها .

— ١ —

أنها تتلاحق وتتتالى ، فترسم أحياناً منظراً جميلا أو عدة مناظر موفقة لا ندرى أى أجزائها أجمل وأبرع .

فمثلا يصف الربيع فى الصباح ، فيتخيل الصباح إنساناً جميلا سفر عن وجهه ، فسطعت عليه أشعة الشمس فزادته بهاء ، وفى هذا الوقت بكرت إلى النهر لتملأ جرتها فتاة ريفية ممشوقة القد ، خفيفة الخطو ، تمشى على حذر واستحياء ، كأنها غزال خائف يترقب فيتلفت هنا وهناك ، ويسترق الخطا استراقا ، وهذه الفتاة ذات جمال مطبوع ساحر ، وذات جمال آخر أضفته عليها مباهج الطبيعة من حولها .

ثم تخيل الروضة بسمة تفتر عن رُضاب مثل رضاب هذه الحسناء الذى يتشهاه ويتمناه :

ولاح الصبح يُسْفِرُ عن جبينٍ ... عليه الشمسُ حاليةُ السُّطوعِ
وقد بكَرَتْ لتملأَ جَـرَّتَيْها ... فتاة الريف كالرشأ المَرُوعِ
فـورَّدت الطبيعـةُ وجنتَيْهـا ... ونضَّر وجهَها الحُسْنُ الطبيعى
فثغرُ الروض يَبْسِمُ عـن لماها ... وإن لم تشف ريقتُـه ولوعى
مكَحَّـلةٌ ولا كُحْـلٌ ولكنْ ... سِـلِ الظبيات عن ذاك الصنيع

وصور قرص الشمس وهو يتوارى وقت الغروب فى مياه البحر نارا سقطت

على البحر فجعل يطفئها، وصور قرص الشمس الملتهب دينارا من ذهب منحته السماء البحر وقد بسط لها كفه يترقب عطاءها :

إني أرى الشمس تحت البحر مطفأة ... والماء ما زال ذا بأس على النار
كأنما هو كف الأرض قد بسطت ... إلى السماء فجادتها بدينار

وراقه منظر زهرات الفول وهى نائمة قبل أن تشرق الشمس عليها، وفوقها قطرات من الندى تترقرق ، فصورها فتيات نائمات فى أسرتها الحريرية ، ثم جاء الفجر فأيقظهن ، فأفقن فى شبه سبات ولما تزل عيونهن نواعس ، كأنها عيون أطفال صغار هوم النوم عليها، وهذه القطرات المترقرقة على الأزهار تشبه دموع الدلال والإغراء التى تترجرج فى أجفان الحور الفاتنات:

نائمات بروضها فى سرير ... بين خز وسندس وحرير
هزها الفجر فاستفاقت كما ترف ... بعد الكرى جفون الصغير
جال فيها الندى كما حير الدمع ... دلال الهوى بأهداب حور

وكذلك قوله فى كتابه أوراق الورد: «أما ألم الحب فذاك حين يأتى على اللحم والدم معنى لو تجسم لكان هو الذى يصهر الحديد فى موج من لهب النار ، ويحطم الصخر فى زلزلة من ضربات المعاول .

هناك الألم المدمر لا يكابده إلا إنسان كأنما يراد خلقه مرة ثانية، فيهدم ويبنى ، أو يراد تنقيحه ، فيتغير ويبدل » .

— ٢ —

وصوره حسية ، ومستمدة من الطبيعة، كقوله فى وصف ليل بقرية بحمدون السورية :

طلع الفجر فى ربوع بحمدو ... ن يزيح الدجى ليبدى النهارا

سَحَرٌ يسحر العقول ويُصْبِي ويرد المُنَى أخْتاً وقارا
تتراءى النجوم فيه لعيني ساهيات كأنهن سُكَارى
يتهافتْنَ كلما اضطرب النو ر كما تُسْقِطُ الغصون الثمارا
كل حسناء حيثما تنفض النو م تراه بثغرها أنوارا
منظرٌ فتنةُ المصوّرِ والشا عر كلٌّ يثور فيه مثارا
يُنْطِق الروحَ بالحنين إليه مثلما تُنْطِقُ اليدُ الأوتارا

وكذلك يقول فى أوراق الورد . « رأيت عندك الفجر ، وأخذت منه نهارا أحمله فى روحى لا يُظْلِم أبدا .

وخالطت عندك الربيع ،وانتزعت منه حديقة خالدة النضرة فى نفسى لا تذبل أبدا .

وجالست عندك الشباب ، وترك فى قلبى من لحظاته ما لا يهرم أبدا » .

— ٣ —

وهذه الصور الحسية المستمدة من الطبيعة كثيرًا ما تتحرك، فتضيف إليها الحركة طرافة وحياة ، كقوله فى وصف راقصة .

ثم انبرت فاتنةٌ تميل مَيْلَ الثَّمِلِ
تهتز فى كف الهوى هزَّ حُسام البطل
كالشمس فى ثيابها وظلها المنتقل
كأنها عصفورة وانتفضتْ من بلل

وقوله فى أوراق الورد . « تشتمل نفس العاشق على آفاق واسعة من جمال الخليفة ما دام فى نفسه الحب ، كما تحيط العينَ بالأفق فتحويه ما دام فى العين البصر » .

— ٤ —

وتتصف صوره كلها بأنها وليدة تجاربه ومشاهداته، فلم يعمد إلى سبحات الوهم أو شطحات الخيال الغامض ، ولم يتعمد أن يسطو على صور لشاعر سواه .

فمثلا رأى لاعبي الكرة يتداولونها بأقدامهم فلا تستقر وسمع الكلاب الضالة تنبح ولكنها لا تحرس ولا تخيف واستمع للضفادع تنق ولا شيء لها غير النقيق ، فاستمد من هذا تصويره للجيش الإيطالي في حرب طرابلس ، فقال .

رميتمونا بجند لا ثبات لهم ... إلا كما ثبتت للأرجل الأكر
يا رامي الشهب بالأحجار تحسبها ... كالشهب هيهات ينسى طبعه الحجر
أسطولهم أم كلاب البحر تنبحنا ... أم الضفادع قد ضجت بها الغدر

ورأى البهائم ترعى في الحقول أو على شطآن الترع ، ورآها أحياناً تتعقب أعواداً يحيط بها الشوك ، غافلة عما حولها من أذى ، فشبه بهذه الصورة إنساناً يبطره غناه ويطغيه ، فيغفل عما يجره الطغيان من عوامل قد تؤدى إلى الضعة بعد الرفعة ، أو إلى الهلاك بعد السلامة :

أرى الإنسان يطغى حين يغنى ... وما أدنى الهبوط من الصعود
كما تعمى البهائم حين ترعى ... عن الشوك الكثير لأجل عود

— ٥ —

ولقد ينزع إلى صور دينية أو صوفية ، متأثراً بنشأته وثقافته وتدينه وسلوكه ، كقوله في أوراق الورد : « يبدع لي الحب فكرة عنك لو هي كانت

فى خاطر ملاك من الملائكة يمرّ بها فى السماوات لما زادت ، ولا ارتفعت عما هى فى نفسى ، ولو دخل بها الجنة » .

وقوله : « أيها العطر لقد خرجت من أزهار جميلة ، وستعلم حين تسكبك هى على جسمها الفاتن أنك رجعت إلى أجمل من أزهارك ، وأنك كالمؤمنين تركوا الدنيا ، ولكنهم نالوا الجنة ونعيمها » .

— ٦ —

ونلاحظ أنه قلما صور الشيء المحسوس بالمعنى ، كقوله فى وصف ما كرة تصنعت الحب ، فجاءت فى هيئة العاشقة الوالهة تعلن شوقها ، وتنفس عن لوعتها بآهات وأنات .

ما البحرُ مُلْتطما تضارب وَجْنهُه	كالغيظ فى صدر امرىء يتردَّد
يَثِبُ العواصف فوقه وَثْب الجنو	ن يظل يَبْرُقُ إذ يهيج ويَرْعد
بأشدَّ من أنثى تكافتَ الهوى	وأتت بحيـلة ضعفها تتنهد

فهو يشبه البحر الهائج بالغيظ الثائر ، ويشبه هجمات العواصف بوثبات الجنون .

— ٧ —

على أن بعض صوره لم تسلم من المبالغة ، إما لأن عاطفته كانت أقوى من تصويرها بغير هذه المبالغة ، وإما لأنه أراد أن يأتى بجديد لم يسبق إليه ، فجاء هذا الجديد متكلفاً غير مقبول ، وإما لأنه استمد من عقله لا من قلبه ، فكان التصوير غير مقبول ، كقوله :

وأقلُّ الغرامِ عندى أننى ... بين قومى على الغرام دليل

وقوله :

سلونى أنبئكم فلم يدر ما الهوى ... سواى ولا فى الناس مثلى من صبّ
إذا شعراء الحب عُدّوا فإننى ... لشاعر هذا الحسن فى العُجْم والعُرْب
وإن أنا ناجيت القلوب تمايلتْ ... بها نسمات الشِّعر قلباً على قلب

كما أن بعضها متداخل متراكب لم يسلم من إبهام وغموض .

أما بعد :

فهكذا كان مصطفى صادق الرافعى كلفا بالتصوير فى شعره وفى نثره ، وليست هذه الكلمة إلا كالمثال من القاعدة ، أو المطلع من القصيدة ، أو الثمرة من الشجرة ، أو الزهرة من الحديقة .

الاتجاه النفسي في دراسة العقاد النقدية

الاتجاه النفسى
فى دراسات العقاد النقدية

اتجه العقاد فى أعماله الأدبية كلها إلى استكناه النفوس، وتحليل نوازعها. ورد ما يصدر عنها إلى بواعث قد تخفيها أستار من الأحداث والملابسات وأحكام الناس، فتراه فى العبقريات يدرس الشخصية ومعالمها، ويتلمس مفتاحها، وتراه فى شعره وفى نقده محللا ومعللا ومنقباً عن الدخائل، كأنما يفحص بالمجهر عن شىء فى سائل.

يقول فى دراسته لجميل بثينة. «وقد عنانا فى هذا الكتاب أن نوفق بين البواعث النفسية، والعوامل الطبيعية فى سيرة جميل وبثينة، وأن نفهم الأدب على مصباح من علم النفس، ومن حقائق الطبيعة، فلا نرجع به إلى لفظ تلوكه الأفواه، بل نرجع به إلى وشائج تمتزج بالأبدان والأذهان(١).»

ويقول صديقه الأستاذ محمد طاهر الجبلاوى: «وقعت فى أيدينا فى تلك الأيام قصة الأكاذيب للكاتب الفرنسى بول بورجيه، وهو من رواد القصة النفسية، فقرأها العقاد، وقرأتها أكثر من مرة، وكنا نعجب لأحداثها التى تنطبق على ما نحن فيه، ونتحدث عنها فيما بيننا.

وللعقاد إعجاب كبير بهذا الكاتب، فمذهبه القائم على التحليل النفسى هو مذهب العقاد الذى يتحراه فى القصة وفى الشعر (٢).»

---

* محاضرة ألقيتها فى دار الثقافة بالخرطوم فى ٢٩ فبراير سنة ١٩٦٧

(١) جميل بثينة.

(٢) فى صحبة العقاد، للجبلاوى.

وقد لخص العقاد المذاهب النقدية فى ثلاث مدارس : مدرسة التحليل النفسى ، ومدرسة الدراسة الاجتماعية ، ومدرسة الأذواق الفنية .

وقال إن مدرسة التحليل النفسى هى أقرب المدارس إلى الرأى الذى ندين به فى نقد الأدب ونقد التراجم ونقد الدعوات الفكرية جمعاء، لأن العلم بنفس الأديب أو البطل التاريخى يستلزم العلم بمقومات هذه النفس من أحوال عصره وأطوار الثقافة والفن فيه، وليس من عرفنا بنفس الأديب فى حاجة إلى تعريفنا بعصره وراء هذا الغرض المطلوب ، ولا هو فى حاجة إلى تعريفنا بالبواعث الفنية التى تميل به من أسلوب إلى أسلوب .

وللنقد مدرسة أخرى محترمة كثيرة الأنصار فى العصر الحديث على الخصوص بعد استفاضة البحوث حول الدعوات الاجتماعية ، وعلاقة الأديب بمطالب عصره ، وموضع الملاحظة على هذه المدرسة أن الذى يعرفنا بأحوال المجتمع فحسب لا يستطيع أن يعرفنا بأسباب الفوارق الكثيرة التى تشاهد بين عشرات الأدباء من أبناء العصر الواحد ، ولا غنى له عن الرجوع إلى « النفسيات » مع التعويل على « الاجتماعيات » فى مسائل الأدب والتاريخ .

أما المدرسة الفنية فهى مدرسة البلاغة والذوق ، ومدرسة المعانى الرائعة والتعبير الجميل ، وهى تلجئنا لا محالة إلى ذوق الأديب وذوق الناقد على السواء ومتى وصلنا إلى الذوق فقد وصلنا إلى النفسيات ، و وصلنا قبلها إلى الاجتماعيات على الإجمال(١) .

وليس من غرضى المفاضلة بين هذه المدارس ، أو مناقشة العقاد فيما ذهب إليه ، بل سأكتفى بعرض أربعة نماذج من دراسات العقاد النفسية فى ميدان الأدب وحده ، وأعقب على كل منها بما أراه .

---

(١) مجلة قافلة الزيت ، عدد مارس ١٩٦١ .

النموذج الأول

أجود الغزل

— ١ —

للقدماء رأيان مختلفان فى أحسن الغزل وأجوده، فمنهم من يؤثر الغزل الذى يُضْفِي على المحبوب هالة من الجمال ، فلا يلحق بها عيب ولا نقص ، حتى ليصور محبوبه مثلا أعلى فى الملاحة والحسن والإغراء .

وهؤلاء يخلطون بين العشق والاستحسان ، وهما فى حقيقتهما مختلفان ؛ لأن الاستحسان قد يكون من عاشق ، وقد يكون من غير عاشق ، ولأن العشق ليس معناه أن المرأة المعشوقة أجمل فى نظرى عاشقها من كل امرأة فلا غرابة فى أن يحبها وهو عارف بعيوبها ، وعالم بمحاسن غيرها ، ولكنه لا يحبها

ثم إن الحب قائم على الاضطرار لا على الاختيار ، فإذا رأى المحب سيئات من محبوبه ، وبقى على حبه كان هذا أدل على قوة الحب من استمراره مع الاستحسان والاختيار .

ومعنى هذا أن المدرسة التى تجعل الإطراء والاستحسان مقياس الجودة فى الغزل تجهل بواعث الغزل الجيد وتبعد عن حقيقته .

ومنهم من يتخذ رقة الغزل والمبالغة فيها مقياساً لجودة الغزل ، فالمحب الذى يبكى أغزل ممن لا يبكى ، والذى يبكى كثيراً أغزل ممن يبكى قليلا ، والذى يتذلل ويتضرع أغزل من الذى يثور ويتبرم ، والذى يبسط خده موطئاً لقدم محبوبته أغزل ممن يترفع .

وهذا رأى فائل ، لأن العشق حُبالة لبقاء النوع ، قد يذهب العاشقان

ضحية لها ، وقد يطغى فيه الجماح والسورة والغضب على الرقة والرضا واللين والانقياد .

— ٢ —

أما العقاد فيرى(١) أن أجود الغزل ما عبر عن عاطفة المتغزل تعبيراً صادقاً، سواء أوصف المحبوبة بالحسن الفائق أم بالحسن المعتاد ، وسواء أكان رقيقاً أم غير رقيق ، فمجنون ليلى يقول :

كأن فؤادي في مخالب طائر إذا ذُكرت ليلى يَشُدُّ به قَبْضا
كأن فجاج الأرض حلقةُ خاتَم عليَّ فما تزداد طولاً ولا عرضا

ويعلق العقاد على البيتين بقوله : إن قلب السامع لينقبض ، وإن صدره ليحرج لهذا الوصف ، ومع هذا فأي شعر أبرع من هذا الشعر ؟ وأي شاعر أطبع وأعشق من المجنون ؟ .

وليس العشق الصادق حين يشب أواره بالعاطفة التي يود صاحبها دوامها ، ويستريح إلى مناجاتها ، وإنما هو غمة يود المبتلى بها لو تنقضي لساعتها ، ويقوم في نفسه عراك لا تهدأ ثائرته ، ولا يُهنأ بالغلبة فيه ، لأنه هو الغالب وهو المغلوب وكأنما ينتزع نفسه من نفسه ، فيضيق ذرعا ، كما قال المجنون :

فوالله ما في القرب لي منك راحةٌ ولا البعد يُسْليني ولا أنا صابرُ
ووالله ما أدري بأية حيلة وأي مرام أو خطار أخاطر

وهذا شبيه بقول كاتيولس Catulus الشاعر الروماني : أيتها الآلهة إن كان لك رحمة بالقلوب الصديقة المشفقة فبحق براءتي عليك إلا ما نظرت إلى عذابي ، ورثيت لما بي ، ومسحت عني هذا الوباء الماحق ، والبلاء اللاحق

(١) شاعر الغزل .

وهذه اللوعة التى تسربت رعدتها فى عروقى فنفت الهناءة عن قلبى .

ثم يوازن العقاد بين قول جُنادة العذرى :

من حبها أتمنى أن يلاقينى   من نحو بلدتها ناع فينعاها
كيما أقول فراق لا لقاء له   وتضمر النفس يأساً ثم تسلاها
ولو تموت لراعتنى وقلت ألا   يا بؤس للموت ليت الموت أبقاها

وقول المجنون :

فيارب إذْ صيرتَ ليلى هى المنى   فزنِّى بعينيها كما زنْتَها ليا
وإلا فبَغِّضْها وأهلها   فإنى بليلى قد لقيت الدواهيا

وبين قول كاتيولس : إنى لأكره وأحب ، تسألنى كيف ذلك؟ من يدرى ؟ ولكنى أحس بحقيقة هذا الأمر وشدة برحائه .

ويخلص من الموازنة إلى أن نعت الحب بأنه داهية ليس فيه شىء من الرقة والدماثة ، ولكنه وصف اتفق عليه شاعران ليس بينهما جامعة من ذوق لغة ، أو مشرب قوم ، أو وحدة زمن ، ، لأنهما اجتمعا على عاطفة إنسانية صادقة ، شاركهما فيها كل الشعراء الذين جربوا العشق .

وكذلك لايشترط فى الغزل الجيد استحسان شمائل المحبوب والمبالغة فى إطرائها ، ولا التذلل والشكوى والضراعة .

وإذاً فالغزل الجيد هو التعبير الصادق عن الحب وعن نفسية المحب ، وهو بهذه المثابة كالبحر اللجى الذى تتيه فيه العقول ، ويتسع للنقائض ، ويعج بضروب من المفآجات ليس لها انتهاء .

ولهذا كان من الخطأ أن يحصره بعض النقاد فى قالب واحد ، وهيئة واحدة أو لون لا يتبدل .

— ٣ —

وبهذا خالف العقاد أصحاب الاستحسان وأصحاب الرقة فى نقدهم قول جميل :

رمى الله فى عَيْنَىْ بثينة بالقَذَى وفى الغُرِّ من أنيابها بالقوادِحِ(١)

لأنهم عابوه إذْ سأل الله تشويه عينى حبيبته وثغرها، وهما أجمل ما يتمنى له الجمال فى وجه محبوبته ، فتجافى عن الرقة كلها حين دعا عليها ذلك الدعاء الغليظ الذى يدعو به العدو على ألد أعدائه .

وذهب العقاد إلى أن هذا البيت أدل على عشق جميل من عشر قصائد غزلية تفيض بالرقة والثناء والاستحسان ، لأنه دليل على حب برّح به ، وحار فى الخلاص منه ، وغُلب على مشيئته فيه ، وظن أن البلاء كله من جمال تلك الثنايا وتينك العينين ، فلم تبق له من حيلة إلا أن يسأل الله إتلاف هذا الجمال عسى أن يطيق بعد ذهابه سُلُوه والراحة من بلواه .

فالبيت ليل على أعمق الحب وأصدق الغزل ، ولك أن تقول إنه غزل صادق من رجل سيء ، أو إنه غزل صادق من رجل طيب فى سَورة اليأس والحيرة ، أما أن يكون مبطلا فى عشقه وغزله لأنه تمنى تلك الأمنية ، فذلك غفلة عن العاطفة التى أملته ، ولغو لا صدق فيه .

ولك أن تقول إنها أمنية رجل تغلب عليه الأنانية ، ويتلمس الراحة بما استطاع من وسيلة ، ولو كان فيها بلاء لمن يهواه ، إلا أنك لا تنسى أنه تمنى تلك الأمنية ، لأنه أحب وضاق ذرعاً بحبه ، وبلغ أقصى ما يبلغه العاشق من

---

(١) القوادح : جمع قادح وهو أكال يصيب الأسنان .

التعلق بالمعشوق والعجز عن الفكاك من أوهامه ، فهى إن شئت أنانية ذميمة لا ترضى عنها الأخلاق الكريمة ، ولكنه حب قوى ، وتعبير صادق عنه .

— ٤ —

ثم تعمق العقاد فيما لم يتعمق فيه سواه ، إذ أورد قول كُثَيِّر عزة :

ألا ليتنا يا عزَّ من غير ريبة ... بعيران نَرْعَى فى الخلاء ونَعْزُبُ
كلانا به عُرٌّ فمن يرنا يقُلْ ... على حسنها جرباء تُعْدِى وأجرب
إذا ما وردنا منهلا صاح أهله ... علينا فما ننفك نُرْمَى ونُضْرَب
وددت وبيت الله أنك بَكْرةٌ ... هجانٌ وأنى مصْعبٌ ثم نهرب
نكون بعيرَىْ ذى غنى فيُضِيعنا ... فلا هو يرعانا ولا نحن نُطلَب

ولم يعلق النقاد على الأبيات بأكثر من قولهم إنها أمنية سخيفة ، إذ تمنى كثير لنفسه ولمحبوبته الرق والجرب والرمى والطرد والمسخ ، فلم يبق مكروه لم يتمنه لها ولنفسه ، فصار جديرًا بقول القائل : معاداة العاقل خير من مودة الأحمق .

وعقب العقاد على هذا بأنهم صادقون ، لأنه ما من أمنية أدعى إلى الضحك والسخرية من هذه الأمنية .

ثم تغلغل إلى نفسية كُثَيِّر ، ليكشف عن بواعث هذه الأمنية الحمقاء ، فردها إلى قماءته ، ودمامة منظره ، وحماقته وضعف حيلته ، وإلى غيرته على عزة التى كان يخشى أن يغلبه عليها كل المزاحمين ، لأنهم أجمل منه منظرًا ، وأقدر على الإغراء والاستهواء ، وقد فكر كثير فى الوسيلة التى يأمن بها على صاحبته ، فلم يجد غير ابتلائها بالبلاء الذى يُزَهِّد الناس فيها ، فتصير له وحده ، لأنه لا يستطيع أن يتحرر من حبها ، ولأنه عاجز عن حمايتها ، وهو

لا يملك من الوسائل ما يملكه غيره من المنافسين .

على أنه ليس بمستبعد أن كثيرًا رأى البعيرين الموصوفين رؤية العيان ، لأن هذا منظر لا يندر أن يشاهده ابن البادية مرات ، فخيل إليه أنهما سعيدان حيث يسرحان ولا يطلبهما راع ولا مالك ؛ فتمنى السعادة على هذا المنوال .

وإذا كان سخيفاً فى أمنيته – ولا شك فى ذلك – فهو محب صادق فى التعبير عن حبه ، فلا علاقة بين سخف أمنيته واتهام عاطفته ، لأنه أحب فنغصه الحب ، وحرمه الراحة من طريق غير هذا الطريق .

– ٥ –

ومن هذا يتبين أن العقاد يرجع جودة الغزل إلى ينبوع الغزل نفسه وهو الحب ، وإلى صدق التعبير عن الحب ، فإذا كان الشاعر محباً وعبر عن حبه فى صدق فغزله جيد ، وإذا كان غير محب أو كان محباً لم يستطع التعبير عن حبه فغزله ردىء .

لكن هذا المقياس – على أنه قيم – ليس دقيقاً الدقة كلها ، لأنه يعوزه شىء آخر هو جودة التعبير عن العاطفة الصادقة ، وبراعة تصوير العاشق لما يجيش بنفسه .

وذلك أن التعبير قد يتصف بالصدق ولكنه لا يتصف بالبراعة ، إذ أن المحب قد تجيش نفسه بعواطف صادقة ، ويحاول تصويرها بفنه القولى فلا يستطيع ، فيتمهل حتى تهدأ نفسه ، ثم يسترجع مامضى ليعبر عنه تعبيرًا ليس صادقاً فحسب ، بل يجمع الصدق والنزوعة معا ، فيفلح مرة ويخفق مرة ، ويجىء فى شعره الجيد ويجىء فيه غير الجيد .

لهذا كان هكسلى Huxley محقاً فى قوله(١) : « يجب أن نتذكر أن أن قيساً وليلى وأنطونى وكليو باترة موجودون بيننا بكثرة لا تخطر على بالنا ، وذلك أنه يصعب على عابر الطريق أن يقرأ على وجوه الناس مدى عمق عواطفهم ، وكل وسائله فى هذا أن يحدس ويستنتج من تصرفهم وكلامهم ، لأن ألفاظهم فى الأكثر والأعم لا تسترعى الانتباه ، إذ أن التعبير الرائع هبة لم يمنحها الخالق إلا لفئة نادرة من الناس ، فليس ضعف التعبير دليلا على ضعف الشعور ، بل من المؤكد أن عدد المعبرين فى جمال فنى أقل بكثير جداً من عدد المحبين » .

ولو أن الصدق الشعورى والصدق التعبيرى هما وحدهما المقياس الذى نتعرف به الجودة لكانت قصائد شعراء الغزل على قدر واحد من الجودة ؛ لأنهم جميعاً صادقو الشعور ، صادقو التعبير ، ولكانت كذلك قصائد الشاعر المحب على درجة واحدة ، فلا نستطيع ترجيح قصيدة ، ولكن الواقع غير ذلك ، لأننا حينما نقرأ شعر عروة بن حزام أو قيس أو جميل أو العباس ابن الأحنف مثلا نفضل قصيدة على أخرى ؛ وذلك أننا لم نكتف بصدق الشعور وصدق التعبير ، بل أضفنا قياساً آخر يتصل بالافتنان فى تخير اللفظ ، وانتقاء التعبير ، وبراعة التصوير ، وحلاوة الجرس .

ومعنى هذا أننا أضفنا إلى المذهب النفسى المذهب الفنى فلم نستغن بأحدهما عن الآخر .

---

(1) Tests and Pretexts. Aldous Huxley. P. 147.

النموذج الثانى

أبو نواس والنرجسية

فعل العقاد البحث فى النرجسية من حيث دلالتها ونشأتها وبواعثها ومظاهرها ، معتمداً على آراء الثقات من علماء النفس المحدثين .

ثم حاول تطبيقها على أبى نواس(١) ، فألبسه ثوباً فضفاضاً لا ينسجم على قده ، وحكم عليه أحكاماً تخرج به عن سمته وحده .

— ١ —

فالنرجسية شذوذ دقيق يؤدى إلى ضروب شتى من الشذوذ فى غرائب الجنس ، وبواعث الأخلاق ، لأنها هيام الشخص بجسده أو بنفسه إلى حد الاستغراق والعبادة والتدليل والعشق .

ولها شعاب عدة ، تخير العقاد منها ما يتصل بدراسة أبى نواس وموضوعات عشقه وغزله ، وأهمها شعبتان : إحداهما الاشتهاء الذاتى «Auto - erotism» والأخرى التوثيق الذاتى **Auto fetishism** ، ومن أبرز ما تلازمهما ظاهرة التلبيس أو التشخيص ، وظاهرة العرض ، وظاهرة الارتداد .

أما ظاهرة التلبيس أو التشخيص فهى عشق الإنسان ذاته عشقاً شهوانياً ، فالشاذ فى حب جنسه أو حب الجنس الآخر يجد طلبته ، ويقضى مأربه ، أما الذى يشتهى بدنه فليس فى وسعه أن يقضى مأربه منه بغير التحايل على ذلك

---

(١) أبو نواس : الحسن بن هانىء .

بالتلبيس أو التشخيص ، ولهذا يلبس شخصيته شخصاً آخر يتوهم أنه هو ذاته أو يحله محل ذاته .

وأما ظاهرة العرض فتشمل الإظهار بجميع درجاته، فقد يشاهد المصاب بها وهو يكشف عورته ، ويعرض أعضاءه ، ويتعرى من ثيابه ، وإن كان الأكثر الأعم أن هذا لا يكون إلا فى حالة الجنون وما يقاربه .

وأما الارتداء فإنه يعترى النرجسيين من تلبيس ذواتهم بغيرهم ، أو خلع ذواتهم على شخص آخر يتلمسون المشابهة بينهم وبينه ، فينتحل النرجسى صفة القوة من قوى يشبهه فى القوام والملامح ، ويخالفه فى القوة، أو يخلع ذاته على امرأة مشتهاة يجد شبهاً بينها وبينه .

— ٢ —

وقد حاول العقاد أن يطبق هذه الظواهر على أبى نواس، وأن يفسر بها جميع أحواله :

١ – فشذوذه الجنسى نرجسية مظهرها التلبيس والتشخيص .

وقد بدا هذا التشخيص فى غزله حين اختار لهواه غلاماً ألثغ مثله، وإن كانت لثغة أبى نواس بالراء ولثغة الغلام بالسين :

بأبى ألثغ لا جمجمته   فقال فى عثنج وإخناث
لما رأى من خلافى له   كم لبقى البناث من الناث

وبدا فى اختياره غلاماً لا يحسن النطق بالراء تكسيراً لها :

يكسر الراء وتكسيرها   يدنو مع السقم إلى الحتف

وبدا فى إعجابه بالبحة التى كانت من خواص صوته، فقال فى وصف غلام :

وبه غُنّة الصَّبا تعتليها ... بُحّة الاحتلام للتشريف

وكذلك ذكر مثال الحسن فى الذكور والإناث ، فى قوله :

ولو أنها فى الحسن كانت كيوسف ... وبلقيس أو كانت كخط مثال
وقالت تزوجنى على مهر درهم ... لقلت اعزُبِى عنى فمهرك غال

ثم ذكر العقاد أن الجارية جنان كانت أحب معشوقاته إليه، وأنها كانت تحب النساء وتميل إليهن، وظن أن كلف أبى نواس بها ربما كان من ظواهر نرجسيته ، لأن لازمة التشخيص تتحقق بها على نحو لا يتحقق بغيرها .

ورجح أن هيامه بالجارية (حُسْن) راجع إلى تشابه اسمها واسمه ، حتى أنه تشفع إليها بهذه المشابهة فى قوله :

إن لى حرمة فلو رُعيت لى ... لا جوارٌ ولا أقول قرابه
غير أنى سمىُّ وجهك لم أخْـ ... ـرِمْهُ فى اللفظ والهجا والكتابه

٢ — وطبق عليه ظاهرة العرض ، ليبين أنه لم ينظم شعرًا فى الخمريات أو الغزل أو المجون إلا تبين منه أن الجهر بالمحرمات أدنى إلى هواه من الاستمتاع بها .

وذلك أن بعض الناس قد يولع بالإباحيّة ويجاهر باللذات ، ويطيب له الخروج على العرف وعلى المألوف ، لمهانتهم على أنفسهم وعلى الناس ، فلا يبالون ، لأنهم نسوا شخصيتهم ، وبعضهم قد يقترف هذا لتعاليهم على العرف وعلى الناس ، ولرغبتهم فى تقرير شخصيتهم .

ولم يكن أبو نواس من الفريق الأول ، لأن أخباره وأشعاره تنفى ذلك عنه ، وإنما كان من الفريق الثانى المبالغ فى تهتكه ومجاهرته بما يقترف من آثام ، ولهذا يقول :

ألا فاسقنى خمرا وقل لى هى الخمرُ ... ولا تسقنى سرا إذا أمكن الجهر

ويقول :

أطيب اللـذات مـا كا ن جهـار بافتضـاح

وله فى هذا المجال شعر كثير .

٣ — ثم حاول العقاد أن يطبق عليه ظاهرة الارتداد ، من وصفه لنشاطه وكلفه بالخليفة الأمين ، وولعه بالجارية « حسن » .

— ٣ —

وليس من شك فى أن العقاد كان بارعاً فى هذه المحاولة ، إذ استطاع أن يلخص معالم النرجسية ، ثم حاول أن يطبقها على حياة أبى نواس وشعره .

ولكن هذا لا ينفى أن فى التطبيق ألواناً من مظاهر التمحل والاعتساف .

١ — فلا يصح أن نتخذ من غزل أبى نواس بغلام ألثغ دليلا على ظاهرة التشخيص ، لأن لثغة ذلك الغلام تغاير لثغة أبى نواس ، ولأن الشعراء كانوا كثيراً ما يستملحون أمثال هذه اللثغة فيمن يحبون من إناث وذكور ، كما كانوا يستملحون اللحن من الفتيات ومن الحسان .

وليس من الصواب أن يكون إعجاب أبى نواس بالبُحَّة فى صوت غلام آخر مظهراً للتشخيص ، فإن مصدر هذا الإعجاب الاستملاح والاستطراف والارتياح إلى هذا الصوت ، وهو إعجاب صالح لأن يصدر عن أبى نواس وعن غيره من الرجال .

وأما تمثيله للجمال الفائق بيوسف فإنه تمثيل للتفوق والامتياز ؛ ولا دليل فيه على تشخيص وتلبيس ، إذ أنه أراد أن يصور إصراره على رفض الزواج من المرأة التى وصفها ، مهما تبلغ من الإغراء ، فقال إنها لو بلغت من الجمال

درجاته، ومهما يهبط مهرها إلى أدنى دركاته فإنه ، لن يرضاها زوجة له ، وإذا كان قد ضرب المثال بيوسف وببلقيس ، فإن الشعراء والقصاص قد نصبوهما مثلا أعلى للجمال .

ثم إن حبه للجارية (جنان) لا ينبيء عن تلبيس وتشخيص ، بدعوى أنها كانت تحب النساء وتميل إليهن ، فإن حبها لم يكن مقصوراً على النساء دون الرجال، وهى فى الوقت نفسه جارية مغنية لا يتطلب منها أن تنافس الحرائر ، أو تكاشف النساء بالعداء .

على أنه أحب الجارية (دنانير)وتغزل بها ، وتغزل بعشر من الجوارى الحسان ، منهن (عنان) التى غلبته فى مساجلة بالأدب المكشوف على مسمع ومرأى من وجوه بغداد .

فلم يكن حب أبى نواس مقصوراً على الجارية (جنان) ، ولم يكن حبه لها عميقاً طويل الأجل ، فإنه أحبها فى مطلع شبابه ، ولم يلبث حبه أن خمدت جذوته ، وكان معاصروه يشكون فى صدق هذا الحب وحرارته .

كذلك يبدو التكلف فى الاستدلال على التشخيص بأن أبا نواس هام بالجارية (حُسْن) لأن اسميهما متشابهان ، فإن هذا الهيام واقع لا محالة ، سواء أكان اسمها ذلك أم غير ذلك ، وإلا فلماذا هام بدنانير وعنان وجنان ونرجس ، وليس بين اسمه وأسمائهن تشابه أو اتفاق ؟ .

ومن التضييق على أبى نواس أن نحجر عليه التلاعب بالاسمين المتشابهين عن طريق المصادفة ، لا عن طريق التعمد والاختيار ، كما تلاعب المتنبى فيما بعد باسم سيف الدولة ، فشقق منه ألواناً من المعانى والأفكار والخيال .

٢ — وعجيب أن يتخذ العقاد من مجاهرة أبى نواس بخلاعته دليلا على نرجسيته ، وعلى ظاهرة العرض .

فقد عرف العالم عشرات من الأدباء المولعين بمثل هذه المجاهرة ، لأنهم

يجدون فيها أنواعاً من التعالى أو التظاهر أو التفرد بالخروج على المألوف أو الاستهانة بالقيم التى يقدرها المجتمع أو التعبير الصادق عن الواقع إلخ .

من هؤلاء فى الأدب العربى الأعشى ، وسحيم ، وامرؤ القيس ، وعمر بن أبى ربيعة ، ونصيب وابن سكرة ، وكثير من شعراء اليتيمة .

ومنهم فى الأدب الغربى بيرون وكازانوفا ، ولم يوصف واحد من هؤلاء أو أولئك بالنرجسية أو بظاهرة من ظواهرها المعروفة .

فقد كان بايرون يجاهر بعلاقاته ، ويسجلها فى شعره(١) .

وعرض كازانوفا(٢) قصة حياته عريانة فى غير احتشام ، على ما فيها من مثالب ومخاز تحمر منها وجوه أكثر المجان من رجال ونساء ، ولم يكن غرضه تبرير أحداثه أو التهوين من قيم المجتمع ، أو المباهاة بما اقترف ، وإنما كان راوية دقيقاً أميناً لا يعنيه إلا التسجيل للخير وللشر وللحرام وللحلال .

٣ — وإذا كان أبو نواس جميل الوجه ، حسن السمت ، مغترا بفراهة بدنه ، فقد كان أبو القُشَيْر كذلك ، وكان يفاخر أبا نواس بجماله .

ذكر ابن منظور فى أخبار أبى نواس . قال أبو القُشَيْر . نظمت الشعر وأنا غلام وأبو نواس غلام ، وكنا جميعاً نضرب بالعود ، وكنت أحسن وجهاً من أبى نواس ، وأبو نواس أطبع ، فتفاخرنا بالشعر وغيره ، ثم قلت له : إنى أجمل منك وجهاً ، فقال : بل أنا أحسن منك وجهاً وأفْرَه .

والذى يتبين من هذه المفاخرة أن أبا القُشَيْر فاخر أبا نواس بجماله ، ولم يكن شعوره بتفوقه فى الجمال ناشئاً عن نرجسية ، وأن أبا نواس رد على الفخر

---

(١) بايرون : أمينة السعيد .

(٢) كازانوفا : ستيفان زفايج ، ترجمة دار الهلال .

بمثله ، وزاد عليه قوة جسمه ، فلا دليل فى هذا على نرجسية أبى القشير أو أبى نواس .

على أن كثيراً من الغلمان كانوا وما يزالون فى هذه السن يتباهون بجمالهم وفراهة أجسامهم ، حتى ليعارضون عضلات بعضهم بعضلات بعض ، وحتى ليتصارعون ويتسابقون ، وهم أبرياء من مرض النرجسية وأعراضها .

٤ ــ اعتمد العقاد على وصف ابن منظور لأبى نواس بأنه كان حسن الوجه ، رقيق اللون ، أبيض ، حلو الشمائل ، ناعم الجسم ، منسدل شعر الرأس ، ألثغ بالراء يجعلها غينا ، وكان نحيفاً ، وفى حلقه بُحة لا تفارقه .

وذكر بعض أبيات لأبى نواس ، كقوله :

تتيــه علينا أن رزقْتَ ملاحــة ... فمهلا علينا بَعْضَ تيهك يا بَدْرُ

فقــد طالما كنــا مِلاحا وربما ... صــددنا وتِهْنــا ثم غَيَّرنا الدهر

واستنبط العقاد من هذا أن ملامح النرجسية تكاد تتمثل من هذه الأوصاف ، فالبياض والرقة والنعومة والملاحة والشعر المنهدل أشبه ما تكون بملامح الفتى (نرجس) ، الذى حنا على الجدول فاستحال نرجسة ، واتخذه الأسطوريون اليونان نموذجاً للجمال .

وقال إن اللثغة وبُحة الصوت تشيران إلى تكوين وسط بين كيان الصبى وكيان الشاب الناضج .

ولكن هذا الحكم فيه تجوز كبير ، فليس من الحتم اللازم أن يكون بياض البشرة ونضارتها وتهدل الشعر علامة من علامات النرجسية ، فطالما اشتهر رجال من الشرق والغرب بصفات الملاحة والجمال ، وهم بعداء عن النرجسية أيما بعد .

حسبنا أن نذكر منهم أبا القشير الذى فاخر أبا نواس بجماله ، ونَصَّرَ

ابن حجاج الذى افتتن به نساء المدينة ، فاضطر الخليفة عمر بن الخطاب إلى نفيه منها ، وذلك أنه كان يعس فى ليلة كعادته، فسمع امرأة تنشد شعراً وهى فى بيتها ، منه :

هل من سبيل إلى خمر فأشربها   أم من سبيل إلى نصر بن حجاج؟

فلما أصبح الصباح استدعى نصراً ، فإذا هو شاب جميل يفتتن بمثله النساء فأمر بحلق شعره ، وهو يريد التقليل من جماله ، فازداد جمالا ، فأمر بنفيه إلى البصرة منعاً للفتنة .

ومنهم بايرون ، فقد كان آية من آيات الجمال ، وكان شعره الذهبى يتهدل على جبينه فى خصلات متموجة ؛ وله عينان زرقاوان يخالطهما لون رمادى ، وتحيط بهما أهداب غزيرة طوال ، وشفتاه قرمزيتان ، وأنفه رقيق لطيف ، وقده رشيق ، و بشرته شفافة كأنها البلور ، وصوته رخيم كأنه نغمات وألحان ، وأما اللثغة بالراء فإنها اضطراب فى النطق يصيب كثيراً من الناس ، وقد اشتهر بها واصل بن عطاء ، وكان يهرب منها باجتناب حرف الراء فى دروسه وفى خطبه .

وأما بحة الصوت فليست دليلاً على تكوين وسط بين كيان الصبى وكيان الشاب الناضج ، لأنها ضعف فى الحنجرة يعترى بعض الأسوياء الذين لا يوصفون بلون من ألوان الانحراف ، سواء أكانوا من الذكران أم من الإناث .

كذلك ليست الضفيرة المرسلة من شعر رأسه دليلا على أن أهله وجدوه شبيهاً بالبنات فأرسلوا ضفيرته ، إذ أن بعض الناس كانوا وما زالوا يرسلون ذوائب وضفائر للذكور الصغار ، للتدليل والتمليح فحسب ، وإن كان شكلهم أبعد ما يكون عن الجمال وعن الشبه بالإناث .

وإذن فلا مندوحة من العناية بالأحوال الاجتماعية والسياسية فى دراسة

شخصية أبى نواس، لأن شخصيته وليدة نفسيته من ناحية ، ووليدة بيئته من ناحية ، ومعنى هذا أن نعتمد على المدرسة النفسية والاجتماعية معاً فى دراسة شخصيته، أما دراسة فنه فلا بد أن نعتمد فيها على المدرسة الثالثة، وهى المدرسة الفنية ، مع هاتين المدرستين.

النموذج الثالث

تطير ابن الرومى

— ١ —

لم يعرض أحد من القدماء أو المحدثين إلى دراسة ابن الرومى الاعرج على تطيره ، وضرب الأمثلة من حياته ومن شعره على تشاؤمه .

وأغلب الظن أن الأحداث التى ذكروها عن تطيره حقائق واقعة ليس فيها تزيد و لا مبالغة ، لأنه هو نفسه سجل تشاؤمه فى شعره ، ودافع عنه إذ كان يعرف عن نفسه أنها شديدة الحذر ، ويرى أن الحذر سلم إلى الأمان :

فآمن ما يكون المرء يوما   إذا لبس الحذار من الخطوب

وكان يحتج للطيرة ، ويقول إن النبى صلى الله عليه وسلم كان يحب الفأل ، ويكره الطيرة ، أتراه كان يتفاءل بالشىء ولا يتطير من ضده ؟ . وقال إن النبى مر برجل وهو يرحل ناقته ويقول يا ملعونة ، فقال : لا يصحبنا ملعون ، وذهب إلى أن الطيرة أصيلة فى الطباع ، وإن كانت أظهر فى بعض الناس من بعض .

وذكر عنه عبد الله بن المسيب أنه دخل علينا يوم مهرجان ، وعند عبد الله عدة من القيان الحسان أهدين إليه ، فيهن حولاء وعجوز فى إحدى

عينيها نكتة ، فتطير من ذلك ، ولم يظهر لى أمره ، فلما مضت مدة سقطت لى ابنة من السطح ، وجفاه القاسم بن عبيد الله ، فعزا الحادثين إلى الحولاء والعجوز ، وكتب إلىّ بقصيدة ، منها :

أيها المحتفى بحُول وعُور ... أين كانت منك الوجوه الحسان ؟
قد لعمرى ركبتَ أمرا متهينا ... ساءنى منك أيها الخُلْصان
فتَحْمُلكَ المهرجان بالحُول والعُو ... ر أرانا ما أعقبَ المهرجان
كان من ذاك فقدك ابنتك الحر ... ة مصبوغة بها الأكفان
وتجافى مزمَّل لى جليل ... لجّ فيه الجفاء والهجران
خبّر الله أن مشأمةً كا ... نت لقوم وخبّر القرآن
أفزُورُ الحديث يُقْسَلُ أم ما ... قاله ذو الجلال والفرقان ؟

وإذن فلا غرابة فيما قصوا من أحداث تشاؤمه ، فقولهم إن أبا الحسن على بن سليمان الأخفش غلام أبى العباس المبرد ، كان شاباً ظريفاً ، وكان يعبث بابن الرومى ، فيقرع بابا سحرًا ، فيقال له : من ؟. فيقول : قولوا لأبى الحسن : مُرة بن حنظلة . فيتطير ابن الرومى ، ويقيم فى بيته أياماً لا يبرحه .

وقال على بن ابراهيم كاتب مسروق البلّخى : كنت بدارى جالساً ، فإذا حجارة سقطت بالقرب منى ، فأمرت الغلام بالصعود إلى السطح والنظر إلى كل ناحية ، ليعرف من أين تأتينا الحجارة ، فعاد إلىّ يقول : امرأة من دار ابن الرومى الشاعر قد تشوّفت وقالت : اتقوا الله فينا ، واسقونا جرة ماء ، وإلا هلكنا ، فقد مات مَنْ عندنا عطشا . فأرسلت إليها امرأة من عندنا بالماء والطعام ، فلما عادت قالت : إن الباب مقفل عليهم منذ ثلاث ليال بسبب طيرة ابن الرومى ، لأنه كان يلبس ثيابه كل يوم ويتعوذ ؛ ثم يمشى إلى الباب والمفتاح معه ، فيضع عينه على ثقب الباب فتقع على جار له نازل بإزائه ، وهو رجل أحدب يقعد كل يوم على الباب ، فإذا نظر إليه ابن الرومى رجع

وخلع ثيابه ، وقال : لا يفتح الباب أحد(١) .

وذكروا أن أحد الأمراء أرسل إليه خادماً يستدعيه اسمه إقبال ، ليتفاءل باسمه ، فلما أخذ أهبته للركوب قال للخادم : انصرف إلى مولاك ، فأنت ناقص ، ومعكوس اسمك (لابقا)(٢) .

وأرسل إليه بعض أصحابه غلاماً اسمه حسن ، فطرق الباب عليه ، فقال : من ؟ . قال : حسن ، فتفاءل به وخرج ، وإذا أمام الباب حانوت خياط صلّب عليها دُرّاعتين كهيئة اللام ألف ، ورأى تحتها نوَى تمرٍ ، فتطير ، وقال هذا يشير بأن (لا تمر) ، ورجع ولم يذهب معه (٤) .

— ٢ —

وقف الدارسون على اختلاف أعصارهم عند هذا الحد ، فلم يتجاوزوه إلى استكناه تطير ابن الرومي ، واستشفاف ما وراءه من عوامل كانت السبب في نشأته وفي نمائه .

أما العقاد فإنه لم يقنع بما قنعوا به ، فجعل يحلل تشاؤم ابن الرومي ويعلل له ويربطه بعوامل نفسية ، ويلائم بينها في دقة وحصافة ومهارة وتوفيق .

ونستطيع أن نتبين من دراسته لتطير ابن الرومي أن مرجعه إلى نوع من الاختلال العصبي والاضطراب النفسي(٤) .

ذلك أنه كان ضعيف الاحتمال لحرارة الصيف ، يعاني منها ما يجعله يقول :

---

(١) زهر الآداب ١٧٧/٢ .
(٢) العمدة ٤٠/١ .
(٣) معاهد التنصيص ٤٣/١ .
(٤) ابن الرومي للعقاد ٦٥ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١٢٧ ، ١٣٠ ، ٢٢٠ ، ٢٠٩

قد مضى أكثر الشتاء وجاء الصيـ ـف يعـدو فـلا تزده البِطاءَ
يا عليمـا بمـا أكابد فيـه لا تعـاونه إن فيـه اكتفاء

وكان متوفر الحس إلى أقصى حد ، يهيج أعصابه أهون مس ، ويستفره أيسر حادث حتى أن الروائح القوية كانت تؤذيه وتصدعه ، وهذا هو السبب فى ذمه الورد ، ومدحه النرجس .

وكانت مشيته — كما وصفها هو — مشية المختلج كأن بين يديه غربالا يديره :

إن لى مشيـة أغـربل فيها آمنـا أن أسـاقط الأسفاطا

وهى مشية تشيع فى المصابين باختلال فى العصب أو العضل .

وكان مسرفاً فى كل أمر من أموره ، لا تصده عزيمة ، ولا يرده ضابط ، كان مسرفاً فى طعامه وشرابه وشهواته ، ومسرفاً فى تهكمه وهجائه ونكاته ، ومسرفاً حتى فى استقصاء المعانى ، ولا سبب لهذا الإسراف إلا توفر الحس ، والاستجابة للرغبات ، والعجز عن كبحها ، والانقياد لما تمليه اللحظة الحاضرة .

وفى رأى العقاد أن خضوع ابن الرومى لكل إحساس طارئ ، واستغراقه فيه ، لم يترك له منفذاً إلى التفكير فى عاقبته ، ويجعله لا يعدل عما يزينه له الحس والخيال إلى ما تمليه عليه الحكمة والحصافة .

وإذا كان مزاجه قد أغراه بالاسراف فإن إسرافه حتى على مزاجه ، لأن إسرافه الموكل بالاستقصاء فى كل مطلب ورغبة خليق أن يسقم جسمه ، وينهك أعصابه ، ويتحيف على صوابه ، وهو فى الوقت نفسه لم يسرف هذا الإسراف إلا وفى جسمه سقم ، وفى أعصابه خلل ، وفى صوابه شطط .

— ٣ —

ويذهب العقاد إلى أن المرء قد تختل أعصابه فينقلب جريئاً جسوراً عنيداً مقتحماً للمخاطر والأهوال ، مستهيناً بالعواقب وما يقترن بها من آثار ، وقد تضطرب أعصابه فيصير وديعاً مطيعاً ، شديد الخوف والحذر ، هياباً للصغائر ، مبالغاً فى حسبان النتائج والعواقب إلى حد التوهم . وقد كان ابن الرومى من الطراز الثانى .

كان مريض النفس ، مختل الأعصاب فتطير ، والرجل السليم لا يتطير ، لأنه يتوقع من الدنيا خيراً ، ولا يحس نفرة بينها وبين نفسه ، ولا يتسلف الفزع من مكاره موهومة ، فإذا أصابه مكروه تلقاه بعزيمة ضابطة لمشاعره ، فلا أفراط فى الجزع ، ولا استسلام للفزع .

وكثيراً ما تبلغ الطمأنينة بالرجل السليم إلى التفاؤل المستسلم للأمن الصادق والكاذب ، كما يستسلم المتطير للفزع والتوهم الصحيح والزائف .

— ٤ —

وإذن فقد كان تطير ابن الرومى مظهراً لاختلال أعصابه واضطراب نفسه وكان ضعف أعصابه وشدة حذره ومزاجه المتشائم تزين له أن يتوجس الشر فى كل شىء ، وأن يُقلِّب الكلمة أو الفكرة على ما تحتمله وما لا تحتمله من حالات ، ليستخرج منها ما يمكن أن تؤديه وتدل عليه ، وسرعان ما يتنقل ذهنه بين المعانى ونظائرها وأشباهها ، وبين الكلمات وما يجانسها ويشاكل أحرفها وأوزانها ، فلا يعوزه أن يعثر بما يوافق نفسيته الحذرة .

ومن هنا كانت كلمة (جعفر) مثلا تساوى عند (جاع وفر) وكلمة

(الخان) تذكره بكلمة الخيانة :

فكم خان سَفرًا خانُ فانقض فوقهم كما انقض صقر الدجن فوق الأرانب

بل إن خياله المتشائم امتد إلى تصحيف الكلمات ، فقال فى القينة :

لاَ تلْحَ مـن تفتنـه قينـةٌ فإن تصحيـف اسمها فتنة

وقال فى شخص أبوه اسمه هرثمة :

عائذٌ دَهْرَهُ إذا سطح النقـ ـع بمعنى مُصَحَّفِ اسمِ أبيه

وتصحيف هرثمة هزيمة .

وصحف اسم عمرو إلى عَيْر فى قوله :

يا عمرو لو قلبَتْ ميمٌ مسكَّنةٌ ياءً محركةً لم تُخْطِىء الفِقَر

ولقد استبد به الوسواس فى أواخر حياته ، فصار آفة غلابة على أقواله وأفعاله ، لا محيص له عنها ، فأفرط فى الطيرة ، واشتد خوفه من الماء ، حتى كان لا يركب سفينة ومهما تكن مأمونة ، ومهما يكن فى ركوبها من إغراء.

يدل على هذا قوله فى وصف سفر بدجلة :

وأما بلاء البحر عندى فإنه طوانى على رَوْعٍ من الروح واقب

ولم لا ، ولو ألقيتُ فيـه وصخرةً لوافيتُ منـه القعرَ أولَ راسبَ

ولم أتعلم قط مـن ذى سبـاحة سوى الغوص والمضعوفُ غير مغالب

فأيسرُ إشـفاقى مـن الماء أننى أمر به فى الكوزِ مرَّ المجانب

وأخشى الردى منه على كل شارب فكيف بأمْنيه على نفس راكب ؟

أظل إذا هـزته ريح ولألأت له الشمس أمواجاً طوال القوارب

كأنى أرى فيهمن فرسان بُهْمَة يُليحون نحوى بالسيوف القواضب

— ٥ —

ذلك تعليل العقاد لتطير ابن الرومى، وهو تعليل فى رأيى صواب كله لأن مردّه إلى نفسية الشاعر، لا إلى مؤثرات أخرى من السياسة والاجتماع.

أما إذا أردنا دراسة شعره المتطير فالأجدر بنا أن نبنى دراستنا على المذهب النفسى والمذهب الفنى والمذهب الاجتماعى جميعاً.

النموذج الرابع

ولع المتنبى بالتصغير

— ١ —

كان أبو الطيب مولعاً بالتصغير إلى حد لم يماثله فيه شاعر، ولم يَخْفَ هذا الولع على دارسيه، ولكنهم إذ تنبهوا للظاهرة لم يتعمقوا فى التعليل لها.

وحسبنا أن أبا العلاء أجاب ابن القارح حينما سأله عن هذه الظاهرة بقوله: «كان الرجل مولعاً بالتصغير، لا يقنع منه بخُلْسة المغير، ولا ملامةَ عليه، إنما هى عادة صارت كالطبع تغتفر مع المحاسن».

— ٢ —

ويعلق العقاد على كلمة المعرى بقوله: لا شك أنها عادة كما قال المعرى، ولكن أى عادة هى؟ . أمن عادات اللفظ؟ . أم من ضرورات الوزن؟ . أم من عبثات اللسان؟ .

ويجيب بقوله : لا ، ولكنها فيما نظن عادة فى الطبع والخلق، وما صارت كالطبع كما قال المعرى إلا لأنها من الطبع ، وفيها ترجمة عنه ، ومجاراة لنوازعه .

ثم يعلل لهذا الكلف تعليلا تفرد به ، وذلك أن المتنبى كان يتعالى بنفسه على التكسب بالمدائح والزلفى إلى الملوك والأمراء ، وكان يرى أنه خـُلق لما هو أجل وأرفع من ذلك ، وهو الملك والقيادة ، فلا يبالى أن يتطـُول على ذوى السلطان بهذا الاعتقاد فى قصائده التى يمدحهم بها .

وكان يؤنب نفسه إذا ما آنس منها ركوناً إلى حياة الدعة ، واطمئناناً إلى مقامه بين حاشية الأمراء وأتباعهم المتكلمين على عطاياهم ، فيحفزها وينحيها عن هذا المقام ، ويذكرها ما أعدت له من المجد والعظمة .

لكن المتنبى كان شريكاً فى العظمة الدنيوية والأخلاق العملية فى كل ما هو من باب الشعور والملاحظة ، ولم يكن شريكاً فى كل ما هو من باب الإنجاز والتنفيذ .

كان يشعر شعور عظماء الأعمال ، ويقيس الأمور بمقاييسهم ، ويلزم نفسه الجد الذى يلتزمون فى حركاتهم وسكناتهم ، وتساوره المطامع التى تساورهم ، ولكنه لا يتمم الأمور كما يتممونها ، ولا يَسُوس الحوادث كما يسوسونها . كان مطبوعاً على غرار رجال المطامع ، ولكن فى داخل نفسه لا فى ظاهر عمله ، فله فى خلقه وتفكيره استعداد عظماء الأعمال ، ولكن بغير أداة العظمة .

وإذا كان شعوره بالعظمة قد بدأ فى المبالغة والتهويل والتفخيم أحياناً، فإن شعوره بالتأفف والاشمئزاز والتحقير قد بدا فى التصغير أحياناً أخرى ؛ فإذا ازدرى شيئاً ضئيلاً أو رجلا حقيراً فذلك ازدراء يشوبه الضغن ، ويضاعفه ظل العظمة الملقى عليه ، فإذا الشيء شُوَىْء وإذا الرجل رُجَيْل .

وأكثر ما يُصَغِّر المتنبي حين يهجو مغيظاً محنقاً أو يستخف متعالما محتقرًا ، كما يقول فى كافور :

أولى اللئـام كُوَيْفِيرٌ بمعـذرة   فى كل لؤم وبعضُ العذر تفنيد

وكما يقول فى الشعراء الذين يزاحمونه :

أفى كل يوم تحت ضِبْنى شُوَيْعِرٌ   ضعيفٌ يُقاوينى قصيرٌ يُطاول

وكما يقول فى أهل زمانه :

أذم إلى هـذا الزمان أهَيْلَهُ   فأعلمهم فَدْمٌ وأحزمُهم وَغْد(١)

ذلك تعليل العقاد لولوع المتنبى بالتصغير ، ولا شك أنه تعليل صادق ، لأنه أرجع التصغير عند المتنبى إلى شعوره بالعظمة وإلى ازدرائه الناس .

ولكن العقاد تجاوز عن عامل آخر ربما كان أدعى إلى ولوع التنبى بالتصغير من هذه العظمة المصطنعة التى يمازجها احتقاره للناس .

وذلك أن المتنبى فيما أرى كان يُنَفِّس بهذا التصغير عن موجدته وحنقه وشعوره بالعجز عن تحقيق ما يتشهاه ، فقد ذم الحياة ، وادعى أنها لا تواتى إلا الأغبياء والحمقى ، كقوله :

فما تُرَجِّى النفوسُ من زمن   أحمـدُ حالَيْهِ غـيرُ محمود

وقوله :

ومن صحب الدنيا طويلا تقلَّبتْ   على عينه حتى يرى صدقها كذبا

وقوله :

فذى الدار أخْوَنُ من مومسٍ   وأخـدع مـن كفَّة الحابِل

وقوله :

---

(١) مطالعات فى الأدب والحياة : ١٣٢ .

من خصّ بالذم الفراقَ فإننى ... من لا يرى فى الدهر شيئاً يُحمَد

وقوله :

وشبِيْهُ الشيء منجذب إليه ... وأشبهنا بدنيانا الطغام
ولو لم يعْلُ إلا ذو محَلٍ ... تعالى الجيشَ وانحط القَتَام
ولو لم يَرْعَ إلا مستحق ... لرتبته أسامَهمُ المسَام (١)

وكذلك حنق على الناس ، لأنهم نالوا ما لم ينل، وبخاصة أصحاب الغنى والمجد والجاه ، وساء رأيه فى أخلاقهم .

من ذلك قوله :

إنما أنفس الأنيس سباع ... يتفارسن جهرة واغتيالا
من أطاق التماس شيء غِلابا ... واغتصابا لم يلتمسه سؤالا
كل غادٍ لحاجة يتمنى ... أن يكون الغضنفر الرئبالا

وقوله :

إذا ما الناسُ جرّبهم لبيبٌ ... فإنى قد أكلتهمُ وذاقا
فلم أرَ ودّهُمْ إلا خداعا ... ولم أرْ دينهم إلا نِفاقا

وقوله :

ولا تَشَكَّ إلى خلق فتُشْمِتَهُ ... شكوى الجريح إلى الغربان والرَّخَم
وكن على حذر للناس تستره ... ولا يغرُّك منهم ثغر مبتسمِ
غاض الوفاء فما تلقاه فى عدة ... وأعوز الصدق فى الأخبار والقَسَم

فليس غريباً إذن على المتنبى أن يكلف بالتصغير ،لأنه فى تعبيره لون

---

(١) المسام : الرعية . الضمير فى اسهامهم يعود على الملوك المذكورين فى اول القصيدة . اى لو كانت الامارة بالجدارة لوجب أن يكون الملوك رعية ورعيتهم ملوكا لأنهم أحق منهم بالملك .

من الهجاء والتحقير، وضرب من الاستهانة وقلة المبالاة، ومبعث ذلك كله التنفيس عما يعتمل فى نفسه من عوامل متعددة أهمها الغرور والتعالى المصطنع والسخط على الحياة، والموجدة على الناس ؛ ولهذا يقول :

أذم إلى هــذا الزمان أهيــلــه   فأعلمهم فــدم وأحزمهم وغد
وأكرمهم كلب وأبصرهم عم   وأشهدهم فهد وأشجعهم قرد

على أننى لا أوافق العقاد فى قوله : «أن المتنبى كان إذا ازدرى شيئاً ضئيلا أو رجلا حقيرا فذلك ازدراء يشوبه الضغن». لأن المتنبى المتعاظم لا يضطغن على رجل حقير، وكيف يحقد على الحقير وهو لا يتطلع إليه أو يباريه أو يباليه بل يضطغن على العظيم لأنه قصر عن بلوغ غايته ، أو لأن الحظوظ التى نولت هذا العظيم أسباب علاه ضنت على المتنبى مما كان يصبو إليه ويتشهاه .

— ٤ —

وإذا فإن كلف المتنبى بالتصغير كان صدى لما يعتمل فى نفسه من شعور بالعظمة تارة ، ومن موجدة على الناس تارة ، وكان صدى للحياة السياسية والاجتماعية فى عصره ، إذ كان عصر إمارات وثورات ووثبات إلى الحكم هنا وهناك ، وكانت القوة والحيلة والدهاء أهم الوسائل لظفر الطامحين إلى الحكم ، والطامعين إلى السلطان ، وكانت الأحقاد والدسائس والنفاق والملق والمنافسات واستكانة الشعوب واستبداد الحكام فاشية فى المجتمعات .

النتيجة :

لعله قد تبين من هذه اللمحات أن الدراسة النقدية لا يصح أن تنحصر فى نطاق المدرسة النفسية التى آثرها العقاد ، ولا يسوغ لناقد أن يقصرها على

أصول المدرسة الاجتماعية وحدها ، أو حصرها فى مجال المدرسة الفنية معزولة عن غيرها ، فإنه لا مناص من اعتماد الناقد على هذه المدارس جميعاً ، لأن بعضها يخدم بعضاً ، ولأن بعضها يجدى حيث لا يجدى سواه .

واذا كان الاعتماد على المذاهب الثلاثة هو المنهج السليم الكامل ، فإن الدارس أو الناقد ليس محتوماً عليه أن يطبقها جميعاً فى كل حالة من الحالات ، فقد يكون الاستئناس بمصابيحها كلها هو الهادى إلى الطريق ، وقد يكون فى مصباحين أو مصباح واحد غناء .

وعلى الدارس والناقد أن يتخير فى دراسته الاجتماعية والسياسية ما يتصل اتصالا وثيقاً بالشخصية التى يعرضها ، أو النص الذى يدرسه ، وأن يبتعد فى دراسته النفسية والفنية عن التكلف والاعتساف ، حتى لا يلبس الشخوص أو يُضفى على النصوص أردية واسعة العرض أو مفرطة الطول ، أو ضيقة عن القدود .

فلسفة الجمال عند العقاد

فلسفة الجمال عند العقــاد

ليس من شك فى أن الأستاذ العقاد ــ طيب الله ذكراه كان يقرأ كثيراً وكانت قراءاته الكثيرة متنوعة موصولة بأفانين الأدب والعلم والمعرفة والثقافة، شاملة لخير ما أنتجت القرائح فى الشرق والغرب ، فى القديم والحديث .

هذه حقيقة نعرفها من حياته ، ومن كثرة مؤلفاته، وتعدد ألوانها ، وتنوع ما تزخر به من آراء .

لكن القراءة الكثيرة ليست كل شىء ، فبعض الناس يقرأون كثيراً ولكن فى مجال واحد من مجالات المعرفة قلما يتجاوزون إلى سواه .

وبعض الناس يقرأون قراءة متعددة الألوان ، تزجية للوقت، وتسلية للنفس ، وشغلا للفراغ .

وآخرون يقرأون كثيراً ، ويدينون بكل ما قرأوا ، ويرددون آراء غيرهم كما تتردد للأصوات أصداء ، فلا تمحيص ولا تعقيب على رأى من الآراء .

أما العقاد فقد كان إلى إطلاعه الواسع الشامل المتنوع صاحب شخصية بارزة المعالم واضحة السمات ،وصاحب أراء ونظريات يعقب بها على كثير من نظريات العباقرة وأصحاب الآراء ،مهما يبلغوا من العظمة والشهرة وذيوع الأفكار .

وإنه ليسترعى انتباهنا ،ويستوجب تقديرنا العظيم للراحل الكريم أنه كان يعز آراءه ويعتز بها ، ولا يفتأ يتبناها ويتابعها بالتأكيد والتأييد ،

---

* نشر فى مجلة الرسالة ١٦ ذى القعدة ١٣٨٤ هـ ١٨ مارس ١٩٦٥ م .

فلم يتنكر لبعضها، ولم يتهرب من أحدها، منذ أمسك القلم إلى أن ودع القلم والقرطاس .

وفى رأيى أن مَرَدّ هذا لا إلى التعصب أو الغرور أو التأبى على الفئة إلى حق كان قد خفِىَ عليه، بل أن مرده إلى أنه كان لا يعلن رأيه إلا بعد تفكير طويل ، وتقليب لوجهات النظر ، وتمحيص لما قرأ ، واطمئنان إلى ما اختاره وارتضاه .

وسأكتفى فى هذا البحث برأيه فى الجمال ليكون نموذجاً من متحف حافل بروائع الفن والجمال .

— ١ —

ينبوع الإحساس بالجمال

الجميل محبوب ، والجمال مرغوب ، ما فى ذلك شك .

ولكن لماذا نحب الجميل ، ونتعلق بالجمال ؟ .

وما ذلك الينبوع الذى ينبثق منه إحساسنا بالجمال وتذوقنا له ؟ .

١ — أما النشوئيون وغيرهم من الدعاة إلى مذهب العقل الباطن فإنهم يردون الإحساس بالجمال إلى أن الناس ينظرون إلى الجميل بعين الحب ، أو بعين الغريزة الجنسية ، فالشعور بالجمال فى رأيهم وليد هذه الغريزة، ووليد الرغبة فى حفظ النوع ، وزعيمهم فى هذا العلامة النفسى فرويد .

وقد عرض العقاد لهذا الرأى ، ولخص ما قاله ماكس نوردو Max Nordo فى هذا الموضوع (١)، وهو أن كل أثر ينبه فى الدماغ بأى شكل من الأشكال

(١) مراجعات فى الأدب والفنون ٨٠ .

مركز التناسل ، سواء أكان هذا التنبيه مباشرًا أو آتياً من تداعى الفكر وتساوق الخواطر ، فهو الأثر الجميل .

وصورة الجمال الأول فى نظر الرجل هى المرأة فى سن النضج الجنسى والاستعداد لتجديد النسل ، والمظهر الدال على عنفوان الشباب والصحة .

فنى محضر هذه المرأة تختلج مركز الغريزة النوعية فى نفس الرجل بأقوى الإحساسات وأشد الخواطر ، وتثير رؤية(الظاهرة) وتصورها عنده أقوى بواعث السرور التى يمكن أن تستفاد من مجرد النظر والتصور .

وقد تعود الطبع أن يقرن بين صورة المرأة وفكرة الجمال ، فأغراه ذلك بأن يصور كل ما يروقه أو يرى فيه معنى من معانى الجمال فى صورة امرأة .

ويمثل ماكس نوردو لهذا بكلمات الأمة والشهرة والصداقة والمحبة والحكمة وغيرها ، لأنها تُـمَثَّل للحواس فى هيئة مؤنثة ، على حين أنه لا أثر لشىء من ذلك فيما تدركه المرأة وتتصوره ، لأن رؤية أنثى من جنسها لا تحرك بأى شكل من الأشكال مركز النسل من غريزتها ، فهى لا تجد المثل الأعلى للجمال إلا فى الرجل .

ويقول ماكس نوردو ولكن المرأة تقيس الجمال كله بمقياس الرجل ، لأن الرجل استطاع بتفوقه عليها فى القوة أن يوحى إليها برأيه ، وأن يسيطر على أفكارها التى تخالف فكره ، ولو اتيحت للمرأة القدرة على الاستقلال بالنظر ، وتحليل ما تشعر به ، ووصف ما يدور بوجدانها ، لأثبتت منذ زمن بعيد أن مذهبها فى الجمال يختلف من وجوه أساسية شتى عن مذهب الرجل فى الجمال .

وهذا الرأى الذى أجمله ماكس نوردو هو رأى الأكثرين من العلماء

والأطباء الباحثين فى المسائل الجنسية، وهو المعول عليه عندهم فى تفسير ذوق الجمال والشغف بالفنون .

٢ ــ وقد فند العقاد هذا الرأى بكثير من الأدلة ، وذهب إلى أن العكس قد يكون أقرب إلى الصواب ، لأن الغريزة الجنسية نفسها قد تكون أداة من أدوات التكوين ، تنهض بالناس إلى طلب الكمال والجمال.

وإلا فما هى تلك العاطفة الجنسية ؟ .

أهى شىء مقصور على الإنسان ؟ .

أهى شىء مقصور على الحيوان ؟ .

أهى شىء مقصور على النبات ؟ .

أهى شىء مقصور على الجماد ؟ .

ويجيب العقاد بأنها شىء شائع فى جميع هذه الكائنات ، وفيما هو أخفى منها على العيان والتقدير، شائع حتى فى الكهارب التى تتعلق سالبة وموجبة لتستوى بها الذرة الدقيقة التى لا تدرك إلا بالحساب .

وهى حيثما وجدت مظهر للرغبة فى التمام والدوام ، وهما أعلى ما يتصوره العقل من صفات الجمال فى الكائنات .

ومعنى هذا أن العاطفة الجنسية ليست هى التى تحرك الرغبة إلى الجمال ، بل إن الرغبة فى الجمال هى التى تحرك العاطفة الجنسية بمظاهرها المختلفة فى الكائنات .

ويضيف العقاد إلى هذا أننا تعودنا أن نحسب العلاقة بين الذكر والأنثى اصلا للحب بجميع صنوفه وألوانه ، ولكننا إذا واجهنا الحقيقة من وجهة أعم وأعمق تبين لنا أن هذا الحب بين الذكر والأنثى هو نوع طارىء من

أصل إلهي قديم شامل للموجودات ، مستقر فى طبيعة الوجود ، هو حب الكمال والدوام ، وليس الحب بين الذكر والأنثى غاية فى ذاته ، بل هو واسطة من وسائط ذلك الحب الأصيل .

ورأى العقاد فى رده على هذه النظرية أنه ينبغى نفى الجمال من العالم ما لم ينظر إليه الرجل بعين تشتهى المرأة ، وما لم تنظر إليه المرأة بعين تشتهى الرجل .

ورأى أنه لا سبيل — على هذا القول — إلى التحقق من أن الجمال شىء مستقل عن الغريزة الجنسية إلا على شرط واحد هو أن يكره الرجال النساء ويكره النساء الرجال ، وأن تمتنع بينهم الصلة التى تبعث الحب وتنشىء النسل .

وقرر أن هذا الشرط غير معقول ولا ميسور ، فلم يبق إلا أن نسلم بأن الحياة نفسها لا جمال فيها ، إنما يأتيها الجمال من الواسطة التى تؤدى إليها ، أى من العلاقة بين الذكر والأنثى .

ولم يبق إلا أن نسلم بأننا لم نوهب الحياة لنشعر فيها بالجمال ، بل وهبنا الجمال لكى نلد الأحياء البعيدين عنا .

ولم يبق إلا أن نسلم بأن النظر بطبيعته لا بد أن يرى الأشياء كلها دميمة شائهة ، إلا إذا كان نظر ذكر إلى أنثى أو أنثى إلى ذكر فعندئذ يجوز أن يرى النظر الدميم جميلاً والمشوه قويماً ، ويسوغ له أن يميز بين الصور والألوان والمعانى والخواطر التى تفرق بينها الفوارق ، وتختلف فيها الأوضاع والأوصاف .

ومعنى هذا أن العلماء الذين يحصرون المعرفة والإدراك فى المعامل والأرقام ولا يسمحون للفكر ولا للإحساس أن يخطو خطوة وراء التشريح والتحليل ، لا يجعلون للحياة قيمة ، بل يجعلون القيمة كلها لأن تتولد الحياة من اختلاف

جنسين ، وأن تنشأ من اجتماع حيين منفصلين ، على أن العقاد لا ينكر أن الغريزة الجنسية من أقوى غرائز النفس وأعمقها ، وأنها على اتصال وثيق بشعور الجمال ومطالب الفنون ، ولكنه يرى أنها ليست الأصل فى الشعور بالجمال .

ثم ناقش أصحاب هذا الرأى بأنه لو كانت الحياة خالية من الجمال أو مقضياً عليها بالحرمان من ظهور الكون فى منظر جميل يضاعف بهجة الوجود فأى شىء يزيد عليها من انقسام الأحياء إلى قسمين ؟ . وما فضل البقاء المشوَّه الذى تتوسل إليه باختلاف القسمين إلى ذكور إناث ؟ .

ورد على دعوى ماكس نوردو أننا نصور الأمة والشهرة والصداقة والمحبة والحكمة وغيرها فى صورة مؤنثة ، بأن للجمال فى أذهاننا معانى كثيرة غير معنى الأنوثة ، وبأننا نصور تلك المعانى فى صورة المرأة ، لأنها الشخص المحسوس المحبوب الذى تقدر الفنون على إبرازه للعميان .

ورد رداً آخر هو أننا نصور المعانى القوية فى هيئة الرجولة ، ولسنا نستخلص من ذلك أن العلاقة بين الرجل والمرأة هى أصل كل ما فى الحياة من أس وقوة ، وسبب لكل ما يتصوره العقل من نفاذ وقدرة .

ثم حمل على فكرة الغريزة الجنسية حملة أخرى ، معتمداً على أن فى المشاهدات ظواهر كثيرة تبطلها ، فالغريزة الجنسية مودعة فى جميع الأحياء والنبات ، ولكن جمال الأشكال والألوان ليس من حظها جميعاً ، وليس حظها من الجمال على قدر حظها من هذه الغريزة ، فالزهرة التى تجتذب الذبابة بألوانها ونقوشها لتنقل منها اللقاح أجمل فى شكلها ولونها من تلك الذبابة التى تحتاج إلى الألوان والنقوش لتنجذب إلى الأزهار ، فلو كانت الغريزة الجنسية هى التى تجذبها إلى الألوان والنقوش لوجب أن تطلبها فى إناث الذباب قبل أن تطلبها فى الأزهار والنوار .

ثم اعترض على النظرية بدليل آخر هو أن أحب الناس للجمال هم أرفعهم نفوساً ، وأسلمهم أذواقاً ، وأشوقهم إلى المتع المعنوية والخصال الكريمة. وبأن الغريزة الجنسية قد تكتمل وتقوى في أناس لا حظ لهم من رفعة النفس وسلامة الذوق ومتعة الروح وكرم الخصال ، وليس حب الإنسان للجمال على قدر طاقته من هذه الغريزة .

ثم لجأ إلى أسئلة كثيرة تحمل دلالة المخالفة للفكرة والتنفيذ لها ، فقال : علام يدل تصويرنا بعض الحقائق المحببة إلى النفس في صور الطيور والغزلان وأشباهها من الأحياء ؟ .

وعلام يدل تمثيلنا المجاعة والقسوة والضغينة والنميمة في هيئة الأنوثة، وهي ليست مما يتصل بالغريزة الجنسية ولا بما يخطر على الذهن من قبيل العلاقة بين الرجال والنساء ؟ .

وهل كان من الحتم أن تتخيل جميع المغاني المحبوبة والمكروهة في صور الرجال ليقال إن هذا التصور لا يتوقف على غريزة النسل وغرام الذكور بالإناث ؟ . . .

ولماذا يعجب الفنانون بنماذج الجمال في أجسام الرجال إن كان في غريزتهم ألا يحبوا الجمال ولا يتخيلوه إلا في أجسام النساء، مع أن المعروف أن تماثيل الرجال في الفن اليوناني والروماني لا تقل عن تماثيل النساء جمالاً وإثارة للشعور بالجمال .

ولماذا نحصر الشعور بالجمال في نظرة الجنس إلى الجنس ؟ ولماذا ندعى أنه تابع لها ولا نقول إنها تابعة له ؟ .

وبم نعلل تفوق نوع على نوع آخر في الجمال إذا لم يكن هناك مقياس عام للجمال غير المقياس الذى ينظر به كل نوع إلى نفسه ؟ .

وكيف نفسر الاختلاف بين الأمم العالية والأمم المتخلفة فى تذوق محاسن الطبيعة وجمال الفنون ، إن كانت حاسة الجمال مقصورة على غريزة النسل التى قل أن يمتاز فيها إنسان على إنسان ؟ . وذلك أن الأمم العالية تدرك من آيات الكون ما لا تدركه الأمم الوضيعة ، وهى لا تفضلها فى قوة الغريزة الجنسية إن لم تكن دونها .

وليس من الصواب أن تقول إن الغريزة الجنسية هى التى تجعل الرجل الأوروبى يرى امرأته أجمل منظراً وأحلى شمائل من الزنجية المتبدية فى مجاهل خط الاستواء .

ومعنى هذا أن غريزة التناسل قد توجد بمعزل عن حب الجمال ، وأن حب الجمال قد يوجد بمعزل عنها ، ولا معنى لأن يقال أننا نستجمل المرأة لأن الغريزة تسوقنا إليها ، وتضطرنا إلى حبها ، إذ لو صح هذا لأغنتنا الغريزة عن الجمال ، ولصارت كلمة المرأة مرادفة لكلمة المرأة الجميلة ، وصار الوصف بالجمال فضولا لا يضيف إلى الأنوثة مزيداً .

وإنما الأولى إن يقال أن غريزة التناسل تعجز بدورها عن استجابة الأحياء لها ، فتتخذ من الجمال شركا توقعهم به فى أسرها ، وكلما عجزت عن تنبيه النفس وحضها على الاستجابة لها زادت حاجتها إلى معونة الجمال ، وعظم اعتمادها على هذا المدد الغريب عنها ، فكأنها الحلوى التى يكسى بها الدواء لتشهيه النفس إذا عجزت المنفعة البحتة عن الترغيب فيه .

— ٢ —

الجمال فى الدلالة لا فى الشكل

ما الذى يعجبنا فى الشىء الجميل ؟ .

هل نعجب بالجميل لذاته ، فيعجبنا من الزهرة لونها وتناسقها البديع كما يعجبنا التناسق فى كل شىء يجيب العقاد على هذا (١) بأن الذي يعجبنا فى الحقيقة هو الدلالة التى يرمز إليها الشىء الجميل ، لا التنسيق الظاهر الذى قد يتفق لبعض الأزهار دون بعض .

فعلام تدل الزهرة ؟ . . . .

إنها تدل على الغضارة ، ثم على اللهفة التى ترافق فى الذهن ذكرى زوالها السريع ، فكأنما هى بشكلها الغضير الرقيق رمز إلى فرصة العيش التى تنادى الناس باغتنامها ، وتذكرهم بسرعة فراقها ، ولهذا كانت فى شعر الأمم كلها رمزاً إلى الشباب ، وإلى كل أمل جميل نتلهف عليه .

وإذا فالجمال فى الفن والطبيعة معنوى لا شكلى ، والأشكال لا تعجبنا ولا تجمل فى نفوسنا إلا لمعنى تحركه ، أو لمعنى توحى به ، ولا قيمة للأعضاء فى ذواتها بغير الفكرة التى تعبر عنها ، وبغير الوظيفة التى تؤديها . .

ثم يضرب على ذلك أمثلة من بروز الحدبة على ظهر الأحدب ، وبروز النهد على صدر الكعاب ، ويقول إن الحدبة معيبة والنهد مستجمل مرغوب وما ذلك إلا لاختلاف المعنى لا لاختلاف الشكل والصورة ، ولتباين الوظيفة التى يمثلها كل منهما ، لا لتباين الحجم والبروز على أن بروز النهد قد يعاب

---

(١) مراجعـــات ٤٨ .

كما يعاب بروز الحدبه إذا كان فى شكله ما يخل بمعنى الصحة والشباب الذى يستجمل لأجله ، إذ أننا لا نحب وزناً من اللحم والدم ، ولا رسماً من الهندسة ولا حيزاً فى الفضاء ، حين نحب الصدر الناهد المفعم فى شكله البارز المستدير ، بل نحب النشوة والصحة والنضج ويقظة العاطفة ، وما إلى هذه المعانى من خوالج النفس ووظائف الحياة .

ويزيد الفكر وضوحاً بأن الأشكال يختلف موقعها فى الذوق بحسب اختلاف الدلالة التى تدل عليها ، والوظيفة التى تقوم بها ، ويضرب مثالا من الضمور واليبس ، فهما معيبان فى عامة الأحياء ، ولكنهما غير معيبين فى كلب الصيد الهزيل الضامر الدقيق الأطراف ، لأننا ننظر ما وراء هذه الصفات من خفة الحركة ، وسهولة العدو ، ورشاقة الخطوات .

— ٣ —

الجمال هو الحرية

١ — قبل أن أعرض رأى العقاد فى حقيقة الجمال يحسن أن ألم بالآراء التى قيلت فى هذه الحقيقة على ما بينها من خلاف .

فهل الجمال صفة فى الشىء نفسه ؟ أو هو شعور خارجى ينبع من المدرك للجمال ؟ .

أتتصف المرأة والروضة والقصيدة واللحن بالجمال ، لأن فيها خصائص جعلتها جميلة حقاً ؟ .

أم تتصف بالجمال ، لأن الشخص المدرك لها أحس هذا الإحساس نحوه فوصفها بأنها جميلة ؟ .

بعض الباحثين رأى أن سر الجمال راجع إلى روعة الشيء نفسه ، وهذا يستدعى وضع القوانين المرتبطة بقيم الأشياء والحكم عليها على أساس خصائصها الخارجية .

فماذا عسى أن تكون هذه الخصائص ؟ .

أهى فى اللون ؟ أم فى الشكل الهندسى ؟ . أم فى التناسب والتناسق ؟ . أم فى وحدة التجانس ؟. أم فى النسب الرياضية بين الأجزاء ؟ . أم فى شيء آخر تخفى علينا معالمه وحدوده ؟ .

وبعضهم رأى أن الجمال ينبع من نفس المدرك ، ويرجع إلى ظروفه النفسية ، وينكرون أن تكون هناك أشياء فنية موضوعية مستقلة عن رد الفعل من جانبنا ، لأن الأشياء التى تظهر جميلة فى رأى بعض الناس قد تظهر قبيحة فى نظر آخرين . وليس من الضرورى أن يكون الشيء الجميل فى حالة طفولتنا جميلا فى نظرنا إذا ما كبرنا . وكذلك تتفاوت الشعوب فى معايير الجمال وموازينه .

وأصحاب هذا الرأى لا يقولون إن الشيء جميل ، بل يقولون إنه من بعض نواحيه يثير فينا تجارب لها قيمة فى نظرنا ، لأنها تلائم حالتنا وما نتطلب ومعنى هذا أن الجمال لا ينبع من المظاهر الخارجية ، بل ينبع من داخل نفوسنا ، ومن تجاربنا ووجهة نظرنا إلى الأشياء ، والأثر النفسى الذى تحدثه فينا .

ويضرب (جاريت) مثالا على ذلك فى قوله : لنأخذ صورة مألوفة جداً ، هى صورة العذراء وطفلها ، فنجد أنه من الواضح أن تأثيرها فى المسيحيين يختلف عن تأثيرها فى المسلمين أو البوذيين . ولا أظن كذلك أن المشاعر التى تثيرها صورة العذراء فى الرجل هى المشاعر نفسها التى تثيرها فى المرأة ، أو أن تأثيرها فى المرأة الأم يساوى تأثيرها فيمن ليست أما . كما أن الضوء والتلوين فى الصورة

لا يحدثان الأثر نفسه فى ساكن العروض العليا الذى تعود ضوءاً وألواناً معينة، وفى ساكن العروض الاستوائية الذى تعود ضوءاً وألواناً أخرى.

وكذلك يختلف تأثير أشكال الأشخاص وأحجامهم فى سكان بلد كل أهله طوال نحاف عنه فى سكان بلد آخر كلهم قصار سمان. ولهذا يختلف تأثير الصور فى الرجل الأبيض عن تأثيرها فى الرجل الأسود، وتبدو تماثيل الأجسام العارية التى رسمها تنتان وربنس ورنرار سمينة سمناً معيباً فى نظر المتشبعين بالذوق الإغريقى البحت.

وذهب فريق ثالث إلى أن الجمال صفة فى الأشياء نفسها، ولكنه راجع إلى ما بينها وبين نفسية المدرك من تجارب وتفاعل.

ومعنى هذا أن مجال البحث عن الجمال هو فى الصلة بين النفس المدركة والشىء الجميل، لأن الجمال ليس نابعاً من الشىء الجميل وحده، ولا من من نفس المدرك مجردة من مؤثرات مباشرة وغير مباشرة، بل أنه نابع من هاتين الناحيتين ومما بينهما من تجاوب.

وإذا كان الجمال من الناحية الذاتية هو ما ينسجم مع الإحساس بالكمال العقلى، ومن الناحية الموضوعية هو ما يتجلى فيه التوازن والاتساق، أى أن الجمال يتطلب أن تكون فى الأشياء مزايا تكسبها جمالاً، ويتطلب أيضاً استجابة من المدرك تشعره بهذا الجمال، كالحلوى فيها صفة الحلاوة، ولكن الإحساس بحلاوتها متوقف إلى حد كبير على تذوق الشخص نفسه.

ولا مراء فى أن ثمة أشياء طبيعية بنوع خاص خليقة بأن تثير الإحساس بالجمال فى الجنس البشرى كله أو جله، وإن اختلفوا فى كثير مما عداها، واختلف حكم الفرد الواحد على الشىء الواحد باختلاف الأوقات »(١).

---

(١) فلسفة الجمال. جاريت: ٢٢، ٩٢ والأصول الفنية للأدب ٩ - ١٥ عبد الحميد حسن.

٢ — فما رأى العقاد فى حقيقة الجمال ؟ .

إنه يرى أن الجمال صفة فى الجميل نفسه(١)، وأن الشيء الجميل يوصف بالجمال ، لأنه حر ، إذ أن الحرية والجمال معنيان لا ينفصلان ، ولا يتم أحدهما بمعزل عن الآخر .

ويدلل على هذه الفكرة بأن الحرية هى العنصر الذى لا يخلو منه جمال فى عالم الحياة أو فى عالم الفنون ، وأننا مهما نبحث عن مزية تتفاضل بها مراتب الجمال فى الحياة لا نجد إلا مزية حرية الاختيار التى يفضل بها الإنسان الكامل من دونه من المرجوحين فى صفات النفوس وسمات الأجسام ، ثم يفضل بها الناس عامة الأحياء ، ثم يفضل بها الأحياء طبقات النبات ، ثم يفضل بها النبات الأشياء الجامدة أو المادة الصماء . على أن المادة الصماء نفسها تتفاضل فى الجمال بحسب ما يبدو لها من حرية الحركة ومشابهة الإرادة، فالرياح والنيران والمياه تروقنا ، وتطلق فى نفوسنا خوالج الحياة ، ونعاطيها شيئاً من العطف لا نعاطيه غير الأحياء ، وليس لها فضل ظاهر على عامة الجماد إلا ما تخيله للناظر من حرية الإرادة ومحاكاة الحياة .

ويضرب للتدليل على وجهة نظره أمثلة عدة ، منها أن الجسم الجميل هو الجسم الحر الطليق ، سواء أنظرنا إليه فى جملته أم نظرنا إلى كل عضو منه على حدة ، فالجسم يعاب إذا عطلت إحدى وظائفه ، والعضو يعاب إذا زاد او نقص عن حد حريته ، وكل وجه تنكر منه وصفاً من الدمامة لا بد ان تحس بعد تأمله أن مانعاً يمنع وظائف الحياة فيه عن حرية الحركة فيزيد أو ينقص فى لمحة من ملامحه أو قسمة من قسماته .

بل قد يتم تناسب الشكل فى وجه قسيم صحيح ، ثم لا يعجبك ولا تنشط

---

(١) مراجعـات : ٥٢ ، ٦٣ .

إليه روحك، لأنك لا تحس فيه ما يدل على حركة الحياة فى نفس صاحبه ، وذلك ما يسمونه بثقل الروح .

وهذا معناه أن جوهر الجمال ليس هو التناسب ، بل هو تبع لحرية الوظيفة وحركة الحياة فى الجسم .

وقد يضخم العضو فى بعض الأحياء ، ويستدق فى أحياء أخرى ، ويطول فى نوع ويقصر فى آخر ، ولكن الشأن الأول فى استحسانه لحرية الوظيفة فيه لا للضخامة والدقة أو للطول والقصر ، أو للنسبة بينه وبين الجسم الذى تركب فيه ، فلا تعيب الغزال أو العصفور دقة الساق مثلا ، ولكنها تعيب الإنسان إذا نمت فيه عن الإعياء واختلال وظائف الأعضاء .

ثم انتقل إلى تطبيق الفكرة على الفضائل والأخلاق ، فيرى أن كل خصلة محمودة فيها معنى من غلبة الحرية على الضرورة ، وحكم الإرادة الباطنة على البواعث الخارجية ، فالشجاعة والأنفة والصبر والعفة وما شاكلها من المناقب لا تحمد فى الإنسان إلا لأنها دليل على أنه مالك لحريته ، يقود البواعث الخارجية ولا ينقاد لها ، ويتصرف فى ذلك تصرف القادر على شئونه . . .

وبعد هذا عرض للتجمل فرأى أنه يظهر فى هيئة واحدة هى ألا يكون المرء مغلوباً على أمره فى حركة من حركاته أو كلمة من كلماته ، أو سجية من سجاياه فيكون حزيناً موجعاً ولا يظهر الحزن والتوجع ، ويكون مريضاً مدنفاً ولا يئن أو يتململ ، ويكون غاضباً مهتاجاً ولا يصخب أو يتفزز ، وإذا اضطر إلى التخفيف عن نفسه بحركة أو إشارة حاول أن يعطيها من هيئة الاختيار والتأنق ما يخفى الاضطرار والاندفاع ، فتلوح للناظر كأنها مقصورة مرسومة عن نفس لا تضيق بأمرها ، ولا ترتخى قبضتها على زمام مشيئتها .

ثم عرج بنظريته على الفنون الجميلة ، فينفى أولا أن يكون المراد من الحرية الفوضى ، لأن الفوضى لا يحيط بها قانون ، ولا يمازجها نظام .

وذهب بعد هذا الاحتراس إلى أن فكرة الجمال فى الحياة هى بعينها فكرة الجمال فى الفنون ، وأنه لا فن بغير تطلع ،ولا تطلع بغير حرية ،وأن الفن يستخلص من جمال الحياة عنصرية البارزين وهما النظام والأمل ، وكأن الإنسان قد أراد بالفن أن يتمم حرية الحياة ، أو يستدرك عجزها عن قهر ضروراتها التى تثقل عليها ، فخلق للإنسان أجنحة قبل أن يطير فى الهواء ، وأنشأ فى الشعر أجيالا من أبطال هزموا نواميس الكون ، وأرسل أحلامنا فى سماوات من البهجة والكمال لا تفتح لأبناء الفناء ، وجمع فى جسم واحد من رشاقة الأعضاء وملاحة القسمات ما تضن به الحياة على كثير من الأجسام ، فتمت بالفن آمال الحياة ، وأصبنا فى عالمه حرية لا نصيبها ،فى عالم الحاجة والاضطرار .

ثم عقب على نظريته بأن الجمال ليس محصورًا فى صفة ، بل هو صفات كثيرة منوعة تتراءى فى الأشكال والألوان والأصوات والمعانى ، وقد تجتمع قيم الجمال أو تتفرق ، فينقص أثره ويختلف مدلوله .

وعقب بأن هناك فرقاً بين الإحساس بالجمال والرغبة فى الاستيلاء على الجميل ، لأن الإحساس بالجمال يطلق النفس من إسارها ، ولكن الرغبة فى الاستيلاء عليه قد توقع النفس فى أسر الحاجة ، فإذا سلب العشق حرية العاشق فليس ذلك حجة على أن الجمال ينافى الحرية فى صاحبه أو فى الناظر إليه .

— ٤ —

فلسفة الجمال بين العقاد وشوبنهور

شوبنهور : فيلسوف ألمانى صاحب فلسفة واسعة زاخرة ، مزج مباحثه الفلسفية بحماسة المتدين ، وزكانة المتصوف وبساطة الفنان . وله رأى

فى فلسفة الجمال يشف عن غور عميق وإحساس دقيق .

١ — فوظيفة الفن فى رأيه هى فصل الشكل أو القالب عن المادة ، لا أن يحكى الشكل والمادة معاً حكاية صحيحة محكمة ، لأنه موكل بالصور الباقية والنماذج الخالدة ، لا بالكائنات التى توجد فى الحياة مرة واحدة ثم تمضى .
فالمصور الذى يصور إنساناً لا يعنيه من ذلك أنه فرد معين ، ولكن الذى يعنيه أنه قالب يصلح أن يكون نموذجاً لأفراد كثيرين أو للنوع كله .

وهذا النموذج هو الذى يأخذه المصور ويفصله عن مادته ليمثله مستقلا عنها فى تمثال أو صورة أو قصيدة .

ويرى شوبنهور أنه لو كان الغرض من الفن محاكاة الحقيقة لكانت تماثيل الشمع فى المكان الأول بين الآثار الفنية ، ولكنها ليست كذلك ، لأنها تنقل الشكل والمادة معاً ، فتوهمنا أن الشئ المحكى ذاته ماثل أمام أعيننا .

ويزيد العقاد على هذا أن الصور الشمسية لا تعجبنا كما تعجبنا صور الفنانين الحاذقين ، لأنها تنقل لنا الشيء الحقيقى كما يبدو للحس ، على حين أن الصورة التى يرسمها الفنان تنقل لنا شكل ذلك الشيء كما يبدو فى نفس عبقرية واعية تنظر إلى معانى الأشكال المجردة لا إلى مادتها المحسوسة .

ويضيف إليه أيضاً أن الوصف الشعرى الذى يعنى بإحصاء الموصوفات وترتيبها وسرد أعدادها ووصف أحجامها وتقييد موادها وألوانها ، لا يعجبنا كما يعجبنا الوصف النفسى الذى ينفذ بنا إلى بواطن الموصوفات ويطلعنا على إحساس الناظرين إليها والمفكرين فيها .

٢ — ويرى شوبنهور أن حقيقة الجمال من قبيل الفكرة المجردة ، لأن سرورنا به بلا سبب ولا منفعة .

وهو يريد بالفكرة المرادة ما يقابل الإرادة ، لأن رأيه فى كنه الحياة وما وراء

الطبيعة مبنى على تقسيم الدنيا إلى فكرة وإرادة، فالدنيا فى الفكرة هى الدنيا المكنونة قبل ظهورها فى حيز الأسباب والقوانين وعلاقات الأشياء بعضها ببعض والدنيا فى الإرادة هى هذه الدنيا التى تكابد قوانينها وأوصابها .

٣ – فالجمال إذا فى رأى شوبنهور فكرة ، وهو فى رأى العقاد حرية ، ففيم يتفقان ؟ . وفيم يختلفان ؟ .

يتفقان حينما نذكر أن الفكرة فى رأى شوبنهور لا بد أن تكون بعيدة عن عالم الأسباب والضرورات ، أى أنها لا بد أن تكون مطلقة من قيود الأسباب وأمر الضرورات .

ويختلفان حينما نذكر أن الحرية لا تتحقق بغير إرادة ، وأن شوبنهور يخرج الجمال كله من عالم الإرادة إلى عالم الفكرة المجردة .

ويستدل العقاد على ترجيح رأيه بأن الجمال يتفاوت فى نفوسنا ، وتتفاضل فى مقاييس أفكارنا ، ولو كان المعول على إدراك الفكرة وحدها فى تقدير الجمال لوجب أن تكون الأشياء كلها جميلة على حد سواء .

ويوضح ذلك بأنه لو كانت الشجرة جميلة لأنها فكرة فحسب لما كان هناك داع لتفضيل فكرة الإنسان على فكرة الشجرة، وما صح لنا أن نزعم أن الناس أجمل من الأشجار، ولكننا نعلم أن فكرة الإنسان غير فكرة الشجرة، وأن الفكرتين تتفاضلان فى تقرير الجمال ، ولا بد أن يكون تفاضلهما بمزية أخرى هى الحرية ، وإذ كان الإنسان أوفر من الشجرة نصيباً من الحرية ، كان أجمل منها ، وأرفع فى درجات الجمال .

ويتخذ العقاد من رأى شوبنهور فى المادة الصماء دليلا يقوى به نظريته ، وذلك أن شوبنهور يقرر أن المادة الصماء تقبض الصدر ، وتثقل على الطبع ، لأنها لا جمال فيها ولا أنس بها ، ويوافقه العقاد على هذا ، ولكنه يرجعه إلى أنها ليست عارية من الفكرة ، بل لأنها تمثل الركود والجمود ، أى تمثل التجرد

من الارادة والحرمان من الحرية ، والخضوع المطلق للقانون والضرورة .

كذلك استطاع العقاد أن يرد على شوبنهور بفكرة شوبنهور نفسه فى الحزن ، إذ قرر أن الحزن الذى تبعثه المادة الصماء فى نفوسنا آت من أنها تطيع قانون الجذب طاعة تامة . أما النبات فإن منظره يشرح صدرنا ، لأن قانون الجاذبية يبدو لنا كالمعطل بالنسبة إليه ، فيسرنا من منظر النبات استقامته وانتصابه ، ويزداد منظره بهجة إذا بسق من بين الأجمة سرحتان عاليتان فى الفضاء : وقد سميت شجرة الصفصاف بالباكية ، لأن فروعها تتدلى إلى الأرض وتنحنى ، فتخضع لقانون الجذب بذلك الانحناء .

وتوقع العقاد أن يخلص شوبنهور من رأيه هذا إلى نتيجته القريبة ، وهى أن الأشياء تحزننا بما فيها من معانى الخضوع ، وتفرحنا بما فيها من معانى الحرية أو تحزننا بمقدار حرمانها الإرادة ، وتفرحنا على قدر نصيبها من الإرادة . ولكن شوبنهور ترك النتيجة القريبة إلى نتيجة أخرى بعيدة ، هى أن الأشياء تحزننا بمقدار بعدها عن عالم الفكرة واقترابها من عالم الإرادة ، وأنها تفرحنا بمقدار بعدها عن عالم الإرادة واقترابها من عالم الفكرة .

ولاحظ العقاد أن شوبنهور سار مع نظرية الحرية شوطاً بعيداً إلى وسط الطريق ، ولكنه فارقها فى منتهاه كما فارقها فى بدايته .

— ٥ —

جمال المرأة

إذا ما انتقلنا إلى رأى العقاد فى تعقيبه على ذوق العرب فى جمال المرأة (١) استطعنا أن نطبقه على نظريته فى أن الجمال هو الحرية ، بمعنى أن كل عضو

---

(١) شاعر الغزل عمر بن أبى ربيعة .

من الجسم ، وكل جزء من العضو قد استكمل من الحرية نصيبه فى حدود وظيفته ، وفى نطاق قانون التناسب والتناسق والانسجام .

فقد وصف العقاد ذوق العرب فى الجمال بأنه ذوق الفطرة السليمة التى لم يفسدها الترف ، ولم يغيرها بدع الحضارة ، فكانوا يستحسنون من جمال المرأة الوضاحة والهيف والرشاقة والخفر ، ويشيدون بهذه الصفات فى كل ما روى عنهم من غزل البداوة .

وكانوا يحبون مع الهيف والرشاقة أن تكون المرأة بارزة النهدين ، ممتلئة الردفين وهو ذوق لا يخرج بهم عن سواء الفطرة ، وهم فى هذا أصح أذواقاً من أساتذة التجميل المعاصرين الذين أوشكوا أن يسووا بين قامة المرأة الجميلة وقامة الرجل الجميل فى استواء الأعضاء .

ويذكر العقاد من عيوب المرأة أن تكون رسحاء ضئيلة الردفين ، لأنها مخلوقة بحوض عريض ملحوظ فيه تكون الجنين ، فإذا كانت سوية الخلقة وجب أن تكتسى عظام فخذيها وعجيزتها ، وأن يمتلىء منها هذا الجانب من جسدها ، وإلا أشار هزاله إلى آفة فى التكوين لا توافق حاسة الجمال .

وكذلك يستحسن فى المرأة الخصر الدقيق ، لأن ضخامة المعدة قد تؤذى الجنين وتضغط عليه ولأنها تشير إلى تزيد فى الطعام فوق ما تستدعيه وظائف الحياة فى جسم الإنسان .

ويعلق على هذا الذوق العربى بأنه ذوق محمود يزكيه حب التناسق كما يزكيه تكوين وظائف الأعضاء .

ويستحسن قول كعب بن زهير :

هيفـــاء مقبلة عجزاء مـــدبرةً   لا يُشْتَكَى قصرٌ منها ولا طولُ

وقول عمر بن أبى ربيعة :

أبت الروادفُ والثدى لقمصهـــا   مسَّ البطون وأن تـَمَسَّ ظهورا

وقوله :

فيهن طاوية الحشا جيداءُ واضحةُ الجبين
بيضاء ناصعة البيا ض كدرة الصدف الكنين

ويستحسن قول عمر فى إشارته بحياء المرأة مع معاشرته للنساء المتبرجات :

غراء فى غرة الشباب من الحُو ر اللواتى يزينها خَفَرُ

ثم تنبه العقاد إلى أن الذوق العربى العام طرأ عليه فى شعر عمر عارضان انحرفا به عن قصده ، هما معيشة الحضارة ، وبيئة الترف والنعمة والرخاء التى كان عمر ينتمى إليها .

وظهر هذا التغير فى وصف عمر للمرأة بالكسل والنوم إلى الضحا ، وبفرط الغضارة ، لأن هذا عنوان الغنى والدلال على الرجال ، فإذا ذكر عمر الهيف فى جمال المرأة خيل إلينا أنه يتابع العرف العام ، وأنه يناقض نفسه حين يذكر الهيف مقروناً بما لا يجتمع معه من صفات البدانة والضخامة التى قل أن ينساها فى وصف حسناء ، وهى بدانة توشك أن تقعدهن عن الحركة ، ولهذا هى تسبب العجز معيبة وإرهاق الأعضاء ، كقوله :

وهى بدانة توشك أن تقعدهن عن الحركة ، ولهذا هى معيبة ، تسبب العجز وإرهاق الأعضاء ، كقوله :

قطوفٌ من الحُور الأوانس بالضحا متى تَمْشِ قيس الباع من بُهْرِها تربو

— ٦ —

الجمال والسهولة في الأسلوب

عرض العقاد لرأى أناتول فرانس الكاتب الفرنسى فى جمال الأسلوب (١).

وملخص رأى أناتول فرانس أنه لا جميل إلا السهل ، وأن الشاعر أو القاص الذى لا يعاب هو الذى لا يتعب القارىء مهما يكن التعب خفيفاً ، ومن الخير له ان يستديم انتباه القارىء ، ولا ينتزعه منه ، وعليه أن يحذر التعويل على صبر القراء ، وأن يعتقد أنه لا يقرأ إلا إذا كان سهلا ، فللعلم حق الانتباه والتأمل ، وليس للفنون هذا الحق ، لأنها بطبيعتها تسر ولا تفيد ، ووظيفتها أن تثير الإعجاب فحسب ، وهناك فرق بين قصيدة تغنى ، ومقالة تكتب فى الهندسة ، ويجب ألا تكلفنا الفنون أقل مشقة .

وقد استهل العقاد رده على هذا الرأى بالسخرية منه ، وبالتهكم بالمستسهلين ثم فنده من عدة وجوه ، فعجب من أن يقال إن مسرات الشعر والكتابة والفنون عامة لا تحتاج إلى التأمل والانتباه ، وأنها مطالبة بأن تعرض نفسها على الناظرين ليلتفوا إليها حين يشاءون بلا جهد ولا استعداد .

ولا شك أن الجمال سهل معجب ، ولكن على الذين يقدرونه ويحبونه بعد بعد الخبرة والممارسة والتذوق .

وليس معنى السهولة فى جمال الفنون أنه رخيص مباح لكل من يرمقه بجانب عينه ، ولا أنه غنى عن التأمل والتفكير ، ولكن معناه أنه سائغ لمن يستعد له استعداده ، فهو كالثمرة الشهية سهلة سائغة لمن يشتريها ويغرسها ، وليس معنى

---

(١) مراجعات فى الأدب والفنون .

ذلك أنها تنمو كما ينمو نبات لا يسقى ولا يتعهد ولا يراعى بالمعرفة والاختبار .

ويرى العقاد أن سهولة الفنون غالية صعبة على من يريد ان يبتكر ، وعلى من يريد أن يجنى ثمارها ، وأنها قد تغلو وتصعب حتى تستدعى من التأمل والانتباه ، ما لا تستدعيه الهندسة وما هو أعضل منها .

ثم يلجأ العقاد إلى رد عملى واقعى هو أنه لو كان الغرض من اشتراط السهولة فى الجمال أن يكون سهلا على كل من يطلبه بغير تفاوت فى المواهب لما كان فى الشعر كله قصيدة واحدة جميلة . ويضرب الأمثلة على ذلك من سهولة شعر شكسبير على بعض القراء وغموضه الشديد على الآخرين ، وهؤلاء الذين لا يفهمون شكسبير قد يطيب لهم شعر بيرون ، وهو إذا قرىء على من دونهم فى الفطنة والشعور عابوه واستثقلوه أو كابدوا فى فهمه الصعوبة التى تنفى عنه صفة الجمال :

ثم يسوق أمثالا من شعراء العرب ، فيقول أن المتنبى صعب على من يستسهل البحترى ، والبحترى صعب على من يستسهل البهاء زهير ، وهكذا إلى أن نهبط إلى طبقة تستصعب شعر هؤلاء جميعاً ، ولا تجد السهولة الجميلة إلا فى الأزجال الغثة وما شابهها من الشعر المبتذل الركيك .

ومن مناقشة العقاد لأناتول فرانس تتضح هذه النتائج :

الأولى أننا إذا جعلنا السهولة ميزان الفنون ، وجعلنا الشيوع عنواناً على السهولة ، فإننا قد نتمادى حتى يصبح لثغ الأطفال نماذج البلاغة العليا ، ثم تنحدر البلاغة سفلا حتى تنتهى إلى فحول الشعراء وأئمة الكتاب والخطباء .

الثانية أن كثيراً من ألوان الأدب قد يوصف بالجمال وهو صعب على طبقات كثيرة من الناس ، وإذا كان بعض الشعر السهل أشيع فإنه لا يلزم من ذلك أنه الأبلغ .

الثالثة أن المعانى العامة الشائعة ليست أصدق المعانى ، وإلا لحكمنا على كل شعور رفيع يختص به العلية المثقفون بأنه شعور كاذب ومعنى غير صحيح ؛

الرابعة أن السهولة فى الأدب ممدوحة ودليل على المقدرة إذا أدى بها الأديب المعانى التى يؤديها غيره بمشقة وتعسف .

أما إذا أعرض عن هذه المعانى ، وتعدادها إلى غيرها مما لا يصعب نظمه وتصويره فإنه لا فضل له فى هذا التسهيل ، لأنه — كما يقول العقاد — كالرجل المزيل الذى يرى القوى يرفع الصخرة ويسير بها وهو يتصبب عرقاً ويتماسك جهداً ، فيقول : لا ، لن أتصبب مثله عرقاً ، إننى لأربأ بنفسى عن ذاك إننى قدير على رفع هذه الحصاة والعدو بها أمامه وهو محنى الظهر متئد المشية : وأنا منتصب القامة خفيف القدمين .

ولا شك أن هذا المذهب الذى دان به العقاد كان نابعاً من أعماق نفسه ، وكان عظيم التأثير فيما أنتج من نثر ومن شعر طوال حياته .

ولعله قد تبين من هذه اللمحة أن العقاد كان عملاقاً حقيقة فى تفكيره ، وفى مقدرته على تفنيد نظريات المفكرين الكبار ، وأنه صاحب شخصية متميزة لا تطغى عليها شخصية سواه .

المرأة الشاعرة

المرأة الشاعرة *

كانت المرأة وما زالت مشرق إلهام ، وينبوع شعر ، ومجال فن ، حتى إن مئات من الأدباء والفنانين فى الشرق وفى الغرب اقترنت أسماؤهم بنساء غرسن فى حياتهم أزهارًا أو أشواكاً ، كامرىء القيس وعنيزة ، وعنترة وعبلة وعروة وعفراء ، وجميل وبثينة ، وقيس وليلى ، وابن الرومى ووحيد ، والبحترى وعلوة ، وابن زيدون وولادة ، وجبران وسلمى كرامة ، والرافعى ومى ، والعقاد ومى ، ثم سارة ، وتبرارك ولورا ، وبوشكين وغراسيا ، وجيته وشرلوت ، ودانتى وبياتريس ، ولا مرتين وجولياه .

وهذه المرأة التى أوحت وألهمت ، وأسعدت وأشقت ، مارست الشعر والنثر منذ زمن قديم ، وما زالت تمارسهما إلى اليوم فى نطاق أوسع ، وتطور أسرع

فما الميادين التى جالت فيها شاعرة ؟ .

وما أبرز السمات التى يمتاز بها شعرها ؟ .

— ١ —

من السهل علينا حينما نتتبع الموضوعات التى مارستها المرأة الشاعرة أن يتلقانا منها فى الصدارة الرثاء ، والحنين إلى الوطن ، والوصف ، والغزل ، والتهنئة ، والمدح ، والابتهال إلى الله ، والتأمل فى الأخلاق والحياة .

---

* محاضرة عامة القيت بكلية الآداب بجامعة الرياض مارس ١٩٧٨ نشر بعضها فى الهلال مايو ١٩٨٠ .

ثم يطالعنا من شعرها فى السنوات الأخيرة تمجيد الأمومة ، وإكثار من أغنيات الأطفال ، وإشادة ببطولة المجاهدين ، وتنويه بمآثر الثورات العربية ، وتحميس على استرداد فلسطين ، ودعوة إلى الوحدة العربية ، وتهنئة بالاستقلال ، وأمثال هذا مما يتصل بالأحداث المعاصرة التى انفعلن بها ، فعبرن عن انفعالاتهن فى مناسباتها .

— ٢ —

أما السمات العامة التى يتسم بها شعرهن فهى :

١ — البراعة فى قليل من تلك الموضوعات ، وفى مقدمتها الرثاء ، لأنه مجال فسيح للنواح والبكاء تنطلق فيه عواطفهن ، وإن المرأة لتلجأ إلى دموعها أول ما تلجأ إذا ما قسا عليها الدهر ، وإنها لتوالى بكاءها وتستطيله ، وتلتذ حزنها وتستديمه ، وفاء وحسرة ، أو ضعفاً ورقة ، فإن كانت شاعرة نفست عن نفسها بأبيات تسكب فيها لوعتها وحرقتها .

هكذا رثت الخنساء أباها وأخويها ، ورثت هند بنت عتبة أباها ، ورثت الخرنق زوجها وأبناءها ، ورثت ليلى بنت طريف أخاها الوليد ، ورثت عائشة التيمورية ابنتها ووالدها وأختها ، ورثت نازك الملائكة عمتها ، ورثت شريفة فتحى صديقاً من أصدقاء أدبها ، وحاولت روحية القليني أن ترثى أخاها فبدأت المرثية ولم تتمها ، ورثت هيام رمزى الدرونجى والدها .

ولكنهن فى مراثيهن حريصات على تصوير ما أصابهن من ضعف وذلة بعد فقد من فقدن ، وهذا صدق شعورى وصدق واقعى ، لأنهن يعلمن أن الرجال هم حماتهن وهم ملاذهن .

من هذا قول فاطمة بنت الأحجم فى رثاء أبيها :

قد كنتَ لى جبلاً ألوذ بـه   فتركتنى أضحَى بأجْـرَدَ ضاح
قد كنتُ ذات حمية ما عشتَ لى   أمشى البَرازَ وكنت أنت جناحى
فاليـوم أخضع للذّليل وأتّقِى   منه وأدفعُ ظـالمى بالـرّاح
وأغض من بَصَرى وأعلم أنه   قد بان حـد فوارسى ورماحى

وقول الخنساء فى رثاء صخر :

دقّ عظمى وهاض منى جناحى   هُلْكُ صخر فما أطيق حَابرًا

وليس لهذه الظاهرة إثارة فى رثاء الرجال عزاءهم ، وإن عظم حزنهم ، واشتد ألمهم ، كما نرى فى مرثية متمم بن نُوَيْرَة لأخيه مالك ، وفى مراثى المهلهل لأخيه كليب ، وفى رثاء أبى ذُؤَيْب الهذلى لبنيه ، وفى مراثى حافظ وشوقى وغيرهما للقادة والعظماء .

وذلك أن الرجال يتجلدون ويباهون بتجلدهم ، كقول أنس بن مدركة :

كم من أخ لى كريم قد فُجِعْت به   ثم بقيت كأنى بعده حَجَـر

وقول عمرو بن معديكرب :

كم مـن أخ لى صـالح   بَـوّأته بيَـدىّ لحـدا
ألبستـــــه أثـوابه   وخُلقْت يوم خلقت جَلْدا
مـا إن جـزعت ولا هَلِعْـ   ـت ومـا يَـردُّ بكاى زَنْدا

وقد يبكى الرجل فى شعره ، ولكنه بكاء المتماسك ، وقد يتحدث عن بكائه ولكن فى إيجاز ، كقول أبى ذؤيب الهذلى حينما فقد أبناءه الثمانية فى طاعون :

أوْدَى بَنىَّ فأعقبـونى حسرةً   بعد الرقاد وعَـبْرةً ما تُقْلع
ولقد حرَصْت بأن أدافع عَنهمُ   وإذا المنيـة أقبـلتْ لا تُدْفع

٢٦٤٠٠

وإذا المنيــة أنشبت أظفــارها ألفيت كل تميمــة لا تنفــع
فالعين بعــدهم كأن جفــونهـا سُمِلَتْ بشوك فهي عوراتد مع
وتجلُّــدي للشــامتين أريهم أنى كريب الدهر لا أتضعضع
ولقـــد أرى أن البكاء ســفاهة ولسوف يولع بالبكا من يُفْجَع

ونلاحظ أن الشاعرات في مراثيهن — ما عدا الخنساء في بعض مراثيها — لم يبرعن في تصوير ما يعتلج في نفوسهن من لوعة وأسى ، كما فعل ابن الرومي مثلا في رثاء ابنه ، وعزيز أباظة في رثاء زوجته .

ولعل مرد هذا إلى أنهن ينفسن عن حزنهن بالدموع الحرار الغزار ، أو بالآهات والأنات والعويل ، أو بالصمت الحزين والاستغراق الأليم ، فإذا ما لجأن إلى الشعر بعد ذلك كانت العاطفة قد تنفست ، وكانت جذوة الحزن قد ابتردت .

ومن هنا كان رثاؤهن — مع أنه وثيق الصلة بنفوسهن وميولهن ورقة شعورهن وضعف احتمالهن وسرعة انفعالهن — متشابه السمات ، لا يستطيع منافسة رثاء الرجال .

٢ — أما الغزل فإنه ميدان رحيب جال فيه الشعراء وافتنوا ، وليس من شك في أن المرأة مثل الرجل في أنها تحب وتشتاق ، وتتذكر ، وتتمنى ، وتغضب وترضى ، وتغار وتعتب ، فإن كانت شاعرة توقعنا أن تتغنى حبها في شعر تزجيه العاطفة كما يتغنى الرجل حبه .

فهل تغزلت المرأة الشاعرة ؟ .

نعم ، ولكن غزلها لم ينصب غزيرا ، ولم نشهد منه في العصور السابقة إلا رذاذا يسيرا ، ثم جاءت الشواعر المعاصرات ففرشن في جنة الغزل ألوانا شتى من الزهر ، مثل عائشة التيمورية وغانكة الخزرجي وشريفة فتحي ونازك الملائكة وروحية القليني .

على أن الذوق العربى جرى منذ زمن قديم على النفور من تصريح المرأة بحبها ، ولهذا حرص الغزلون على إظهار المحبوبة بمظهر البخيلة العفيفة البعيدة المنال ، كقول سُوَيْد بن أبى كاهل :

تُسْمِعُ الحداثَ قولا حسنا لو أرادوا غيره لم يُسْتَمعْ

وقول كعب بن الرواع :

ويخالها المرحُ السفيه تجبه وَنوالُها غيرَ الحديث بعيدُ

وقول السليك بن السُّلَكَة :

من الخفرات لم تفضح أخاها ولم ترفع لوالدها شنارا
يعاف وصالَ ذاتِ البَذْلِ قلبى وأتَّبِعُ الممنَّعةَ النَّوارا

ولم يخرج على هذا الذوق العربى العام إلا عمر بن أبى ربيعة، فكثيرًا ما صور نفسه هو المرغوب ، كقوله :

قالت لتِرْبٍ لها تُحَدِّثُها لنفسدَنّ الطواف فى عُمرِ
قومى تَصَدَّىْ له ليعرفنى ثم اغمزيه يا أخت فى خَفَرَ
قالت لها قد غمزته فأبى ثم اسبَطَرّتْ تشتد فى أثرى

ولكن هذا كان مستهجناً منه، حتى لقد قال له كُثَيِّر عزة : لقد أسأت وقلت الهجْر ، ولو أنك وصفت بهذا هرَّة أهلك لكنت قد أسأت إليها ، وإنما توصف الحرة بالحياء والإباء والالتواء والبخل والامتناع .

ولما أنشد ابن أبى عتيق أبياتاً منها :

قالت الصغرى وقد تيمتُها قد عرفناه ، وهل يَخْفَى القمر؟

قال له صديقه ابن أبى عتيق : أنت لم تَنْسُبْ بها ، وإنما نسبتَ

بنفسك ، وكان ينبغي أن تقول : قلت لها ، فقالت لى ، فوضعتُ خدى ، فوطئت عليه . . . .

لهذا قلّما باحت المرأة العربية بغزل فى العصر الجاهلى ، ثم كثر غزلها فى العصر العباسى ، تأثرًا بالحضارة والنعمة والترف وضعف الأخلاق ، حتى لتجد فى غزل بعضهن تكسرًا لا يليق .

من غزلهن العف فى القرن الهجرى الأول أن أبا بكر مر وهو خليفة بطريق من طرق المدينة ، فسمع جارية تنشد وهى تطحن :

وعشقته من قبل قطع تمائمى ... متمايسا مثل القضيب الناعم

وكأن نور البدر سنّةُ وجهه ... يَنْمِى ويَصْعد فى ذؤابة هاشم

وأنا التى لعب الغرام بقلبها ... فبكت بحب محمد بن القاسم

فدق أبو بكر بابها ، فخرجت إليه ، فقال : ويلك أحرة أم مملوكة ؟ .
قالت : مملوكة يا خليفة رسول الله .

فسار إلى المسجد ، وبعث إلى مولاها ، فاشتراها منه ، وأرسلها إلى محمد بن القاسم بن جعفر بن أبى طالب ، وقال : هولاء فِتَنُ الرجال.

أما السمة الغالبة فى غزلهن فهى أنه مزيج من التبرؤ والتمويه والاضطراب والإبهام والتخفى فى أزياء ، يسميها الكبرياء تارة ، أو أقنعة يزعمن أنها الدهاء تارة ، فيجيء أكثر غزلهن فى غموض مقصود أو كتمان يستعصى ويتفلت إلى الظهور ، وقد يزعمن أن غزلهن من تدريب القريحة ، أو من المعارضة ، أو من الخيال المحض ، أو من التصوف .

من هذا قول نازك الملائكة :

لا تسلنى عن سر أدمعى الحرّى

فبعض الأسرار يأبى الوضوحا

بعضها يؤثر الحياة وراء الحسن لغزا
وإن يكن مجروحا
لا تسلني لا تجرح السر فى نفسى
ولا تمح كبرياء سكوتى
لو تكلمتُ كان فى كل لفظ
قبر حُلْم وفجرُ جرح مميت
وتظل الحياة تخلق من وجهى
قناعاً ضلدا يفيض رياء
جامدا باردا أصما ويخفى
بعض شىء سميته كبرياء

وقول عاتكة الخزرجى :

أخفى هواه عليه ما بعد سِرّىَ سِر
وإن خلوت فكلى به اشتغال وفكر
ومن تجنيه بتنا إليه منه نفرُ

وقول روحية القلينى :

الكبرياء تحول دون صراحتى وهواى فى طىّ الجوانح يضطرم

وقد فصلت شريفة فتحى بواعث الكتمان وعللت لها فى قولها :

قال اعزفى ما شئت من نغم الهوى أتراك صُغْت هواك فى نغمات؟
قلت اصطبر يابن الخيال فهذه هى نظرتى للحب فى كلمات
فاسمع لتعرف من خلال قصيدتى رأيى وفلسفتى ومعتقداتى
إن كنت أستر بالحياء مفاتنى وأصون حرمتها عن النظرات
أوكيف أكشف عن أدق مشاعرى وأبيح ما فى الصدر من خلجات؟
أأروح أحكى عن خفايا مهجتى وأتابع الآهات بالزفرات؟

والنفس أعرضها وأهتك سترها . وأذيع حبى وهو سر حياتى
ألأجرد الإحساس من أثوابه لأكون نَهْبَ السمع والغمزات ؟
لا يا صديقى إنما لى مبدئى كالحب عندى من مفاتن ذاتى
القلب محراب يضم عواطفى أو ليس للمحراب من حرمات ؟

وقد يطلقن غزلهن من هذه القيود إلا قيد الطهر والعفاف ، كما فى بعض غزل عائشة التيمورية وشريفة وفتحى وغيرهما .

والحق أنهن معذورات فى ذلك الكتمان والتمويه والاضطراب ، لأن المرأة مطبوعة على الاستحياء من الجهر بحبها ، مفطورة على كتمان هواها ، إذ أنها مطلوبة لا طالبة ، أو مطلوبة وطالبة ، ولكنها كما قال الجاحظ : تحب أربعين سنة وتقوى على كتمان حبها ، وتبغض يوماً واحداً ، فيظهر بغضها بوجهها ولسانها ، والرجل يبغض أربعين سنة فيقدر على كتمان بغضه ، وإن أحب يوماً واحداً شهدت بحبه جوارحه :

سئلت مية بعد موت قابوس : ما كان يضرك لو أمتعته بوجهك قبل موته ؟ .

فقالت : منعنى من ذلك خوف العار ، وشماتة الجار ، ولقد كان بقلبى منه أكثر مما كان بقلبه ، غير أنى وجدت ستره أبقى لما فى الصدور من المودة وأحمد للعاقبة .

وبمثل هذا أجابت عفراء محبوبة عروة بن حزام .

وهذا هو السبب فى أن أدبنا جرى على تصوير المرأة المحبوبة ممنعة بعيدة المنال ، ونفر من تصويرها متهالكة على الرجال ، ولم يخرج على هذا الذوق العربى العام إلا عمر بن أبى ربيعة كما سبق .

لكن الجنوح إلى الاستئثار بالرجل ، والغيرة من المشاركة فيه ، والشك فى

صدق حبه، وما يتصل بهذا الغيظ والغضب تستبد بهن ، فيعجزن أحياناً عن كتمانها لأنهن قادرات على كتمان الحب ، عاجزات عن اخفاء البغض وليس الجهر بالبغض منقصة كالجهر بالحب .

قالت روحية القليني :

أتحبنى وتَصْدُقُ فى هواك وفى وفاك ؟
وتغار لو حَدَّثتُ فى ودٍّ وفى همس سواك ؟
وبرغم أشواق الحسان الفاتنات إلى لقاك
تشتاقنى ويضمنى فى لهفة حَيْرَى هواك ؟

٣ — ثم إنهن تخلفن فى الفخر والحماسة والهجاء والوصف والمدح والحكمة .

ولهن تصيب ضئيل فى الأناشيد وفى أغنيات الأطفال ، وفى عواطف الأمومة عامة ، وهى موضوعات كنا نتوقع أن يكثرن منها ، وأن يبرعن فيها .

٤ — ولا شك أن كثيراً من شعرهن نابع من مشاعر صادقة ومن عواطف جياشة ، وبخاصة الشعر المتصل بالغزل والرثاء والأمومة، لأنهن أبعد من الرجال عن مضايق التورط والمجاملات والمناسبات التى قد تضطر الرجال إلى شعر زائف وإن كان حرص الشواعر المعاصرات على شهود المجامع وعلى المشاركة فى المؤتمرات والندوات ، وتنافسهن فى الظهور والإنتاج وذيوع الصيت، يحمل بعضهن على أن يستقين من عواطف ناضبة ، ويستمددن من وشل أو من ينابيع جافة .

٥ — والسمة الغالبة على شعرهن أنه مقطّعات لا قصائد، لأن القصيدة الطويلة تحتاج إلى صبر وجهد وعزيمة ، وهن لا يطقن الصبر على هذه المعاناة كما يطيق الرجال .

٦ — وتمتاز قصائدهن ومقطعاتهن بوحدة الموضوع ، وهذه محمدة لهن ، ربما كان مرجعها إلى أنهن يستغرقن فى الموضوع الواحد فلا يشفعن إليه سواه ، أو إلى أنهن يسكبن مقدرتهن فى هذا الموضوع ، ثم لا يلبثن أن يشعرن بتخلف المقدرة وتعذر البيان .

يقابل هذا أن أكثر قصائد الرجال كانت إلى مرحلة من القرن العشرين يغلب عليها تعدد الموضوع فى القصيدة الواحدة ، ثم صارت قصائدهم موحدة الموضوع .

٧ — كذلك يسهل على من يتملى شعر النساء أن يجد به كثيراً من التعبيرات النسوية ومن الصور المتصلة بالأنوثة ، لأن هذه وتلك صدًى لحياتهن ولنفوسهن .

من هذا قول الخنساء فى رثاء صخر والتنويه بشجاعته وفتكه بخصمه :

فيُلْفَى صريعــا يَمُجُّ النَّجيع كمِرْجَــل طباخةٍ حين فارا

لأن التشبيه بمرجل الطباخة حين يفور لائق بالمرأة .

وقول عائشة التيمورية فى الفخر :

بين العفاف أصونُ عزَّ حجابى	وبعصمتى أسمو عــلى أترابى
ولقــد نظمت الشعر شيمة معشر	قبلى ذوات الخدْر والأحســاب
فجعــلتُ مــرآتى جبين دفاترى	وجعلت من نقش المداد خضابى
كم زخرفتْ وجنات طِرْسى أنْمُلى	بعــذار خطٍّ أو إهاب شــباب
ما عاقنى خجلى عن العلْيا ولا	سَدْلُ الخمار بلمتى ونقــابى
عن طيِّ مضمار الرهان إذا اشتكتْ	صَعْبَ السباق مطامحُ الركاب

فالصور النسوية واضحة هنا فى صيانة عز الحجاب بيد العفة ، واستبدال الكتب بالمرأة ، والاستعاضة عن الخضاب بالمداد ، وزخرفة وجنات الصحيفة بخط كالعذار ، وسدل الخمار باللمة .

وقول نازك الملائكة فى رثاء عمتها :

أو حيدةٌ فى القبر هامدةٌ وأنا أحسُّ سريرك الخاوى
خصلات شعرك فوقه حُرَقٌ فى عمق يأسى الصارخ الداوى
ومكان رأسك فى الوسادة فى قلبى بقايا كوكب هاوى
وقميصك الباكى أما بَقِيَتْ فيه حرارة جسمك الداوى ؟

فهى تصور ما تشعر به الأنثى وما تفعله فى مثل هذا الموقف ، من تحسس المخدع ، وتخيل عدائر الشعر على الوسادة ، وإطالة النظر الحزين إليهما ، والتفجع حين رؤية القميص وقد ماتت من كانت تلبسه .

ومن هذا قول عاتكة الخزرجى فى الغزل :

هذى فتاتك فى السرير تذوب من وجد وحسره
ولَكَهى من الشَّجَنَ الدفين تجيل فى الآسين نظره

لأن الأنثى هى التى تتحدث عما تشعر به فى سريرها من آلام .

وقول روحية القلينى :

سهرى يا نجم وجْدٌ وحنينٌ ونواحْ
ووسادى وحده يعلم أسرار الجراح
فصتى بالدمع أرويها على سمع الوساد
يكتم السر أميناً حين يبديه الوداد

ومن هذا قول هيام رمزى :

إننى أسطورة من آخر الزمان جئت .
فى رحى الزفرات يمضى العمر فى عجن ولتّ .

لأن ضرب العجين ولته كان من عمل النساء ، وما زال عمل كثير منهن ، وهذا التعبير كثير الدوران على ألسنتهن إلى اليوم .

٨ - وشعرهن حافل بكلمات يرددنها جميعاً ترديداً لا نظير له فى شعر الرجال ، لأن هذه الكلمات موصولة بتكوينهن وبمشاعرهن وبحياتهن وتجاربهن أكثر من صلتها بالرجال ، كالبكاء والدموع والتأوه والأنين والصراخ والجراح والشفاه والحنان والاسترحام .

فمثلا نجد البكاء والدموع فى قول الخنساء ترثى أباها :

أبكى أبى عمْرًا بعين غــزيرة   قليلٌ إذا نام الخلىُّ هجودُها

وفى قول عائشة التيمورية فى الغزل :

أسأل حرُّ الهوى قلبى وأبرزه   جفنى على يد آماقى وأحداقى

وقول نازك الملائكة :

ومئـــات الأسرار تكمن فى   دمعة حزن تلوح فى مقلتين
ومئـــات الألغـــاز فى سكتــة   تهتز خلف انطباقة الشفتين

وقول شريفة فتحى :

وأنا التى أبكى برنة ضحكتى
فى عبرة تجرى وراء العبرة
فجعلت من دمعى مداد كتابتى

وقول هيام رمزى :

كان شــعرى دمعة كبرى   وقيثـــــارا خصيــبْ
دمعـــة تبكى عـــلى الأحــزان   والــوطــن الســليب

ومن ذكر الشفاه قول نازك الملائكة :

ورأينـــاهـــا شـــفاها خــوَتْ   لم تعــد تشتكى أو تجـــوعُ
وأكفـــــاذوتْ وانطـــوتْ   لم يعــد لأبـــناها دموع

وقول شريفة فتحى :

يا زورقا ينساب فى بحر الغرام مترنح الخطوات نشوان الهيام
شبهته بشفاه ثغر حائر متردد بين البكاء والابتسام

وقول روحية القلينى :

رسمت على شفتى ابتسامة أرد بها حين يهدى سلامه

اما الصراخ فنى قول نازك :

تعذبنى حيرتى فى الوجود وأصرخ من ألمى من أنا

وأما الجراح والجرح فى قول عاتكة تناجى النخلة :

أظلى أيا نخلة الشاطئين فؤادى بأفيائك الحانيه
ولا تنكئى ما به من جراح لئلا تكون بها القاضيه

وفى قول روحية :

ودمعى يبوح بسر الجراح ونبدو الحقيقية فى نظرتى

كذلك تكثر الآهات والأنات والتوجع والخيبة وما شاكلها ، كقول الخنساء :

ويلى عليه وَيْلةٌ أصبحتُ حصنى منكسرْ

وقول عاتكة تناجى أمها من باريس :

أواه لو تدرين ما جرَّتْ علىَّ يد الزمانْ
فى الغرب دامية الجراح فقدت عطفك والحنانْ

وقول نازك :

لن يحس الفضاء المديد نار اهاتنا فى المساء الرهيب

وقول شريفة :

فنظمت أشعارى بآنية آهتى ومزجت ألوانى بلفحة زفرتى

وقول روحية :

تسهر الليل مع الدمع الدفين
ومع الآهات فى الصدر حريق

وتتردد كلمة الخيبة فى قول عاتكة :

ويا خيبتى بالناس حين بلوتهم فلله درى ما أشد وأقسى

وفى قول نازك :

عرفتم به فى النهاية لون السراب
ووهم الحياه
فواخيبتاه

ومن استعمالهن لكلمة الحنان وما شاكلها قول نازك :

يبكى فلا تحنو علينا يد بربتة من حنان

وقول عاتكة :

أنت لى الملجأ إن عز حمى وأنت لى الصدر الحنون المجتبى

وقول روحية :

أنت بالحب رقة وحنان وابتسام ولهفة وولوع

وشعرهن رقيق العبارة ، لين الأسلوب ، خال من عمق الفكر ، ومن تفويف الخيال ، وتوليد المعانى . وإن جنحت الخنساء أحياناً إلى الجزالة والإغراب ، وحاكت القدماء عائشة التيمورية فى بعض قصائدها فمالت إلى الفخامة والصناعة فتوارت أنوثتهما خلف أستار المحاكاة .

١٠ — وإنه ليسترعى الانتباه أن المرأة التى ألهمت الرجال الشعر لم تستطع أن تساميهم فيه ، بل كانت وما زالت تقفو آثارهم ، وتترسم خطاهم .

وهذا هو السبب فى أن معانى شعرهن طابعها العام مذكر حتى ليكاد يكون صورة من شعر الرجال ، إذا استثنينا بعض السمات الأسلوبية والمعنوية .

فما مرد هذا ؟

قد يقال إن ظروفهن الخاصة حجبتهن عن بعض ميادين القول التى برع فيها الرجال ، وأن الشعر لا بد أن يصور تجربة ذاتية مرت بالشاعر ، فالذى يجيد الغزل لا بد أن يكون محباً ، والذى يصف الحرب لا بد أن يكون قد غركها ، وذاق حلوها ومرها ، وواصف الخمر لا بد أنه ذاقها وأحس نشوتها ، فكيف نتطلب من المرأة أن تجيد فنوناً من القول لا تمس حياتها كما تمس حياة الرجال ؟

ولكن هذا القول مردود ، لأن المرأة ساهمت قديماً وحديثاً فى الحياة الأسرية والاجتماعية ، وشاركت فى الحروب ؛ فلماذا قصرت فى الشعر المتصل بهذه الحياة ؟ . ولماذا لم تنبغ فى الأغراض الوثيقة الصلة بحياتها النسوية ؟ . ولماذا لم تتفوق فى الرثاء غير الخنساء ؟ . على أن دعوى التجربة الذاتية فيها تضييق ومجافاة للواقع ، وإلا لوجب أن يعيش الروائى أو الشاعر أو القاص أو الكاتب ألواناً من المعيشة ، وأن يجرب ضروباً من التجارب لا تتسع لها حياته ، ولا تطيقها قدرته .

والشاعر الموهوب يستطيع أن يتمثل الجو الذى يريده ، وأن يتخيله ويتأثر به ثم يعبر عن أحاسيسه كأنه أصيل فى مشاعره .

ولا شك أن العاطفة قد تكتسب ، فهناك ظروف تحتم علينا أن ننفعل ، فسرعان ما يعرض علينا شعورنا بتلك الظروف أن نستجيب لها ، أو على الأقل أن نتوهم أننا منفعلون .

وقد قال جوبلو — أحد علماء النفس — هناك نصيب كبير من

التصنع والعرف في عواطف الحياة الاجتماعية ، فنشعر بها بمجرد أن نعتقد ضرورة الشعور بها ، وليست العواطف الاجتماعية هي التي تنطبع وحدها بطابع الإلزام ، بل هذا شأن جميع العواطف السامية .

ومن هذا نستنبط أن الرجل الشاعر والمرأة الشاعرة قد يستمدان من عاطفة أصيلة ذاتية فينبسان عما بهما ، وهذا لا شك فيه ، وقد يتأثران عن طريق المجاملة والمواساة والمشاركة لغيرهما فى مشاعره، فينقلب تأثرهما هذا إلى عاطفة أيضاً صالحة لأن تتنفس .

ثم إنه لا يصح أن ننسى أن كثيراً من الممثلين والممثلات يحتم عليهم عملهم أن يقوموا بتمثيل دور معين ، فيتظاهرون بالضحك أو بالفرح أو بالحزن أو بالبكاء ، وهم كثيراً ما يشعرون مع هذا التظاهر بالسرور أو بالأسف حقيقة ، لأن حركاتهم وسكناتهم أحدثت تغيراً جسدياً نجم عنه الفرح أو الأسى .

ولقد أيد هذا كله عالمان نفسيان كبيران هما : وليم جيمز و كارل لانج ، إذ اتفقا على نظرية فى العواطف بغير أن يكون أى منهما على علم ببحث الآخر .

ومعنى هذا أن الادعاء بأن المرأة لم تبرع فى فنون الشعر لأنها لم تندمج فى الحياة العامة اندماج الرجل ، ادعاء لا يقوى على نقاش .

فما السبب الحقيقى فى أن المرأة الشاعرة لم تتفوق فى فنون الشعر التى شاركت الرجال في التأثر بدوافعها ، سواء أكانت منفعلة انفعالا أصيلا أم منفعلة انفعالا غير أصيل ؟ .

أحسب أن السبب راجع إلى أن الفن الرفيع الخالد ينبثق من عواطف فياضة طويلة الأجل ، وعواطف النساء جياشة ، ولكنها متقطعة قصيرة الأنفاس .

ثم إن الإنتاج الأدبى يحتاج إلى استعداد طبيعى ، وإلى جهد وصبر وتنقيح

وإرادة ، وحظهن من هذا أقل من حظ الرجال .

وأضيف إلى هذا أن النساء أضعف ابتكاراً من الرجال ، فالمرأة تغنى فتغذى القلوب ، وتمتلك الأسماع ، ولكن مرد هذا إلى حلاوة صوتها ، وطراءة نغماتها ، ورقة أدائها وإلى الموسيقى واللحن ، والصوت هبة لا مجال فيه لمهارة أو ابتكار ، وهى تتغنى بتلحين صنعه الرجل لها ، لأنها عاجزة عن ابتكار الألحان التى تتغنى بها .

وهى تعزف على آلات الطرب لتوقع الألحان التى ابتكرها الرجل ، لأنها عاجزة عن إنشاء ألحان ، كالتى ابتدعها فاجنر أو موزارت أو شاتوبريان أو عبد الوهاب .

وهى ترقص فتتأود وتتثنى وتميد ما شاء لها الجسد الغض والقوام الرشيق والخصر الأهيف ، ولكنها تتعلم الرقص من الرجل ولا تبتكره .

وهكذا يتأتى الابتكار فى الفنون على الجنس اللطيف ، كأن الطبيعة التى منحتهن فنونها وافتتانها سلبتهن هبة الابتكار التى جادت بها على الرجال .

فلا عجب فى أن شعر النساء يتقفى شعر الرجال حيناً ، ويستشرف إليه من بعيد حيناً آخر .

وليسأل كل منا نفسه : هل فى الشاعرات من بلغت فى الحماسة درجة عنترة بن شداد ؟ .

هل فيهن من بلغت فى الفخر درجة عمرو بن كلثوم ؟ .

هل سمت شاعرة فى الإشارة بماضى الأمة المجيد إلى سماء أحمد شوقى ؟.

هل فيهن من ينافس غزلها غزل كثيّر عزة وجميل بثينة والعباس بن الأحنف وابن زيدون ؟ .

ومن التى برعت فى الوصف براعة البحترى وابن الرومى ؟ .

وأين الهجاء النسوى الذى يدنو إلى مستوى الحطيئة والفرزدق وجرير؟.

وأية شاعرة يقارب مدحها مدائح أبى تمام والمتنبى وابن هانىء الأندلسى ؟ .

ومن التى ارتقت فى شعر التصوف إلى ما يدنو من أبى العتاهية وابن الفارض وابن عربى؟ .

وهل لامرأة شاعرة شعر وطنى يشبه شعر شوقى وحافظ إبراهيم ورفيق المهدوى ؟ .

ومن هى التى بلغت فى أناشيد الأطفال وأقاصيصهم مكانة عثمان جلال وأحمد شوقى ؟ .

وأين المسرحيات النسوية التى تقارب مسرحيات شوقى وعزيز أباظة ؟.

وفى أى عصر كان للشواعر حكمة مثل حكمة المتنبى والمعرى وشوقى ؟ .

ثم ليسأل كل منا نفسه مرة ثانية عن النثر الفنى للمرأة ، ليجد أنه لم تنبغ منهن كاتبة تستطيع أن تقف فى صف الجاحظ وابن المقفع وأبى حيان التوحيدى ومصطفى صادق الرافعى وأحمد حسن الزيات وطه حسين وعباس العقاد .

فإذا ما سأل نفسه مرة ثالثة عن الخطابة كان الجواب الحاسم أن منصات الخطابة عطلت من خطيبات يشبهن على بن أبى طالب أو الحجاج أو زياد أو الحسن البصرى أو قطرى بن الفجاءة أو عبد الله النديم أو مصطفى كامل أو سعد زغلول .

الشعر والسلام

الشعر والسلام

ترددت صيحات السلام فى الشعر، سواء أكان السلام فردياً متصلا باثنين أم كان جماعياً متصلا بقبيلتين أو أكثر .

أولا : السلام الفردىّ

— ١ —

صداه فى العصر الجاهلى

فى العصر الجاهلى قلة قليلة من الشعراء هم الذين أخذوا أنفسهم بالسلام الفردى ، منهم ذو الإصبع العَدْوانى — حُرْثان بن الحارث ، شاعر فارس من قدماء الشعراء — فقد اختصم أفراد من قبيلته عَدْوان وسألهم قبول الدية، فأبوا ، وتحاربوا حتى تفانوا ، فقال قصيدة صور فيها رفض ابن عمه للصلح ، وذكر أنه لا يحزنه أن ينال ابن عمه عَرَض الحياة الدنيا بشتمه ، لأنه صبور على هذه المساءة ، ثم أنبأه أنه فى غِنىً عنه ، لأن الله هو الرازق والقابض والباسط ، وقد أغنى كلا منهما عن الآخر ، وافتخر بأنه كريم ترحب داره بالضّيفان ، وبأنه يجود ولا يمن على من يجود عليهم ، ثم ختم الأبيات بأن ابن عمه لو قابل اللين بمثله لوجد ذا الإصبع إنساناً كريماً سمحاً سهلا يقابل الجميل بالجميل، وهو فى الوقت نفسه ذو أنفة وعزة وإباء ، حتى إن كنه لو كرهت صحبته لعاف صحبتها .

من هذه القصيدة قوله :

ولى ابن عم على ما كان من خُلُق ... مختلفان فأقليـــــه ويقــليني

فإن ترد عَرَضَ الدنيا بمَنْقَصتى ... فإن ذلك مما ليس يشجينى

ولا تَرَى فىَّ غير الصبر مَنْقَصةً ... وما سواه فإن الله يكفينى

إن الذى يَقْبِض الدنيا ويبسطها ... إن كان أغناك عنى سوف يغنينى

إنى لعمرك ما بابى بذى غَلَق عن الصديق ولا خيرى بممنون
يا عمرو لو لِنْتَ لى ألفيتنى بَشَرًا سمحا كريماً أجازى من يجازينى
والله لو كرهَتْ كفى مصاحبتى لقلتُ إذ كرهَتْ قربى لها بينى (١)

ووصف عَدِى بن زيد العِبادى عداوة الأقارب بأنها أشد إيذاء وإيلاماً من ضربات السيوف :

عداوة ذى القُرْبَى أشد مضاضة على النفس من وَقْع الحسام المهنَّد (٢)

ووصفها عَرْقَلَة بن جابر الطائى بالجرب الذى ينتشر ويتغلب على العلاج :

وضِغْن ابن عم المرء فاعلم دواؤه كذى العُرِّ يُرْجَى برؤه ثم يُنْشَرُ (٣)

ونصح النابغة الذبيانى بالتسامح فى معاملة الناس جميعاً ، سواء أكانوا أقارب أم أباعد ، لأن البشر لا بد أن يخطئوا عامدين وغير عامدين :

ولستَ بمستَبْقٍ أخا لا تَلُمُّه على شَعَثٍ أى الرجال المهذَّبُ (٤)

— ٢ —

أصداؤه فى العصور الإسلامية

جاء الإسلام داعياً إلى الحق والخير والفضائل جميعاً ، ومنها الصبر والحلم والعفو والرحمة ، وهى وثيقة الصلة بالسلام الفردى .

أما الصبر فإن الله تعالى أمر نبيه الكريم أن يصبر على أذى الكفار وعلى دعاواهم الباطلة ، فقال : «واصبر على ما يقولون ، واهجرهم هجراً جميلاً» (٥)

---

(١) المفضليات ١/١٦٠ والأمالى ١/٢٥٥ والأغانى ٣/١٠٤ .
(٢) حماسة البحترى ٣٩٣ الحسام المهند : السيف القاطع .
(٣) حماسة البحترى ٣٩٣ العر : الجرب .
(٤) حماسة البحترى ١٠٠ شعث : الشعث التفرق وتلبد الشعر والمراد العيب .
(٥) سورة المزمل ١٠ .

وأمر المؤمنين بالعدل فى الثأر ، ورجح الصبر، وترك العقوبة على السيئة بمثلها ، فقال سبحانه : « وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين »(١).

وأما الحلم فإن الحليم من أسماء الله تعالى الحسنى ، قال تعالى: « واعلموا أن الله غفور حليم »(٢)، وقال فى وصف النبى عليه الصلاة والسلام : « فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك »(٣).

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كما وصفه على بن أبى طالب أوسع الناس صدرا(٤).

وجاء فى قصة إسلام زيد بن سعنة — من أحبار اليهود — قوله لعمر بن الخطاب : كل علامات النبوة قد عرفتها فى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم حين نظرت إليه ، إلا اثنتين لم أخبرهما فيه : يسبق حلمه جهله ، ولا تزيده شده الجهل عليه إلا حلماً فقد اختبرتهما (٥).

وكثيرا ما خض النبى المسلمين على الحكم وكظم الغيظ والعفو مثل قوله لأصحابه ما تعدون الصرعة فيكم ؟ قالوا الذى يصرع الرجال قال النبى ليس ذلك ، ولكن الذى يملك نفسه عند الغضب (٦).

وقوله : ابتغو الرفعة عند الله، قالوا : وما هى يا رسول الله ؟ . قال :

---

(١) سورة النحل ١٢٦ .

(٢) سورة البقرة ٢٣٥ .

(٣) سورة آل عمران ١٥٩ .

(٤) احياء علوم الدين للغزالى ٢/٣٣٧ .

(٥) المغنى عن حمل الأسفار للعراقى على هامش الاحياء ٢/٣١٥ .

(٦) فتح المبدى بشرح مختصر الزبيدى ٣/٣١٠ وكنز العمال للهندى ٢/١٠٦ .

تصل من قطعك، وتعطى من حرمك ، وتحلم عمن جهل عليك(١).

وأما العفو فإن من أسماء الله الحسنى العفو قال تعالى : « إن الله العفوّ غفور»(٢)، وأمر به نبيه صلى الله عليه وسلم فى قوله: « فاعف عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين»(٣)، وأمر عباده فى قوله : « وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين . الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين »(٤).

وقال : « ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور » (٥) .

رحبب رسول الله العفو إلى الناس فى قوله : من عفا عند القدرة عفا الله عنه عنه يوم العُسْرة(٦).

وأما الرحمة فإن الرحيم من أسماء الله تعالى، فهو القائل : « وربك الغفور ذو الرحمة »(٧)، والقائل : « إن الله بالناس لرءوف رحيم »(٨).

وهى من صفات النبى صلى الله عليه وسلم ، قال تعالى : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم، عزيز عليه ما عَنِتُّم ، حريص عليكم ، بالمؤمنين رءوف رحيم»(٩).

وقد أمر النبى بها فى قوله: من لا يَرْحَم لا يُرْحَم(١٠)، وفى قوله: وفى قوله : خاب عبد وخسر ، لم يجعل الله تعالى فى قلبه رحمة للبشر (١١) .

---

(١) احياء علوم الدين للغزالى ٣/١٥٤ .
(٢) سورة الحج ٦٠ .
(٣) سورة المائدة ١٣ .
(٤) سورة آل عمران ١٣٣ — ١٣٤ .
(٥) سورة الشورى ٤٣ .
(٦) كنز العمال ٢/٧٧ .
(٧) سورة الكهف ٥٨ .
(٨) سورة البقرة ١٤٣ .
(٩) سورة التوبة ١٢٨ .
(١٠) فتح المبدى ٣/٣٠٣ .
(١١) كنز العمال ٢/٣٤ .

لهذا كثر بعد الإسلام مؤثر والسلام فى أشد الحالات ضيقاً وحرجاً ، مثل مثل الأحنف بن قيس ، فقد كان كثير العفو ، عظيم الحلم ، ولهذا ساد عشيرته .

وكان يقول : ما آذانى أحد إلا أخذت فى أمره بإحدى ثلاث : إن كان فوقى عرفت له فضله ، وإن كان مثلى تفضلت عليه ، وإن كان دونى أكرمت نفسى عنه .

ومنهم قيس بن عاصم ، قيل للأحنف بن قيس : ممن تعلمت الحلم ؟ . قال : من قيس بن عاصم ، كنا نتعلم منه الحلم كما يتعلم الناس الفقه من الفقهاء ، ولقد حضرت عنده يوماً وقد جاءوا إليه بأخ مكتوف قتل ابناً من أبنا قيس ، فقال قيس : ذعرتم أخى ، أطلقوه واحملوا إلى أم ولدى ديته ، فإنها ليست من قومنا ، ثم قال :

أقول للنفس تصبيرًا وتعــزية   إحدى يَدَىَّ أصابتنى ولم تُرِدِ
كلاهما خلفٌ من فقد صاحبه   هذا أخى حين أدعوه وذا ولدى(١)

أما الشعراء الاسلاميون فقد اقتدوا بالإسلام ، فجنحوا إلى المسالمة وافتنوا فى تصويرها ، وجاء هذا فى مظهرين : هما المفاخرة بأن المسالمة من أخلاقهم ، وتوصية غيرهم بها ونصحه .

المظهر الأول

المفاخرة بالمسالمة

فمن الفخر قصيدة لمعن بن أوس ، وصف فيها حلمه وصفحه ومسالمته لابن عمه ، قال فيها : إن لى قريباً مبغضاً لى ، حلمت عليه حتى قلمت أظفار

---

(١) المستطرف للأبشيهى ١/٧٠ .

بغضائه ، ثم فصّل ما كان بينهما فى قوله: إن هذا القريب كان يسعى جاهداً لإذلالى ، على حين أننى كنت أبغض إذلاله بغضى للموت ، وكنت أتطلب منه رعاية القرابة فيتطلب منى قطيعتها ، وهذا سفه وحمق وجرم .

وكنت كلما بنيت لنفسى أو للقبيلة مجداً سعى هو لهدمه ، وشتان ما بين بان وهادم ومصلح ومفسد .

وقد حرت فى أمرى أأعفو عنه فأغمض عينى على قذى لا طاقة لى بآلامه وهو لا يعلم أننى عفوت ؟ .

أم أقابل عدوانه بمثله ، فأكون كمن يضع ريشاً فى سهام عدوه المصوبة إليه لتصير أسرع إلى واضعها وأنفذ فى جسمه .

لكننى صبرت على قريبى ، وآثرت المسالمة .

ولولا مراقبتى لله تعالى ، ومراعاتى لحقوق الرحم التى أمر الله برعايتها ، لقابلت شره بمثله ، ولعلوته بسيفى ، ووسمته بعار لا يشبهه عار .

على أننى لم أيأس ، بل ظللت أعامله بالعطف واللين كما تعامل الأم ولدها ، وجعلت أخفض له جناحى وأتألفه آملا أن تحبب إليه القرابة مسالمتى ، وأن أنتزع حقده وكراهيته .

ولقد تحقق ما أملته ، إذ انتزعت ضغنه ، وكان شديداً ، فأطفأت نار العداوة والحرب التى أوقدها لى ، وصار مسالماً لى ودودا :

وذى رحم قلمت أظفار ضغنه بحلمى عنه وهو ليس له حلم
يحاول رغمى لا يحاول غيره وكالموت عندى أن يحل به الرغم
إذا سمته وصل القرابة سامنى قطيعتها تلك السفاهة والإثم
ويسعى إذا أبنى ليهدم صالحى وليس الذى يبنى كمن شأنه الهدم
فإن أعف عنه أغض عينا على قذى وليس له بالصفح عن ذنبه علم
وإن انتصر منه أكن مثل رائش سهام عدو يستهاض بها العظم

صبرت على ما كان بينى وبينه ... وما تستوى حرب الأقارب والسلم
فلو لا اتقاء الله والرَّحِمُ التى ... رعايتها حق وتعطيلها ظلم
إذاً لعلاه بارقى وخطمته ... بوسم شنار لا يشاكله وسم
فما زلت فى لينى له وتعطفى ... عليه كما تحنو على الولد الأم
وخفضى له منى الجناح تألفاً ... لتدنيه منى القرابة والرَّحْم
لأستل منه الضغن حتى استللته ... وقد كان ذا ضغن يضيق به الحلم
وأطفأت نار الحرب بينى وبينه ... فأصبح بعد الحرب وهو لنا سلم(١)

وإذا كان قد صور فى هذه القصيدة مسالمته لابن عمه ، فإن له قصيدة أخرى وصف فيها مسالمته لصديقة بأنه استعطفه بوده الخالص الدائم المتصل على تقلب الأحوال ، فلن يحيد عن هذا الود إن تطاول على صديقه خصم ، أو بطش به عدو ، أو ضاق به مكان ، وسيجده ظهيراً له فى جميع الحالات ، يدفع عنه الشر ، وإذا أصابه غرم سارع إلى نجدته بماله .

ثم عاتب صديقه هذا بأنه دائب على الإساءة إليه ، حتى كأن به داء يشفيه بهذه الإساءة ، وقال له إن الذى تتعجله من إثارة الحقد الكامن فى نفسك ومن معاملتى لك بمثل معاملتك لى لن يتحقق على عجل أو على بطء ، فإننى أحلم عليك وأسالمك ، ولن أؤاخذك بما يبدو من مساءتك ، بل أقابله بصفح جميل عنك ، أملاً فى صلاح يظهر منك فى مقتبل الزمن ، وفى مراجعة لنفسك تمحو قبيح ما قدمت ، فإن لم يحدث هذا وآثرت القطيعة فإنك تفقد أخاً حميماً بمنزلة يدك اليمنى فى مناصرتك ومساعدتك ، فانظر من تقتاض منه ؟ وعلى من تعول بعده ؟ :

لعمرك ما أدرى وإنى لأوجل ... على أينا تعدو المنية أول(٢)

(١) الأمالى ١٠٢/٢ والأغانى ٦٠/١٢ والمعانى لابى هلال العسكرى ١٥٢/١ وحماسة البحترى ٣٨٢ .
(١) أوجل : اشد وجلا وخوفا .

وإنى أخوك الدائم العهد لم أحُلْ ... إن أبْزَاك خصم أو نبابك منزل(١)
أحارب من حاربت من ذى عداوة ... وأحبس مالى إن غرمتَ فأعْقل(٢)
كأنك تشفى منك داء مساءتى ... وسخطى وما فى رَيْثَتى ماتَعَجَّل(٣)
وإن سُؤْتنى يوماً صفحتُ إلى غد ... ليُعْقِبَ يوماً منك آخر مقبل
وإنى على أشياء منك تريبنى ... قديماً لذو صفح على ذاك مُجْمل
ستقطع فى الدنيا إذا ما قطعتنى ... يمينك فانظر أى كف تَبَدَّل ؟
إذا أنت لم تنصف أخاك وجدته ... على طَرَف الهجرانِ إن كان يعقل
إذا انصرفت نفسى عن الشىء لم تكد ... إليه بوجه آخر الدهر تُقْبل(٤)

كذلك افتخر ابن الرومى بأنه يتغاضى عن زلات صديقه متناسياً إياها متجنباً ذكرها ، أملا فى العودة إلى الود والحب ، ومكافأة للإخوان بالوفاء وبمقابلة إساءتهم بالإحسان ، ولهذا يذكر نفسه بمحامدهم مضاعفة إذا تذكر ذنوب غيرهم مفردة :

إنى لأغْضِى عن الزلات مجتنباً ... ذكرًا إذا كان بعض القولِ نسيانا
أغضى الجفون عن السوأى مراقبة ... لما يكون من الحسنى وما كانا
أجزى الأخلاء صفحاً عن إساءتهم ... إذا أساءوا وبالإحسان إحسانا
أذكِّر النفس مَثْنَى من محاسنهم ... إذا ذكرتُ ذنوبَ القوم أحْدانا(٥)

ومن الفخر بالمسالمة والصفح عن الهفوات قول أحمد بن محمد اليزيدى :

---

(١) أبزاك : غلبك .

(٢) أعقل : أغرم ما لزمك .

(٣) ريثتى : بطئى .

(٤) شرح ديوان الحماسة للتبريزى ٧٨/٣ وللمرزوقى ١١٢٦/٣ ، ومحاسة البحترى ٩٠ .

(٥) ديوان ابن الرومى ٤١٣ .

ومن جفاني لم يكن لومه دَأبي ولا تَعْنيفُه شاني
أعفو عن السيء من فعلهم وأتْبعُ الحُسْنَى بإحسان

وقول أبي الطيب المتنبي :

وأحلم عن خِلِّي وأعلم أنه متى أجْزِه حلماً على الجهل يندم (١)

وقوله :

أصاحبُ حلمي وهو بي كرمٌ ولا أصاحب جهلي وهو بي جُبن (٢)

وقول أبي فراس الحمداني :

ماكنتُ مذْ كنتِ إلا طوعَ خِلاَّني ليست مؤاخذة الخلان من شاني
يجني الخليل فاستحلي جنايته حتى أدلَّ على عفوي وإحساني
يجني علي وأحنو صافحاً أبدا لا شيء أحسن من حان على جاني (٣)

وقد ظرف الشاعر محمود الوراق في تعليل صفحه عن المسيء، لأن المسيء أحد ثلاثة : إما رجل أعلى منه قدرًا ، وإما رجل دونه ، وإما أقل . فإن كان أعلى منه قدرًا فإن الواجب أن يعفو عن إساءته ، وإن كان دونه فإن الأكرم بالشاعر أن يصون نفسه عن مقابلة إساءته بمثلها ، إن كان نظيره فإنه يتفضل عليه بالصفح .

ولا شك أنه أخذ هذا المعنى من قول الأحنف بن قيس وقد سبق ، قال محمود الوراق :

سألزم نفسي الصفح عن كل مذنب وإن عظمتْ منه عليَّ الجرائمُ
فما الناس إلا واحد من ثلاثة شريف ومشروف ومثلٌ مقاوم

---

(١) ديوان المتنبي ٤/١٣٦ .
(٢) ديوان المتنبي ٤/٢٣٧ .
(٣) ديوان أبي فراس الحمداني ٢/٤٠٥ .

فأما الذى فوقى فأعرف قدره وأتبع فيه الحق والحق لازم
وأما الذى دونى فإن قال صنت عن إجابته نفسى وإن لام لائم
وأما الذى مثلى فإن زلّ أو هفا تفضلت إن الحر بالفضل حاكم(١)

ثم جاء إسماعيل صبرى فصور مسالمته لصديقه بأنها غلابة ، حتى إنه إذا همّ بتصويب سهمه إليه جزاء على خيانته برز طيف الود فكسر السهم ، ومنع الرمى :

إذا خاننى خل قديم وعقّنى وفوقت يوماً فى مقاتلة سهمى
تعرض طيف الود بينى وبينه فكسّر سهمى فانثنيت ولم أرم(٢)

وقال أيضاً :

إذا ما دعا داع إلى الشر مرة وهزت رياحُ الحادثات قناتى
ركبت إليه الحلم خير مطيةً وسرْتُ إليه من طريق أناتى(٣)

المظهر الثانى

النصح بالمسالمة

ومن النصح بالمسالمة والتجاوز عن هفوات الناس ، واستاضى عن زلاتهم ، وإعفائهم من اللوم ، قول عبد الله بن معاوية الجعفرى : إنه من الخطأ أن تلوم صاحبك إذا أخطأ مرة ، وتيأس من صحبته ، لأنك لن تجد أخاً لا تعيب فيه خلقاً مهما تحرص على النظر إليه بعين راضية :

(١) المستطرف ١٧٦/١ .
(٢) ديوان اسماعيل باشا صبرى ١٤٤ تفويق السهم : اعداده للرمى ، كناية عن ارادة العقاب ومجازاة الشر بمثله .
(٣) ديوان اسماعيل باشا صبرى ١٣٧ .

لا تيبأسنّ من صاحب وتلومه إن زلّ زلّته
ما من أخ لك لا تعيـ ـب ولو حرصت عليه خلّه(١)

وقول كثيّر بن عبد الرحمن الخزاعى :

ومن لم يغمض عينه عن صديقه وعن بعض ما فيه يمت وهو عاتب
من يتتبّع جاهداً كل عثرة يجدها ولا يسلم له الدهر صاحب(٢)

كذلك قال بشار بن برد إنك إن عاتبت صديقك على كل هفوة فلن تجد صديقاً ، وحبب إلى الناس التسامح بقوله : إنك إذا كنت ظمآن ولم تجد إلا ماء عكراً شربت منه مرات ، وإلا مت من العطش :

إذا كنت فى كل الأمور معاتباً صديقك لم تلق الذى لا تعاتبه
فعش واحداً أوصل أخاك فإنه مقارف ذنب مرةً و مجانبه
إذا أنت لم تشرب مراراً على القذى ظمئت وأى الناس تصفو مشاربه(٣)

وقال أبو الطيب المتنبى :

وما قتل الأحرار كالعفو عنهم ومن لك بالحر الذى يحفظ اليدا
إذا أنت أكرمت الكريم ملكته وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا
ووضع الندى فى موضع السيف بالعلا مضر كوضع السيف فى موضع الندى(٤)

ثم جاء أحمد شوقى فحض على التعالى بالحلم على الطيش والجزع ، وحض على العفو عمن أساء بالأمس ، لأن الحياة أقصر من أن يثقلها الناس بالعتاب والحساب :

---

(١) حماسة البحترى ١٠٧ خلة : خصلة .
(٢) حماسة البحترى ١٠٠ .
(٣) ديوان بشار بن برد ١/٣٠٩ .
(٤) ديوان المتنبى ١/٢٨٨ .

وارْبأ بحلمك في النوا زل أن يُلِمَّ به الجَزَعْ
واغفر لحاسد نعمة بالأمس نالك أو وَقَعْ(١)
ما في الحياة لأن تعا تب أو تحاسب مُتَّسَع(٢)

السلام القبلى والدولى

كان الناس — وما زالوا — يتحاربون فى كل عصر وفى كل صقع ، وكلما تقدمت بهم الحضارة وارتقى بهم العلم افتنُّوا فى صنع عتاد الحرب ووسائل التخريب والتدمير والإفناء. وهم بهذا يقوضون بمخترعات العلم والحضارة ما أبدع العلم ويهدمون اليوم ما بنت أجيال من قبل. وهؤلاء المتحاربون المخربون لا يبتغون من وراء الحرب إلا توسيع الرقعة ، وبسط النفوذ والسلطان ، وإرواء الظمأ إلى المجد والشهرة ، واستعباد الضعفاء ، والاستئثار بخيرات الأرض .

ولقد عرف العالم بتجاربه أن الحروب تزهق الأرواح ، وتوتم الأطفال ، وترمل النساء ، وتثقل الأمهات ، وتخرب وتدمر ، فلم يكن بد من أن ترتفع صيحات من بعض العقلاء الذين يؤثرون خير البشر وسلامتهم وأمنهم ، ويحزنون على ما يرون من دماء تراق ، وصلات تتقطع ، وذعر يقض المضاجع ، وبؤس وتشريد وإفساد ، فيدعون إلى الصلح وإلى السلام

— ١ —

صداه فى العصر الجاهلى

إذا كان العصر الجاهلى قد غص بالحروب القبلية التى تتوالد وتتوالى فإن بعض شعراء العصر لم يرضهم هذا السلوك ، فنفروا من الحرب ، وكشفوا عن جناياتها ،

(١) وقع : سب وعاب .
(٢) الموقيات ١٨٩/١ .

ودعوا إلى الصلح والسلام ، وأشادوا بالساعين إلى الصلح والسلام .

ومن الخطأ أن نصف رجال العصر الجاهلي كلهم بالحمق والطيش والظمأ إلى سفك الدماء، فقد كان فيهم عقلاء وحكماء وصلحاء، وحسبنا أن عنترة بن شداد وهو البطل المعروف — قيل له : صف لنا الحرب ، فقال : أولها شكوى ، وأوسطها نَجْوَى ، وآخرها بَلْوَى (١).

أما الشعراء الذين نفّروا من الحرب ودعوا إلى السلم فمنهم زهير بن أبي سُلْمَى (٢)، فقد أنذر الساعين إلى الحرب بأنهم إذا أشعلوها احترقوا بنارها، وذموا عواقبها وآثارها ، وإذا هاجوها استشرت وافترست وأهلكت وحطمت كما تحطم الرحى الحب الذى تطحنه ، ولا بد أن يكون مشعلوها فى الهالكين. وبين زهير أن الحرب تلد توأمين ، يقصد أن شرورها تتضاعف ، ولن يكون الناشئون فى بيئة موبوءة بالعداء والبغضاء إلا ناقمين موتورين مشائيم يسعون بالشر ، كأن كلا منهم أحمر ثمود الذى عقر ناقة نبيهم صالح عليه السلام التى كانت معجزة له ، لها الماء يوماً ولهم يوما ، فلما عقرها أهلك الله قبيلة ثمود قوم صالح .

ثم سخر زهير بمشعلي الحرب إذ صور لهم ويلاتها الكثيرة بأنها تزيد على خيرات العراق ، أو صور لهم الديات التى يتقاضونها تنافس فى كثرتها هذه الخيرات ، وشتان ما بين الخيرات والشرور ، ولكنه يتهكم ويسخر :

وما الحرب إلا ما علمتم وذقتمُ ... وما هو عنها بالحديث المُرَجَّمِ (٣)
متى تبعثوها تبعثوها ذميمة ... وتَضْرَ إذا ضرّيتموها فتَضْرَمِ (٤)

---

(١) العقد الفريد ١٠٩/١ .
(٢) شرح القصائد العشر للتبريزى ١٧ .
(٣) الحديث المرجم : الحديث غير المستيقن .
(٤) تضر : تتعود وتدرب . تضرم : تشتعل .

فتنتج لكم غلمـان أشأمَ كلهم . كأحمر عاد ثم تُرْضع فتفطم(١)
فتغلل لكم مـالا تُغل لأهلها قُرًى بالعراق من قفيز ودرهم (٢)

— ٢ —

أصداؤه فى العصور الإسلامية الماضية

استهل الإسلام قائماً على السلام ، داعياً إلى المثل العليا فى جميع الصلات والمعاملات ، فإذا لم تنجح هذه المثل تمشى الإسلام مع الواقع ، وجارى الأحداث ولكن فى تسام وتصون ومراعاة لما يجب أن يسود بين الناس :

ولا عجب من أن الإسلام دين السلام ، فإن السلام من أسماء الله الحسنى ، وإن المسلمين يقولون فى تشهدهم فى صلواتهم مرات فى كل يوم : السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، ويختتمون كل صلاة بالسلام :

وكيف لا يكون الإسلام دين السلام والقرآن الكريم يسمى الجنة دار السلام؟ قال تعالى : « لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون(٣) » ، ويجعل التحية فى الجنة سلاماً : « تحيتهم يوم يلقونه سلام ، وأعد لهم أجرًا كريما(٤) » .

وكيف لا يكون والإسلام دين السلام والله سبحانه وتعالى يصف عباده المتقين بالمسالمة فى قوله : « وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا ، وإذا

---

(١) أشأم : المراد شؤم . أحمر عاد : عاقر . الناقة واسمه قدار ، والمراد ثمود وقيل ان عاد الأخيرة هى ثمود .
(٢) قفيـز : مكيال .
(٣) سـورة الأنعـام ١٣٧ .
(٤) سـورة الأحـزاب ٤٤ .

خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما (١)» .

وقد نهى الله تعالى عن العدوان فى قوله : « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين (٢)» .

وأمر — إذا لم يكن عفو — أن يكون العقاب على قدر الذنب فى قوله : « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ، واتقوا الله، واعلموا أن الله مع المتقين (٣)» .

وأمر بمسالمة المحاربين إذا جنحوا إلى السلام، قال ، سبحانه وتعالى : « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها ، وتوكل على الله ، إنه هو السميع العليم (٤)».

لهذا لم يحارب المسلمون فى صدر الإسلام إلا ليصدوا الاعتداء على عقيدتهم أو على دولتهم ، ولم يستلوا سيوفهم إلا بعد اليأس من مسالمة أعدائهم .

وكان نظامهم فى الحرب ألا يحاربوا إلا المحاربين ، فلم يتجاوزوا فى حروبهم حد الدفاع والإرهاب إلى الانتقام الحاقد المبيد .

وكانوا يسارعون إلى السلام إذا ما جنح خصومهم إلى السلام :

ولقد سجل التاريخ المنصف رحمتهم بالبشر ،وكان من مظاهر هذه الرحمة أنهم لم يمثلوا بالقتلى ، ولم يخربوا العمران ، ولم يجبروا أحداً على نبذ دينه واعتناق الإسلام .

وبهذا شهد كثير من غير المسلمين مثل السير توماس أرنولد والكونت هنرى

---

(١) سورة الفرقان ٦٣ .
(٢) سورة البقرة ١٩٠ .
(٣) سورة البقرة ١٩٤ .
(٤) سورة الأنفال ٦١ .

دى كاسترى وجوستاف لو بون (١).

وبحسبنا هذه الأمثلة من تقبيح الحرب والدعوة إلى السلام فى العصور الإسلامية السابقة .

١ — قال عمر بن الخطاب لعمرو بن معديكرب : صف لنا الحرب ، فقال : مرة المذاق ، إذا كشفت عن ساق ، من صبر فيها عرف ، ومن نكل عنها تلف ، وذكر ثلاثة أبيات. وصفت الحرب بأنها تخدع المتحاربين فى أول أمرها فيغفلون عن جرائرها ومعاطبها ، ثم تكويهم بنارها ، فهى كالشابة الحسناء التى تفتن الأغرار والحمقى والجهلة بمنظرها الخلاب ، ثم يستبينون أنها قبيحة كريهة عجوز ابيض شعرها وجزت رأسها ، وتبدلت خلقتها ، فلا يرتضى أحد أن يدنو منها ، ولا يحب أن يراها :

الحرب أول ما تكون فتية تسعى ببزتها لكل جهول(٢)
حتى إذا حميت وشب ضرامها عادت عجوزًا غير ذات خليل(٣)
شمطاء جزت رأسها وتنكرت مكروهة للشم والتقبيل(٤)

٢ — وقد وصف معن بن أوس حلده على متحرش به ، وإنذاره إياه بما فى تجارب قوميهما من شرور ومخاطر ، فإن الحرب لا بد أن تنجلى عن آلام وفواجع وقال لخصمه : إن خير حالة تتوقعها أن ينتصر قومك وأن يعودوا بغنائم كثيرة ، كنت أنت منهم ، ولكن لابد من قتلى وربما كنت أنت أحدهم ولا بد

(١) الأول فى كتابه الدعوة الى الاسلام ١٨ ترجمة الدكتور حسن ابراهيم وزميليه والثانى فى كتابه الاسلام خواطر وسوانح ٣٥ ترجمة احمد فتحى زغلول والثالث فى كتابه حضارة العرب ١٤٥ ، ٣٣٤ ، ٣٧٣ ترجمة الأستاذ عادل زعيتر .

(٢) البزة : الزينة والمنظر ، جهول : أحمق .

(٣) ضرامها : نارها .

(٤) العقد الفريد لابن عبد ربه ١٠٩/١ شمطاء : شعرها مبيض .

من جرحى ، لكن خصمه تمادى فى غيه ، وأبى إلا الحرب ، فاضطر معن إلى محاربته ، ثم انجلت الحرب عن قتلى وجرحى وأرامل ويتامى من القبيلتين ، وكان فى القتلى الخصم الذى أشعل الحرب وأنذره معن ، فبكاه أبناؤه وإخوته وهم من ذوى النعمة واليسار ، وبكى معن القتلى من قبيلته ، ورثى لأبنائهم اليتامى ، ثم ذكر أنه وقومه لم يكونوا معتدين ، بل كانوا مدافعين عن حياتهم وعن حقوقهم :

قال معن(١) :

نهيت أبا عمرو عن الحرب لو يرى ... برأى رشيد أو يؤول إلى عزم(٢)
وقلت له : دع عنك بكرًا وحربها ... ولا تركبن منها على مركب وخم(٣)
ومهلا عن الحرب التى لا أديمها ... صحيح ولا تنفك تأتى على سقم(٤)
فإن يظفر الحزب الذى أنت فيهم ... وآبوا بدهم من سباء ومن غنم(٥)
فلا بد من قتلى وعلك فيهم ... وإلا فجرح ليس يكنى عن العظم(٦)
دعانى يشب الحرب بينى وبينه ... فقلت له : لا ، بل هلم إلى السلم
وأمهلته حتى رمانى بحرها ... تغلغل من غى غوى ومن إثم(٧)
فلما رمانيها رميت سواده ... ولا بد أن ترمى سواد الذى يرمى
فكان صريع الخيل أول وهلة ... فبعدا له مختار جهل على علم(٨)

---

(١) جمهرة الأمثال لأبى هلال على هامش مجمع الامثال للميدانى ١/٢٢٩
(٢) يؤول الى عزم : يرجع الى رأى سديد .
(٣) مركب وخم : مسلك سيىء العاقبة .
(٤) لا أديمها صحيح : المراد أنها قبيحة لا بد أن تنتج شرورا .
(٥) آبوا : رجعوا . دهم من سباء ومن غنم : أسلاب ومغانم كثيرة من خيل وغيرها .
(٦) جرح ليس يكنى عن العظم : جرح عميق يظهر منه العظم .
(٧) تغلغل : تتداخل وتهجم . غى غوى : ضال شرير مجرم .
(٨) بعدا له : هلاكا له .

فبتنا على لحم من القوم غودرت أسنتنا فيه وباتوا على لحم (١)
وأصبح يُبْكى من بنين وإخوة حسان الوجوه طيبى الجسم والنَّسْم (٢)
ونحن نبكى إخــوة دينهم . وليس سواء قتل حق على ظلم

٣ — وحذر النابغة الجعدى من الحرب بأنها تجر نقما على مشعليها كما يعرف العقلاء المجربون ، ومن أبشع نقمها أنها تقضى أول ما تقضى على العلية الأشراف ، وتفنى الخيل الجياد، وتستنفد الأموال التى كان يبخل بها أصحابها، ولا غرابة فى هذا لأن كلمة الحرب تذكر بكلمة مجانسة لها تدل على المغاطب والمهالك وهى الخرايب :

ألم تعلموا ما تورث الحرب أهلها وعند ذوى الأحلام منها التجاربُ
لها السادة الأشراف تأتى عليهم فتهلكهم والسـابحاتُ النجائب
وتستلب المال الذى كان ربه ضنينا به والحرب فيها الخرايب (٣)

٤ — أما أبو تمام فإنه بغّض الحرب بعقد صلة بين لفظها ولفظ الحرَب بمعنى الهلاك والدمار ، فقال:

والحرب مشتقة المعنى من الحـرَب (٤) :

وقال إن الحرب عمل ضال مهلك، وسلوك ضار شرير ينمرد به السفهاء والحمقى ،حتى ليعدل الواحد منهم ألف عاقل رزين متبصر فى العواقب ، والساعة التى تشعل فيها الحرب ساعة مشئومة لا تدع مجالا للعقل والحكمة، حتى إن لقمان الحكيم لو شهدها ودعا إلى السلام لذهبت دعوته هباء :

---

(١) بتنا على لحم .... : قتلنا منهم وجرحنا وقتلوا منا وجرحوا .
(٢) يبكى : قتل فبكاه بنوه واخوته . النسم الرائحة .
(٣) جمهرة الامثال لأبى هلال ١/٢٣٨ .
(٤) ديوان أبى تمام ١٧ .

والحرب تركب رأسها فى مشهد عذل السفيه به بألف حليم
فى ساعة لو أن لقمانا بها وهو الحكيم لكان غير حكيم(١)

٥٠ — كذلك صنع أبو العلاء المعرى ، إذ قال لأهل عصره : إنى أعلم أسرارًا وحقائق لا أبوح بها ، وأود أن تكونوا على علم بها ، إنكم تمشون فى طريق ضال فلماذا لا تهتدون بعقول صافية ؟. ولماذا تتبعون من يدعوكم إلى الضلال وتجيبونه بغير تدبر وتفكر ؟. إنكم إن اتبعتم الرشاد اجتنبتم الحروب ، فلم تلطخوا سيفاً بدم ، ولم يضطروا إلى معالجة الجراح وتعرف أغوارها وأعماقها بالمراود :

قال أبو العلاء(٢) :

بنى زمنى هل تعلمون سرائرا علمتُ ولكنى بها غير بائح ؟(٣)
سريتم على غى فهلا اهتديتمُ بما خبرتكم صافيات القرائح
وصاح بكم داعى الضلال فالكم أجبتم على ما خيلت كل صائح
فإن ترشُدوا لا تخضبوا السيف من دم ولا تلزموا الأميال سَبْر الجرائح(٤)

— ٣ —

الهتاف بالسلام فى العصر الحديث

عاش شعراء العصر الحديث فى معامع حروب أو فى أعقاب حروب ، فرأوا ما تجنى الحرب عليهم وعلى وطنهم وعلى الإنسانية من ويلات وكوارث وتخريب وشاهدوا الحرب تلو الحرب ، فلا يكاد الناس يستبشرون بالسلام حتى ترعجهم

---

(١) ديوان أبى تمام ٢٧٣ والعقد الفريد ١/١١٠ .
(٢) لزوم ما لا يلزم لأبى العلاء ١/٣٠٧ .
(٣) على ما خيلت : كما اتفق بدون تفكير .
(٤) الأميال : جمع ميل وهو المرود الذى يقاس به عمق الجرح .
سبر : امتحان واختبار .

نُذُر حرب تقوض أمالهم فى السلام، ورأوا العلم يساء استخدامه ، إذ يُسْتَغل فى ابتكار وسائل الإهلاك والإفناء والتدمير ، وكان لزاماً على البشر ألا يستخدموه إلا فى البناء والإصلاح والتعمير وفى مكافحة التخلف والعوز والجهل والمرض وما شاكلها من شرور تعجُّ بها الأرض .

وقد تجلى ترحيبهم بالسلام وهتافهم به فى مظهرين هما : كراهية الحرب ، وتقدير السلام والفرحة به .

المظهر الأول

كراهية الحرب

سخط الشعراء على الحروب المعتدية الباغية وعلى مشعليها وعلى أسلحتها ووسائلها .

١ — فقد ود شوقى فى وصفه للطيارة سنة ١٩١٠ أن تكون للخير المحض ، فتستخدم للسفر ، وتقرب العالم بعضه إلى بعض ، وتحمل السلع ، وتجتذب إلى الرحلة ، وتَخوف أن تستخدم فى الحرب للتخريب والعدوان ، ودعا عليها بالفناء إن استخدمت فى هذا المجال ، لأن عفاءها فى هذه الحالة رحمة من الله بعباده ، وعدل فى قضائه ، وانتقام من الشر ومن مخترعيه ، ثم وقع ماتخوفه شوقى إذ كانت الطيارات من وسائل الفتك فى الحرب الكبرى الأولى سنة ١٩١٤ وفى الحرب الثانية :

رب إن كان لخير جُعلتْ ... فاجعل الخير بناديها لزاما
وإن اعتزَّ بها الشر غداً ... فتعالت تُمطِرُ الموتُ الزُّؤاما
فاملأِ الجوَّ عليها رُجُماً ... رحمةً منك وعدلاً وانتقاما(١)

ثم سقط طياران تركيان بطيارتهما وهما قادمان إلى مصر سنة ١٩١٣ فرثاهما

---

(١) الشوقيات ٢/١٠٩ .

شوقى ، وختم رثاءه بالسخط على هذا الاختراع الذى يزعج السماء ، ويقلق الأرض ، فقال(١) :

إنى أخاف على السماء من الأذى	فى يوم يُفْسد فى السماء الخيل(٢)
كانت مُطَهَّرة الأديم نقيـــةً	لا آدمٌ فيهـــا ولا قابيلُ(٣)
يتوجه العـــانى إلى رحَمـــاتها	ويُرَى بها بَرْقُ الرجاء عليـــل
ويشير بالرأس المكلَّل نحوها	شيخٌ وباللحظ البرىء بَتُول(٤)
واليوم للشهوات فيها والهـــوى	سيل وللـــدم والدموع مسيل
أضْحَتْ ومن سفُن الجواء طوائف	فيهما ومن خيل الهواء رَعيل(٥)
وأزيل هيكلها المصونُ وسِرُّه	والدهر للسر المصونُ مُذيل(٦)

ولما نسفت غواصةٌ باخرة ركاب فى الحرب الكبرى الأولى ، وصف شوقى الغواصة وقوة فتكها ، ثم ختم الوصف بدعاء على مخترعها بالفناء ، وعلى صانعها بالعفاء ، وعلى بحاريها بالهلاك ، وكأنما لم يشف هذا ما بنفسه ، فدعا على البحر الذى تسبح فيه وتغوص بالجفاف ، وضاق أشد الضيق باستخدام العلم فى الشر والتدمير (٧) :

فلا كان بانيها ولا كان رَكبُها	ولا كان بحرٌ ضمَّها وحَواهـــا
وأفٍّ على العلم الذى تَدعونه	إذا كان فى علم النفوس رَداها

وقد انتهز شوقى مناجاته لشكسبير سنة ١٩١٦ فى الاحتفال بمرور ثلاث

---

(١) الشـــوقيات ١٢٨/٣ .

(٢) يوم يفسد فى الســـماء الجيل : يوم يتخذ الطيارون الجو ميدانا للحـــروب .

(٣) قابيل : ابن آدم الذى قتل أخاه هابيل .

(٤) الرأس المكلل : المتوج . بتول : منقطعة للعبادة .

(٥) خيل الهواء : الطيارات . رعيل : قطعة من الخيل .

(٦) مذيل : مهـــين .

(٧) الشوقيات ١٣٤/٢ رداها : هلاكها .

مئة سنة على وفاته، فصب سخطه على البشر الذين يتقاتلون ، وتمنى لو أن شكسبير حي ليصور لؤمهم وظلمهم وجناياتهم، وليؤيد الحق وينصره ويشيد به ويذويه :

قال شوقي (١) :

يا واصف الدم يجرى ها هنا وهنا ... قم انظر الدم فهو اليوم دأماء(٢)

لا موك فى جَعْلك الإنسان ذئب دم ... واليوم تبدو لهم من ذاك أشياء

وقيل : أكثرَ ذكْرَ القتل ثم أتوا ... ما لم تَسَعْه خيالات وأنباء

كانوا الذئابَ وكان الجهل داءهم ... واليومَ علمهمُ الراقى هو الداء

لؤمُ الحياة مشى فى الناس قاطبةً ... كما مشى آدم فيـــه وحــواء

قم أيد الحقَّ فى الدنيا أليس له ... كتيبة منك تحت الأرض خَرْساء(٣)

وأين صوتٌ تميدُ الراسـبــاتُ له ... كما تمايدَ يوم النار سيناء ؟(٤)

وأين ماضيةٌ فى الظلم قاضيةٌ ... وأين نافذة فى البَغْى نَجلاء(٥)

أيترك الأرضَ نجانوها وليس بها ... صحيفة منك فى الجانبين سوداء ؟

تأوى إليها الأيامىَ فهى تعزية ... ويستريح اليتامى فهى تَأساء(٦)

وإذا كان بين شكسبير والحرب والسلام علاقة تسوق الأفكار المتشابهة والذكريات المتقاربة ، لأن شكسبير صور فى بعض رواياته ألواناً من الجريمة والغيلة تصويراً بارعاً، فإنه لا صلة بين رثاء شوقى لمصطفى باشا فهمى وبين سخطه على الحرب ، إلا أن شوقى كان شديد الألم من الحرب، عظيم الإشفاق

---

(١) الشـــوقيات ٢/٥ .

(٢) دأمـــاء : بحـــر .

(٣) خرساء : لا يسمع لها صوت ولا تواقع لكثرة دروعها .

(٤) يوم النار : يريد النار التى تجلت لموسى فى طور سيناء .

(٥) نجلاء : واسعة الجرح .

(٦) الأيامى : جمع آيم وهى التى فقدت زوجها . تأساه : تعزيه .

على البشر أن يتعودوا ويتفانوا حتى صيروا الأرض مآتم ، وكان رثاء شوقى لمصطفى فهمى فى العام الأول من الحرب الكبرى الأولى(١) :

انْفُضْ غُبارك عنك وانظر هل ترى إلا غُبــارَ كتيبــة ولــواء ؟
يا وَيْحَ وَجْهِ الأرض أصبح مأتما بعــد الفــوارس من بنى حواء
من ذائد عن حَوْضه أو زائد فى مُلكه مــن صَــوْلة وثراء
أو مانعٍ جارا يناضل دُونَه أو حافظٍ لعهــوده ميفاء(٢)
يتفاذفون بذات هَوْلٍ لم تَهَبْ حَرَمَ المسيح ولا حمَى العَذْراء
منْ مُحْدَثات العلم إلا أنها إثمٌ عواقبُها على العلماء(٣)

وفى رثائه للزعيم الليبى عمر المختار الذى أعدمه الإيطاليون سنة ١٣٥٠ هـ، سنة ١٩٣١ إنذار لإيطاليا بأن حطام عمر المختار كنز نفيس يهيب بقومه صباح مساء أن يثأروا له ، وسخط شديد على الذين شنقوه، لأنهم بجرمهم هذا أقاموا تمثالا من دم يلقن الأجيال القادمة كراهية الإيطاليين ، لأن إعدامهم للبطل عمر المختار جرح غائر لا يبرأ ، وضحية لا تفتأ تستثير العزائم للثأر له، والاقتداء بجهاده حتى يتحرر الوطن بدماء أبنائه وقتل من يستطيع قتلهم من جنود إيطاليا .

ثم يعجب شوقى من تغافل الدول الطاغية عما يجب عليها من عقد صلاتها بالشعوب الأخرى على الإخاء والمودة والسلام :

ركزوا رفاتك فى الرمــال لــواء يستنهض الــوادى صباح مساء
يا ويحهم نصبــوا منــارا من دم يوحى إلى جيل الغــد البغضاء
ما ضر لو جعلوا العلاقة فى غد بين الشعوب مــودة وإخــاء

---

(١) توفى فى ١٤ سبتمبر ســنة ١٩١٤ .
(٢) ميفاء : كثير الوفاء . العذراء : السيدة مريم .
(٣) الشــوقيات ٣/٥ .

جرح يصيح على المدى وضحية تتلمس الحرية الحمراء(١)

والحروب فى عقيدة شوقى وليدة المطامع ، ودلالة على ضعف التدين ، وعلى الفظاظة والوحشية وغلظة القلوب :

لا تذكرنّ الحرب أو أهوالها إلا بقلب خاشع يتوجّعُ
واذرف على القلب الدموع فكلكم فى آدم أهلٌ وآدم يَتَجْمع
للخلق صبيانٌ كمالك صبيةٌ ولهم لباسٌ فارقوه ومَضْجع
واسمع حديث جُناتها وصُلاتها هل كان فيها للديانة موضع ؟(٢)
المال باعثها الأثيم ولم تَزَلْ تُرْدِى المطامعُ ناسهن وتَصْرع (٣)

ولقد كان شوقى يسخط على الحرب ، وينقم من مشعليها حتى والسلام ترفّ أعلامه ، وليس فى الجو العالمى ماينذر بحرب قريبة ، وهذ يدل على شدة بغضه للحرب دائرة وغير د ئرة ، متوقعة وغير متوقعة .

فقد وصف نكبة اليابان بزلزل عات سنة ١٩٢٦ (٤) ، وختم الوصف بسخط على لحرب وما يجترح الناس من مظالمَ ، وما شاع فيهم من فساد ، وصور الزلزل العاتى غضبة الأرض من هذا كله :

ما لها لا تضج مما أقلَّتْ من فساد وحُمِّلَتْ من ظُلامَه
كلما لُبِّسَتْ بأهل زمان شَهِدَتْ من زمانهم آثامه(٥)
استَوَوْا بالأذى ضُرًّا وبالشّرِّ وَلوعاً وبالدماء نَهامه(٦)

---

(١) الشوقيات ١٧/٣ . الرمات : الحطام . الحرية الحمراء : الحرية التى تنال بالحرب .

(٢) جناتها : الذين أشعلوها . صلاتها : الذين احترقوا بنارها .

(٣) جريدة الأهرام ١٧ نوفمبر سنة ١٩١٤ والشوقيات المجهولة ١٦٣/٢

(٤) الشوقيات ١٠٤/٢ .

(٥) لبست بأهل زمان : خولطت بهم وعاشوا فيها .

(٦) نهامة : نهم .

لَبَّسَتْ هـذه الحيـاة علينا ... عـالمَ الشرِ وحَشْمَه وأنامه(١)
ذاك مـن مُؤْنسانَ الظُّفْرِ والنا ... بِ وهذا سلاحُه الصَّمصامه(٢)
فاَسرَه منَ أسامةَ البطشُ والفتْ ... كُ فسمَّى وليده بأسـامه(٣)
لَوُمَتْ منهمـا الطباعُ ولكن ... ولد العاصيَيْن شرٌّ لآمـه(٤)

٢ — أما علي الجارم فقد بدأ قصيدته (الحرب) سنة ١٩١٤(٥) بوصف عام لأهوالها وأسلحتها وجناياتها، وصور عزرائيل مرحاً يحصد ما شاء من أرواح البشر، طروباً بدوى المدافع والقنابل، وإن كان الشاعر قد قد عبّر عن هذا بقعقعة السيوف، ثم تخيل المتحاربين ظماء لا ينقع ظمأهم إلا الدم، أو أسرابا من القَطا ألهبها العطش فصادفت مورد رداها فجعلت تَعُبُّ منه، وصور المتقاتلين والنار من حولهم جميعاً شياطين أقسموا أن يهلكوا جميعاً، وقد صاروا لا يبصرون الحق، ولا يرون سبيله، لأن دخان الحرب وترابها وويلاتها حجبتهم عن البصر والبصيرة :

لم يكفه رمح ولا مُرْهَفٌ ... فاتخـذ المنطـاد والمدفعا(٦)
وخبَّ فيهـا راكباً رأسـه ... للشر ما خبَّ ومـا أوضعا(٧)
قد غصت الأرض بأشـلائهم ... وأصبح البحر بهـا مُتْرَعا(٨)
وآن للعُقْبـان أن تكتـفي ... وآن للحيتـان أن تَشْبعـا

. . . . .

---

(١) لبست علينا : حيرتنا وخلطت هذا بذاك
(٢) الصمصامة : السيف القاطع .
(٣) أسامة : أسـد .
(٤) العاصيين : آدم وحواء
(٥) ديوان الجارم ١١٨/٢ .
(٦) مرهف : سيف قاطع .
(٧) خب : أسرع . أوضع : أسرع .
(٨) مترعا : ملآن

أطلق عزرائيل مــن قــيده يرتع أنّى شاء أن يرتعا(١)
تطــربه الحــرب بأزجالهــا ويستبيه السيف إن قعقعــا(٢)
كأنمــا في صــدرهم غُــلة أبتْ بغير الموت أن تُنقعا(٣)
كأنهم سِربُ قطاً عَطش صادف من وِرْدِ الردى مَشرعا(٤)
كأنهم والنــار من حــولهم جنٌّ تألّوا أن يبيــدوا معــا(٥)
صــاروا من العثــير في ظلمة لا تبصر العين بها إصــبعا(٦)

ووصف الحرب بأنها لعنة من الله على سكان الأرض ، وشر نازل بهم ، ومصداق لما ذكره الله تعالى في القرآن الكريم على لسان الملائكة حينما أخبرهم أن سيخلق في الأرض خليفة ، فتوقعوا أن يفسد هذا الخليفة في الأرض ويسفك الدماء(٧) :

إنما الحرب لعنة الله في الأر ض وشرٌّ بمن عليهــا أريدا
صَدّقت ما رأى الملائك من قبـ ـل وما كان قولهم تفنيــدا(٨)

وقد حمل على استخدام العلم في اختراع أسلحة للتدمير والتخريب ، ووصف العلماء المخربين بأنهم شر من الشياطين، وأحزنه أن الناس صاروا قسمين قاتلين وشهداء :

---

(١) قده : المراد قيــده .
(٢) يستبيه : يجتــذبه .
(٣) تنقع : تروى .
(٤) مشرع : مورد ماء .
(٥) تألوا : اقســموا .
(٦) العثير : الغبــار .
(٧) قال تعالى : « واذ قال ربك للملائكة انى جاعــل فى الأرض خليفــة قالــوا : أتجعل فيها من يفسد فيهــا ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال انى اعلم ما لا تعلمون » البقرة ٣٠ .
(٨) ديوان الجارم ٤/٣٥ تفنيد : نقد واعتراض .

قُتِـلَ العلمُ كيف دبر للفتْ ... لك عتـادا وللدمـار جنودا(١)
فهو كالخمـر تنشر الشر والإثـ ... مَ وإن كان أصلها عنقـودا
أبدع المهلكاتِ ثم توارى ... خلفهـا يملأ الورى تهديدا
مادت الراسيات ذعرا وحُقَّتْ ... من أفانين كيـده أن تميـدا(٢)
مُحْدَثاتٌ عزت عـلى عقل إبليـ ... ـس فعضَّ البنـان فَدْما بليدا(٣)
عالمٌ فى مكانه ينسف الأر ... ض وثان يحزُّ منهـا الوريدا
حسرتاه للحيـاة ماذا دهاها ... أصبح النـاس قاتلا وشهيدا(٤)

وقال(٥) :

نثروا كنانتهم وكل سهـاما ... للفتك والتـدمير والإهـلاك(٦)
دخلوا على العقْبـان فى أوكارها ... وتسرَّبوا لمسابح الأسماك(٧)

٣ — وأما على الجندى فيائس من فوز الحق والعدل فى عالم يخاخد للحق والعدل ، أعمى النظر والقلب ، يسخر العلم لابتكار أسلحة للفتك به وببنيه ، ولتدمير القصور والدور فتصير مقابر ، ويعجب من أحقاد الناس وكراهية بعضهم لبعض ، ولا سبب لهذه الأحقاد ، لأن الأرض فياضة بالخير ، ولأن الله هو الرزاق .

ثم ينادى بحقيقة لا ينكرها عاقل ، إن الدول المتحاربة تنفق على الحرب

---

(١) عتـاد : المراد سـلاح .
(٢) الراسيات : الجبال . مادت : اهتزت واضطربت
(٣) فـدم : غبى .
(٤) ديوان الجارم ٣٥/٤ .
(٥) ديوان الجارم ١٢٧/٢ .
(٦) الكنانة : جعبة السهام ونثرها يكون لاختيار أصلب السهام .
(٧) العقبان : جمع عقاب وهو من جوارح الطير . الأوكار : جمـع وكر وهو العش .

قناطير مقنطرة من الذهب، وتستقل جهود العلماء والمفكرين، ولو أنها اختصت بهذا الذى تنفقه ميادين الإصلاح والخير والعمران لصارت الأرض جنة طيبة الجنى فياضة بالخيرات :

لا أرجِّى للحــق والعــدل فوزا	فى زمان بالحق والعــدل كافر
ساءنى فيــه أن يبيت بنو حوَّا	ءَ عُمْىَ الأبصار عُمْىَ البصائر
سخَّروا العــلم للقتال وللقتْـ	ـل وربَّوا أولادهم للمجــازر
وبنــوا دورهم لتصبــح فى طرْ	فة عيــين لمن أوتْهم مقــابر
كل شــعب لجــاره الضغْـ	ـن ويبْغى به حــلول الفواقر (١)
ليت شعرى فيم الخصام وصور الأ	رض رحبٌ ورزقُ ربك وافر
لو على السلم ينفقون الذى ينْـ	ـفق فى الحرب من نفيس الذخائر
لاستحالت مفاوزُ الأرض فردَوْ	ساً بجَنى الجنَى ندى الأزاهر (٢)

٤ — وكان محمود غنيم يتجه الاتجاه نفسه، فهو يعجب من الأمم الراقية المتحضرة التى تخرب الحضارة بالحرب، وهى تعلم أن الأمة القوية اليوم ضعيفة فى الغد، مثل النجوم التى تشرق وتغرب، ويعلم حكامها وقادتها أن جبار اليوم قد يسجن غداً أو يقتل أو يعدم .

لهذا ينصحها الشاعر ألا تتفاخر بالبطش وسفك الدماء، بل عليها أن تعد سفك الدماء جريمة، وعليها أن تعلم أن الكيد الحقيقى هو إقرار السلام وإعزازه وصيانته، ولن يكون سلام ما دام فى الأرض ضعفاء يشكون من الأقوياء الذين سلبوا حقوقهم :

أممٌ بنت ركن الحضارة عاليــا	مــا بالها لم تــأْلُهُ تخريبا (٣)

---

(١) الفواقر : جمع فاقرة وهى الداهية .

(٢) ترانيم الليــل ٣٠١ المفاوز : الصحارى . الجنى : الثمر .

(٣) لم تأله تخريبا : دابت على تخريبه .

دول يحول نحوسها وسعودها ... مثل الكواكب مشرقا وغروبا
يا رب جبار يصول بجنده ... أمسى بأيدى جنده مصلوبا(١)
لا تجعلوا سفك الدماء مناقبا ... للفاتحين بل اجعلوه ذنوبا
والله ما كسب الحروب معاشر ... ليس السلام لديهم مكسوبا
لن يستقيم لكم سلام ما شكا ... شعب ضعيف حقه المغصوبا(٢)

المظهر الثانى

تقدير السلام والفرحة به

لم يقتصر شعراء العصر الحديث على تصويرهم لويلات الحرب وآثامها، بل أضافوا إلى هذا الدعوة إلى السلام، وتحبيبه إلى النفوس.

١ — فنصح شوقى الناس أن يعملوا وينتجوا فى ظلال السلام وأمنه، لأن السلام لا يقر العجز، ولا يبيح التواكل والضعف، وينبغى أن يكون هو النظام السائد فى الحياة، لأن الحرب لا يصح أن تقع فى كل عصر، ولأن كثيراً من الحروب باغية لا يبيحها دين ولا خلق كريم ولا قانون عادل:

وعيشوا فى ظلال السلم كداً ... فليس السلم عجزاً واتكالا
وليس الحرب مركب كل يوم ... ولا الدم فى كل آونة حلالا(٣)

وهو فى دهشة من تقاتل البشر على منافع دنيوية فاتنة لكنها فانية:

ليت شعرى إلام يقتتل النا ... س على ذى الدنية الفتانه(٤)

---

(١) جبار مصلوب: اشارة الى موسولينى وقد صلبه جنوده.
(٢) صرخة فى واد ٤٠.
(٣) الشوقيات ٢/٢٢٩.
(٤) الشوقيات ١/٣١٠.

وهو فى عجب من دعوى بعض الناس أن الحرب ضرورية، لأن الأرض ضاقت بالناس، ويرد على هذه الدعوى بأن الأرض ما تزال فسيحة تسع أهليها وتغدق عليهم من خيراتها، ولكن النزعات الشريرة المتزاحمة هى التى تصور الأرض الفسيحة ضيقة، وهى التى تشعل الحروب وتقتل الناس، ثم يعقب على هذا بأن الخيرات كثيرة جداً لا يحتاج الناس إلى الظفر بها إلا إلى مزيد من العمل الجاد المخلص :

ولم تضق الحياة بنا ولكن — زحام السوء ضيقها مجالا
ولم تقتل براحتها بنيها — ولكن سابقوا الموت اقتتالا
ولو زاد الحياةَ الناسُ سعياً — وإخلاصاً لزادتهم جمالا (١)

ورأى شوقى أن الشجاعة الحقيقية هى الشجاعة المحمودة التى تدافع عن الحق والخير والوطن، مقرونة بالرفق والرحمة والترفع عن العدوان والأذى، ورأى أن الحرب المشروعة مفخرة وشرف، أما الحرب الباغية فهى معرة وسبة.

قال شوقى :

إن الشجاعة فى الرجال غلاظة — ما لم تَزِنْها رأفة وسخاء
والحرب من شرف الشعوب فإن بَغَوْا — فالمجد مما يَدَّعون براء (٢)

وقال :

إن الشجاع هو الجبان عن الأذى — وأرى الجرىء على الشرور جبانا (٣)

وقال :

سيف الكريم من الجهالة يَفْرَق (٤)

---

(١) الشوقيات ٢/٢٢٧.
(٢) الشوقيات ١/٢٧.
(٣) الشوقيات ١/٢٥١.
(٤) الشوقيات ٢/٨٦.

وقال :

جنحتَ إلى السلام فكان حلما وقِدْما زين الحلم الشجاعا (١)

٢ — وودت نبوية موسى فى قصيدتها التى استقبلت بها العام الجديد بعد الحرب العالمية الأولى أن يكون العام بشير السلام ، عام ينعم فيه الناس ، وحزنت مما جرت الحرب من كوارث على البشر ، وتفجعت على الذين اصطلوا بنارها :

عسى العام الجديد يحل فينـــا بما نرجوه يُمْناً واعتـــدالا
فيسكن ســـائر الأقـــوامُ طُرّاً وتُصْـــرَفُ عنهم نُـــوَبٌ توالى
ســـئمنا نحن أخصبهم بلادا وأقصـــاهم عـــن الهَيْجا مجالا
فما بال الألَى شهروا عتـــادا وكابد جيشهم ذاك القتـــالا ؟
فيـــا عـــاما يكون السِّلم فيـــه لأنت أجل مـــا ندعو ابتهالا (٢)

٣ — واستعلنت بهجة على الجارم بالسلام الذى أعلن فى سنة ١٩٤٥ بعد الحرب الضروس الثانية ، عقب ليل طاخ طال على الناس ظلامه ، وإثر فزع طاغ أنسى الطيور شَدْوها ، ولكن السلام أتاح للحمام أن يسجع ، ونشر على الناس ظلال الأمن ، واستوجب حمدهم الله تعالى على نعمة السلام ، فقد عادت الحياة إلى الوجود ، وولد الكون مرة ثانية :

داعب الشـــرق باسمـــاً وسعيداً وائتلقْ يا صباحُ للناس عيدا (٣)
نسيَتْ لحنهـــا الطيور فصوِّرْ لبنات الغصـــون لحناً جديدا (٤)
فزَّعتهـــا عن الرياض خفـــافيـ ـشُ تسد الفضاء غُبْرا وسُوداً (٥)

---

(١) الشـــوقيات ١/١٨٤ .
(٢) مجلة فتاة الشرق ١٥ نوفمبر سنة ١٩١٧ .
(٣) ائتلق : أشرق .
(٤) بنات الغصون : الطيور .
(٥) خفافيش : المراد طائرات الحـــرب . غبر : لونهـــا أغبر ميـــال الى الســـواد .

فاســجعى يا حمــامة السلم للكو ... ن وهزى أعطافه تغــريدا(١)
رددى .. رددى ترانيم إســحا ... ق وهزى الحسان عطفا وجيدا(٢)
غردى فالدموع طــاح بها البشـ ... ـر وأضحى نوح الثكالى شهيدا(٣)
رددى صوتك الحنون طويلا ... وابعثى لحنك الطروب مديدا
واهتــفى يا مــآذن الشــرق بالله ... ه ثنــاء وباسمــه تمجيــدا
رنة النصــر فى السماوات والأر ... ض أعادت إلى الوجود الوجودا
مــولد للــزمان ثان شهــدنا ... ه فيــا من رأى الزمان وليدا(٤)

المظهر الثالث

دعم السلام بالقوة

— ١ —

تعاليم إسلامية

لكن هذا السلام الذي آثره الإسلام، وهتف به الشعراء المسلمون، فى أشد الحاجة إلى قوة تصونه من الطغيان والعدوان ، لأن الحرب فى غرائز البشر ، وشر لا مفر منه .

لهذا شرع الإسلام السلام ، وأباح الحرب فى مقابلة الحرب ، ولكنه سن

---

(١) أعطــافه : جــوانبه .
(٢) اسحاق : هو اسحاق الموصلى المغنى المشهور . عطفا : جانبا . جيــدا : عنقــا .
(٣) الثكالى : اللائى فقدن أبناءهن .
(٤) ديوان الجـــارم ٣٥/٤ .

للحروب أسمى النظم وأعظمها رفقاً ورحمة وسماحة(١).

وحسبنا هذه الإشارات :

١ — أن الإسلام حض على الاستعداد الحربى لصد الأعداء وإرهابهم، قال تعالى: « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم »(٢).

وهذه الآية بعيدة عن التحرش بالآخرين، لأنها فى معرض الأمر بالتقوى والاستعداد للدفاع تعلن أن الغرض من إعداد القوة هو تخويف الخصوم حتى لا يطمعوا فى المسلمين.

والمراد بالأعداء هم الذين يقاومون الإسلام، ويعوقون نشره، ويعذبون أهله، ويعادون المسلمين، ويتطلعون إلى السيطرة عليهم وعلى موارد ثرواتهم.

٢ — نهى الإسلام عن العدوان حتى على الأعداء الذين ظلموا المسلمين من قبل، قال تعالى: « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين »(٣).

٣ — كما بغض الإسلام إلى أتباعه العدوان على المسالمين، وبغض إليهم الاستمرار فى قتال المعتدين إذا جنحوا إلى السلام، فإنه نفرهم من قبول الضيم والإقامة فى وطنهم على الذل والخسف، قال تعالى: « إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا: فيم كنتم؟ قالوا: كنا مستضعفين فى الأرض، قالوا: ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها؟ فأولئك مأواهم جهنم، وساءت مصيرا، إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة،

---

(١) سماحة الاسلام . الدكتور أحمد الحوفى ١٣١ — ٢٠٤ .
(٢) سورة الأنفال ٦٠ .
(٣) سورة البقرة ١٩٠ .

ولا يهتدون سبيلا ، فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم ، وكان الله عفوًا غفورا»(١) .

وواضح من الآيات الكريمة أن الراضين بالذل لهم عذاب بجهنم، وأن الضعفاء الذين لا يقدرون على الجهاد أو على الهجرة من رجال ونساء وولدان لا يمسهم هذا العذاب، لأنهم غير قادرين على المقاومة وغير قادرين على الهجرة والرحيل .

٤ — ونهى عن مباغتة المعاهدين الذين نقضوا عهدهم ، فإذا ما تيقن النبي من أن الذين عاهدوه نقضوا عهدهم فعليه ألا يباغتهم بالحرب ، بل يكاشفهم بعدائه لهم ، حتى يحاربهم وهم على بينة من أمره ومن أمرهم وعلم بأنه نقض عهده معهم كما نقضوا عهدهم معه ليستعدوا للحرب كما استعد ، وهذه ، أعظم درجات الأمانة والوفاء .

قال تعالى : «وإمَّا تخافنَّ من قوم خيانة فانبذْ إليهم على سواء، إن الله لا يحب الخائنين»(٢) .

ونلاحظ أن ختام الآية جاء منفرا من الغدر ، وملزماً بالوفاء بالعهد ، حتى مع المشركين أعداء الله وأعداء المسلمين ، فيجب على المسلمين أن يفوا لهم بعهدهم إلى أجله ما داموا لم يعتدوا على المسلمين ولم يناصروا المعتدين عليهم .

---

(١) سورة النساء ٩٧ — ٩٩ .
(١) سورة الأنفال ٥٨ .

— ٢ —

أصوات الشعراء

فلا غرابة فى أن دان الشعراء المسلمون بما شرعه الإسلام، فنفروا من الحرب المعتدية ، ودعوا إلى السلام الفردى وإلى السلام الدولى .

ولكنهم أرادوا السلام القائم على العزة والإباء وسلامة العقيدة وصيانة الوطن وكفالة الحقوق ، لا القائم على الضعف والمذلة والاستسلام والتفريط فى الحقوق .

١ ـ لهذا قال المتنبى : إن مطالب الناس لا تستحق أن يتعادوا ويتحاربوا ولكن الرجل الشجاع الأبى يؤثر الموت على الذل ، لأنه يوقن بأنه لا بد أن يموت سواء طال عمره أم قصر ، فمن العار والعجز أن يرضى بالجبن :

ومراد النفوس أصغر من أن نتعادى فيه وأن نتفانى
غير أن الفتى يلاقى المنايا كالحات ولا يلاقى الهوانا
وإذا لم يكن من الموت بُدٌّ فمن العجز أن تكون جبانا

ومن رأيه أن الحلم الصادر عن ضعف عذر قبيح يتذرع به اللئام ، والذى يحتمل الهوان مرة يحتمله دائماً ، لأنه يصير كالميت لا تؤلمه الجراح :

كل حلم أتى بغير اقتدار حجةٌ لاجئٌ إليها اللئام
من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميت إيلام(٢)

٢ ـ ولقد كان أمير الشعراء أحمد شوقى صادقاً فى وصفه الحرب الإسلامية بأنها أساس للسلم الدائم ، ووسيلة لحقن دماء البشر ، إذ قضت على ما كان

---

(١) ديوان المتنبى ٢٤١/٤ .
(٢) الديوان ٩٣/٤ .

يعج به العالم من شرور ومفاسد واستعباد واسترقاق، ونشرت على الناس ألوية الأمن والحرية والعدالة والمساواة والحضارة :

دَعَموا على الحرب السلامَ وطالما حقَنَتْ دماءً في الزمان دماء(١)

وليس أبرع في إجلال الحق وإعزازه وفدائه من تصويره بأنه عِرْض وشرف منسوب لله تعالى يجب على كل بطل أن يحميه بروحه ويفتديه بدمه :

الحقُّ عِرْضٌ بِهِ كُلُّ أَبِيَّةٍ بين النُّفُوسِ حِمًى لــه وَوِقاء(٢)

كذلك كان صادقاً في تفنيده مزاعم الذين اتهموا النبي محمداً عليه الصلاة والسلام بأنه كان محباً للحرب ومبغضاً للسلام، فقد دفع شوقي هذه الفرية بأن أصحابها إما جهال بحقيقة الغزوات النبوية وبواعثها، وإما عالمون لكنهم يضللون الناس، ويخفون الحق، ويجادلون جدلا عقيما، لأن النبي اضطر إلى أن يشهر سيفه بعد أن أعيته وسائل السلام والاستمالة والإقناع، وبعد أن صبر صبراً طويلاً على تكذيبهم له ومعارضتهم إياه، وبعد أن ناء بما يتحمل هو وأتباعه من اضطهاد وعدوان، ثم انتهى الحقد بقريش أن دبرت مكيدة لاغتياله، وحينئذ لم تقنع قريش، بل جعلت تطارده، وتجمع أمرها للقضاء عليه في وطنه الجديد، فلم يكن له بد من أن يشهر سيفه ليحمي نفسه ويحمي أتباعه ويكفل الحياة لدينه، فهو مدافع لا مهاجم، وهو داعية إلى السلام، وهو في أشد مآزقه حرجاً وفي أوسع ميادينه فرجا مؤثر للسلام على الحرب، ثم هو في حروبه كلها إنسان كامل ومثل عادل لا يمثل ولا ينكل ولا يخرب إلا إذا ألجأته ضرورة حربية، وهو بعد انتصاره سريع إلى العفو، رحيم بالمغلوبين.

ثم إنه بعد هذا كله لم ينتصر فيجبر أحدا على أن يسلم، ولم ينتصر خلفاؤه

---

(١) الشــوقيات ١/٢٨ .

(٢) الشــوقيات ١/٢٨ .

من بعده فيجبروا أحدا على الإسلام ، وإنما كانوا يتركون الناس أحراراً في أديانهم وعقائدهم ،لهم أن يسلموا طائعين راضين ،ولهم أن يبقوا على دينهم ويدفعوا الجزية ، لقاء حمايتهم ، ولقاء جزء من الزكاة التي يؤديها المسلمون(١).

ومعنى هذا أن حروب النبي كانت دفاعية، وكانت للرد على أعدائه ، ومن طبيعة الشر — كما قال شوقي — ألا ينجح في لقائه خير ، وإنما يحسمه الشر ، ويحفظ الناس من جرائره .

ولقد لجأ شوقي إلى التاريخ ليستمد منه الدليل على أن الشر من شأنه أن يتعاصى ويتمرد على الخير ، فقال إن المسيحية تعرف مقدار ما عانت من تشريد وتقتيل وتحريق ، يشير بهذا إلى أنها حوربت ثلاث مئة سنة إلى أن تنصر قسطنطين (٣٠٦ — ٣٣٧ م) فحماها ، فانتشرت واستقرت ، لكنها لم تستقر ولم تنتشر إلا بقوة ملوكها ، فكم من ملك أو أمير أذاع المسيحية أو نشر الكاثوليكية بسيفه مثل شارلمان وملوك فرنسا وقياصرة بيزنطة والروسيا وملوك المجر وغيرهم .

لهذا يعلم أتباع المسيحية أنفسهم أنهم طالما شربوا كؤوس الظلم دهاقا من أيدي حكام طغاة ، فلما هب لحمايتها وحمايتهم ملوك أقوياء نكلوا بالوثنية، وطاردوا أتباعها ، أمنت المسيحية، ولولا هذه الحماية القوية ما نفع المسيحية اعتمادها على الرحمة والرفق والاستسلام .

وختم شوقي دفاعه ببرهان آخر من حياة السيد المسيح نفسه عليه السلام ، فقال إن أعداءه اليهود قبضوا عليه ، لأنهم أقوياء وهو ضعيف ، وهموا بصلبه ، ولو لا فضل من الله عليه لسمروا جسده الشريف على لوحين من خشب في غير خشية أو تردد أو خجل ، لكن الله نجاه من أيديهم ، وشوقي

---

(١) سماحة الاسلام للدكتور أحمد الحوفي ٣ — ٧٠ .

بهذا يدين بقوله سبحانه وتعالى : « وما قتلوه وما صلبوه ، ولكن شبه لهم »(١).

على أنه عاد فى القصيدة نفسها إلى الحرب ، فذكر أن النبى صلى الله عليه وسلم علم المسلمين كل شىء ، حتى قوانين الحرب وما تقتضيه من ذمم ، وعلمهم كيف يجاهدون لحماية دينهم ووطنهم .

وفى رأى شوقى أن الحرب — ما دامت لحماية الدين والوطن — أساس فى النظام البشرى القائم على الصراع ، ولولاها ما قامت دول باذخة الحضارة ، واندثرت دول أنهكها الضعف والترف :

قالوا غزوتَ ورسْلُ الله ما بُعثوا ... لقتل نفس ولا جاءوا لسفك دم

جهل وتضليل أحلام وسفسطة ... فتحتَ بالسيف بعد الفتح بالقلم

لما أتى لك عَفْوًا كل ذى حسب ... تكفل السيف بالجهال والعَمَم(٢)

والشر إن تَلْقَه بالخير ضِقْتَ به ... ذَرْعا وإن تلقه بالشر ينحسم

سل المسيحية الغراء كم شربتْ ... بالصاب من شهوات الظالم الغلِم(٣)

طريدة الشِّرك يؤذيها ويُوسعُها ... فى كل حين قتالا ساطع الحدَم(٤)

لو لا حماةٌ لها هبُّوا لنُصرتها ... بالسيف ما انتفعت بالرفق والرُّحُم(٥)

لو لا مكان لعيسى عند مُرْسله ... وحرمةٌ وجبَتْ للروح فى القدَم

لسُمِّر البدن الطهْر الشريف على ... لوحين لم يخش مؤذيه ولم يَجم(٦)

ثم خاطب النبى بقوله :

---

(١) سورة النساء ١٥٧ .

(٢) العمم : العامة .

(٣) الصاب : جمع صابة وهى شجرة مرة . الغلم : الهائج الثائر .

(٤) الحدم : شدة احتراق النار .

(٥) الرحم : الرحمة والرقة .

(٦) لم يجم : لم يفزع .

علمتهم كل شيء يجهلون بـه حتى القتال وما فيه من الذمم
دعوتهم لجهـاد فيـه سؤددهم والحرب أسُّ نظام الكون والأمم
لولاه لم نر للدولات في زمـن ماطال من عَمَد أو قرَّ من دَعَم(١)

وشبيه بهذا مناجاته لرسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه إذا غضب كان غضبه للحق لا لحقد أو عداء قديم أو كراهية خاصة، وإذا كان النبي قد حارب فإن حربه كانت لنصرة الحق فهي فريضة، والحرب علاج أحياناً للشر لا ينجع سواه، كالسم الناقع الذي ينجع في الدواء في بعض الحالات .

ولقد كانت حروب النبي دفاعية ومقرونة بالرحمة والمسالمة، ومبرأة من الطغيان لأن الحروب التي تشعلها الكبرياء والمطامع والبغي تهدم شرف مشعليها، وتباعد بينهم وبين المجد الذي يسعون إليه .

أما غزوات رسول الله فإنها كريمة ورحيمة أرضت الحق وأعلت قدره، وكانت عاقبتها خيراً على العالم وبركة وهداية إلى التوحيد وإنقاذاً من الشرك والوثنية، ثم كانت إعزازاً للسلام وتأييداً له، لأن السلام لا بد له من قوة تدعمه وتصونه :

وإذا غضبت فإنما هي غضبةٌ في الحق لا ضِغْنٌ ولا بغضاء
الحرب في حـق لديك شريعة ومـن السمـوم الناقعات دواء(٢)
والحرب من شرف الشعوب فإن بَغَوْا فالمجـد مما يَدَّعـون بَرَاء(٣)
كم من غزاةٌ للرسول كريمـة فيهـا رضـا للحق أو إعلاء(٤)

---

(١) الشوقيات ١/٢٥١ عمد : جمع عمود . دعم : جمع دعامة وهي عماد البيت والمراد ما يستقيم به نظام الأمة .
(٢) لسموم الناقعات : القاتلات .
(٣) بغوا : ظلموا . براء : بريء .
(٤) غـزاة : غـزوة .

كانت لجنــد الله فيهــا شدة   فى إثرهــا للعــالمين رخــاء
ضربوا الضلالة ضربة ذهبت بهــا   فعلى الجهــالة والضلال عفاء(١)
دَعَموا على الحرب السلام وطالما   حقَنَتْ دماءً فى الزمان دماء(٢)

وكثيرًا ما أشاد شوقى — وهو داعية إلى السلام — بالجهاد لتحرير الوطن من الاحتلال والعبودية ، وكثيرًا ما أشاد بالأبطال المجاهدين من محاربين وزعماء وشهداء ، كقوله إن للوطن على كل فرد من بنيه نعماً سابغة سالفة تقتضيه أن يقابلها بمثلها ، فهى كالدين الواجب الأداء ، وإن الأحرار هم الخلقاء بأن يردوا حياض الموت ، يوردوها غيرهم ، ولا يقوم الملك على دعائم أقوى من الشهداء ، ولا يكفل الحقوق ويصونها مثل الضحايا والمجاهدين ، وإذا كان بعض المجاهدين يقتل ، وبعضهم يؤسر ، فإن القتلى يحيون الأجيال القادمة ، والأسرى يفتدون المواطنين ويحررونهم من العبودية .

ويختم هذه الصورة بأن الحرية التى لا تنال إلا بالدم والتضحية حصن له باب مغلق لا ينفتح إلا بدقات متوالية من أيد قوية مضرجة بدم الجهاد :

وللأوطــان فى دم كل حــر   يدٌ سلفت ودَيْن مُسْتحقُّ
ومن يسقى ويشرب بالمنــايا   إذا الأحرار لم يُسْقَوا ويَسْقوا
ولا يبنى الممالك كالضحايا   ولا يُدْنى الحقــوق ولا يُحق
ففى القتــلى لأجيــال حيــاة   وفى الأسرى فِدًى لهم وعتــق
وللحــرية الحمــراء بــابٌ   بكل يــد مضرجــة يُدَقُّ(٣)

---

(١) عفــاء : زوال .
(٢) الشــوقيات ١/٢٣ — ٢٨ .
(٣) الشوقيات ٢/٩١ عتق : حرية . مضرجة : مصبوغة بالدم .

الشعراء والريف

الشعـراء والريف *

طالما تغنى شعراء العصر الحديث بالريف حقولاً وجداول وزروعاً وجواً وسكوناً ووداعة سكان وجمال فتيات، فقرضوا قصائد كثيرة في وصف الفلاح وفي وصف الريف.

وهذه القصائد ضربان

ضرب لم يتجاوز الوصف المعجب إلى قضية الفلاح أو ما يتصل بها من قرب أو من بعد. وضرب تجاوز الوصف إلى القضية وإلى مناصرة الفلاح.

— ١ —

من الضرب الأول وصف البارودي للريف في فصل الربيع بأن المطر غمره فجرت الجداول بالماء وفاضت وازدانت الحدائق بأزهارها، وطربت البلابل فغردت. وبدت النخلات الباسقات تميس في أعاليها قباب من الجريد الأخضر. وتتدلى من صدورها عناقيد البلح الأحمر القاني والأحمر الناصل المخضب بالحمرة كأنه الأنامل اللطاف أو القناديل الذهبية والعراجين سلاسلها.

عم الحيا واستنت الجـداول	وفاضت الغـدران والمناهل
وازينت بنـورها الخمائل	وغـردت في أيكهـا البلابل
والباسـقات الشمخ الحوامل	مشمورة عن سوقها الذلاذل
ملوية في جيدها العثاكل	معقودة في رأسها الغـلائل
البسر فيهـا قاني وناصـل	مخضب كأنه الأنامـــل

* مجلة العربي رمضان ١٣٩٤ تشرين أول ١٩٧٤ .

كأنه من ذهب قنادل   من العراجين لها سلاسل(١)

وفيه قول محمود غنيم

عشقوا الجمال الزائف المجلوبا   وعشقت فيك جمالك الموهوبا
كست الطبيعة وجه أرضك سندسا   وختمت نسيمك إذ تضوع طيبا
مالت على الماء الغصون كما انحنت   أم تقبل طفلها المحبوبا
وبدا النخيل غصونه فيروزج   يحملن من صافى العقيق حبوبا
والغيد تغمس فى الغدير جرارها   فيظل يضحك ملء فيه طروبا
وترى الجداول فى الأصيل كأنها   من فضة فيها النضار أذيبا

وبلغ الإعجاب بمحمد طاهر الجبلاوى أن صور خوار البقر وثغاء الغنم موسيقى ، ثم توهم فى الريف ظباء سمع بغامها ، أو أطلق البغام على صوت النوق :

وخوار وثغاء وبغام   تبعث البهجة فى كل مكان
هى موسيقى جلال وانسجام   تبعث الدنيا بها فى مهرجان

ولكل من الشعراء المعجبين بجمال الريف نظرة تلائم نفسيته وخياله وثقافته وبيئته ، فالفأس التى يحفر بها الفلاح التربة يتصور محمود حسن إسماعيل فى يدها الخشبية سرا يمر على الصخر فيخيله تربة تنبت الزهر والورد :

حملت فأسه من الغيب سرا   حير العقل كامن من صفاته
خطب يابس يمر على الصخ   ر فتزهو الورود فى جنباته

ويتخيلها عبده بدوى تنقب فى الثرى عن فكرة :

وقمنا نعمق ضوء النها   ر بفأس تنقب عن فكرة

---

(١) استننت : جرت . الشمخ : العالية . الدلادل : الأطراف . العثاكل : المراد العناقيد . الغلائل . جمع غليلة وهو الشعر المجتمع . العراجين : أصول الكباسات . البسر : البلح .

والساقية التى تدور لترفع الماء من الترعة أو من البئر إلى القناة لها صوت ، اختلف الشعراء فى تصويره ، فصورها البارودى تبكى وتنوح ، ولكنه لم يبين باعث بكائها ولا هدف نواحها :

للمنجنون بينها أزامل تخالها محزونة تسائل
لها دموع ذرف هوامل كأنها أم بنين ثاكل(١)

وتخيلها محمود حسن إسماعيل تنوح على الثور الذى يجرها :

دعوبة الشكوى على راسف فى الذل مفجوع على جلده
شدت حبال الذل فى رأسه وفت صرف الدهر فى كبده
منادح الضجة فى أذنه وملعب السوط على جلده

وكثيرا ما هتف الشعراء بجمال الحسان من فتيات الريف ، كقول شاعر البرارى يصف ريفية حسناء تسلقت شجرة توت لتجتنى منها :

صعدت ترى الأغصان غض قوامها ما أشبه القامات بالأغصان
وحننت على بعض الغصون فخلتها نشوانة مالت على نشوان
مدت أناملها فقلت لصاحبى أرأيت كيف تقابل الثمران ؟
توت بعناب الأنامل يجتنى ما أرخص المجنى وأغلى الجانى

— ٢ —

وصف أحوال الفلاحين :

أما الضرب الثانى فإنه يصور أحوال الفلاحين الذين رزحوا تحت الظلم

---

(١) المنجنون : دولاب الساقية . الأزامل : جمع أزمل وهو الصوت المختلط . ذرف مذرفة دافقة .

والحرمان والبؤس منذ الفتح العثمانى إلى أوائل القرن العشرين .

فقد عاش الفلاح أحقاباً لا يقتات من الطعام إلا بالضئيل الضرورى الخشن الذى يسد جوعته ، ولا يتناول من الشراب إلا الماء العكر الذى يروى ظمأه ، وفى هذا الشراب وذاك الطعام أصناف من جراثيم أمراض تتزاحم فى أجساد ، لولا وثاقة تكوينها ومتانة بنائها وأشعة الشمس وصفاء الهواء والقناعة والصبر ، لكان الهلكى أضعاف من هلكوا .

وكان من الطبيعى ألا يجد هذا الفلاح البائس من الملابس إلا الزهيد الذى يستر العورة ، وألا يسكن إلا فى كوخ قذر يجاور فيه ماشيته .

فلنصغ إلى أديب إسحاق وهو يصور بعض هذا فى مقال له عنوانه(نفثة مصدور) وازن فيه بين الفلاح المصرى والفلاح الأوربى ، فقال : « رأيت فلاحهم فى حقله الصغير يتناول الطعام أكلا مريئاً ، وينام القيلولة نوماً عميقاً ، يأتى إلى بيته فيأكل بين عياله ، ويتلو عليهم صحيفة النهار ، ثم ينام ملء عينيه لا يحلم بسوط المأمور ، ولا يتصور عصا الشيخ ، ولا يذكر حبس المدير ، فتخيلتكم بين السواقى والأنهار تشتغلون سحابة اليوم ، ثم تجتمعون على القصعة السوداء ، فتلتهمون فتات الشعير ، وتنكبون على الترعة فتشربون الماء الكدر ، ثم تعودون إلى الأرض المريعة تزرعونها ، وإلى الغلة الوفيرة تحصدونها ، لتنصرفوا إلى أكواخ بالية ، تشبه قبوراً توالت عليها السنون ، فيجتمع من حولكم صغار لا تعرف أبدانهم الوقاء ، ونساء تعوضن الأقذار عن الكساء ، ثم يأتيكم المأمور سالباً ، والشيخ غاضباً ، والمدير ناهباً ، فأنتم فى بلاء مستقر ، وعناء مستمر ، تحصدون البر ولا تأكلون ، وتملكون الأرض ولا تسكنون ، فقلت : ما علة هذا الفرق بين الطائفتين ؟ فأجابنى لسان الحال : هو العلم يعز طلابه ، والجهل يذل أربابه ، والإقدام ترتفع به النفوس ، والوهن تنخفض معه الرءوس » .

فلا غرابة فى أن تنبه فريق من الشعراء إلى شقاء الفلاحين وبؤسهم ، ويسخطوا على ما يعانون من جشع المالكين وقسوتهم ، ومن إهمال الحكام وترفعهم ، فعبروا عن هذا كله فى شعر كان من بواعث اليقظة ومن مقدمات الثورة .

وربما كانت أول صيحة شعرية تلك القصيدة (الفلاح المصرى) التى نشرها أحمد الكاشف سنة ١٩١٢ ومنها :

إذا استبقيتُ فى الدنيا حبيبا ... فخير أحبتى فلاح مصرا
كريم يملأ الوادى ثـــبـراء ... ولا يلقى سوى الإجحاف أجرا
فقير ما أراه شكا افتقـــارا ... ولو يُجزى على تعب الأثرى
فحـــراث يشق الأرض عندى ... ويخرج من ثراها الخصب تبرا
كسيف فى يد الجندى لاقى ... به جيشا وحصنا مشمخرا
فلو عرف الصواب التركُ قومى ... لما احتقروا له عملا وقدرا

ولما استحكمت الضائقة المالية فى أوائل العقد الرابع من هذا القرن ، وكسدت سوق المحصولات الزراعية ، واشتد الضنك بالفلاحين ، أسى أحمد محرم ونشر قصيدة سنة ١٩٣٢ وصف فيها بؤس الفلاح ، ونضوب موارده ، وعجزه عن سداد دينه ، منها قوله :

هلا سألت عن الفلاح ما صنعت ... به الخطوب وهل أبقت له جلدا ؟
جفت موارده القصوى فطاح به ... ما ذاق من عنت الأيام أو وردا
إن يطلب المال تعجزه وسائله ... وإن يصبه يجده صاحبا لكدا
عون الكنانة إن أودى به جدث ... فلن ترى بعده عونا ولا عضدا

وصور محمود غنيم بؤس الفلاح فى حوار بينه وبين لؤلؤة يزدان بها غنى ، فقال :

شاهدت لؤلؤة كالبرق تأتلق ... على جبين أمير سار مختالا

فقلت : ما أنت؟ قالت : إني عرق . . . من جبهة الزارع المسكين قد سالا
الناس تنعم والفلاح يحترق . . . وليس يُحرز لا جاها ولا مالا
امتصه الناس حتى ما به رمق . . . كأنه صُبَّ للإيثار تمثالا

وتخيل شاعر البرازى التناقية تئن على الفلاح البائس الحزين ، وتبكى بدموع غزار تستعطف بها الناس وتستعطف الدهر إشفاقاً على الفلاح ورحمة به :

لم تستطع أن ترى الفلاح مكتئبا تستشعر الفقر فى واد يفيض غنى
فاستعطفتنا بأنات مطـولة وأوقفت دمعها يستعطف الزمنا

وقد أسف محمد خليفة التونسى لأنه رأى الفلاحات فى أردية سود باليات ، فكأنهن موميات :

أفعصر الفلاح يرضى لفـلا ح جاتنا لعنة السنين العجاف ؟
لهف نفسى هزلن جوعا وكدحا ضامرات الشـدى والأرداف
موميات يسعين فى طرق القر ية أو فى الحقول كالأطياف
كاسفات الوجوه فى الخرق السو د كبالى الأكفان دون كفاف

ولم يقتصر ذلك الضيم على الفلاح المصرى ، بل تعداه إلى إخوانه فى العالم العربى ، ويكفى أن نذكر بعض ما رثى به شعراء العراق حال فلاحيهم ، لنجدهم توافوا جميعاً على صور واحدة تصلح هنا كما تصلح هناك .

فهذا على الشرقى يعلن أساه سنة ١٩٢٥ على أحوال الفلاحين بالعراق ، إذ يشكو من فقرهم وشقائهم فى قصيدته (منجل الفلاح) ويوازن بينهم وبين الحيوانات التى تمرح فى الحقول طليقة خلية مسرورة . فيفضل حالها على حالهم :

ما لهذا الفلاح فى الأرض روح أهو من معشر بلا أرواح ؟
هو فى جنة ينال عـذابا وهو تحت الأشجار أجرد ضاح

وقوى النمل لهف نفسي أثرى	من قراة إلا من الأتراح
أرهقته ضرائب باهظـــات	وديـــون ثقيلـــة الأرباح
تبتعد الشاة فى المراح وراعى الشا	ة يلقى شقاءه فى المراح

وهناك دعا الزهاوى إلى إنصاف الفلاحين ومساواتهم بمالكي الأرض قبل أن تنادى الثورة بهذا فى العراق :

إن من كدوا يزرعون البقاعا	أشبعوا غيرهم وباتوا جيـاعا
ومن العدل أن يكون نتاج الـ	أرض بين المستثمرين مشاعا

ونجد مثل هذا فى شعر محمد مهدى الجواهرى ومحمد صالح بحر العلوم وأحمد الصافى النجفى .

— ٣ —

لكن بعض الشعراء لم يكتفوا بالإشفاق على الفلاح والدعوة إلى إنصافه بل سخط بعضهم على الشعراء الذين تغنوا بجمال الريف ، وزخرفوا مناظره بخيالهم ، غافلين عن الفلاحين الكادحين الأشقياء ، ووصفوا شعر أولئك الشعراء بأنه أوهام وأباطيل لا صدق فيه ولا فن ، قال محمد كمال عبد الحليم فى قصيدته (الشاعر التائه) :

أنت تخلو إلى النجوم إلى الزهـ	ـر إلى الطير حينما يتغنّى
ربة الخمر باركتك فغنيـ	ـت هراء ورحت تسأل دنّا
فى سماء الخيال ضمّ جناحيـ	ـك فتقع بيننا فتصبح منّا
دع جمال الخيال وادخل كهوفا	للملايين وارو للكون عنـا
إنما الفن دمعــة وطيب	ليس هذا الخيال والتيه فنا

فلما حددت الثورة ملكية الأرض الزراعية ، ومحت الإقطاع ، وأصدرت

قانون الإصلاح الزراعي رحب الشعب ، وصدح الشعراء ، كقول علي الجندي :

ذهـب الحقـد والحسد ومضى البـؤس والنكـد
وانقضى الظـلم وانطوت دولـة الصيـد والصيد(١)
والتقى النـاس إخـوة لا ذئـاب ولا نقـد
وتسـاوى بنـو الغنى وبنـو الفقر في الرغـد

هذه لمحات إلى إعجاب بعض الشعراء بالريف ، وإلى إشفاق بعضهم على الفلاح ، وهم جميعاً من أبناء الريف ، نشأوا به وعرفوا طبيعته ، أو خالطوا أبناءه ، واتصلوا بهم اتصال قرابة وجوار .

د . أحمد الحوفي

---

(١) الصيد : المتكبرون . الصيد الكبر . النقد : جنس من الغنم قبيح الشكل .

مراجع هذا البحث

١ — إحياء علوم الدين . الغزالى : المطبعة العثمانية المصرية بالقاهرة ١٣٥٢ هـ — ١٩٣٣ م .

٢ — الإسلام : خواطر وسوانح . الكونت هنرى دى كاسترى . ترجمة أحمد فتحى زغلول باشا .

٣ — الإسلام فى شعر شوقى . الدكتور أحمد الحوفى . المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

٤ — الأغانى . أبو الفرج الأصفهانى . مطبعة دار الكتب بالقاهرة .

٥ — الأمالى . أبو على القالى . مطبعة دار الكتب بالقاهرة ١٣٤٤ هـ — ١٩٢٦ م .

٦ — ترانيم الليل . على الجندى . دار المعارف بمصر ١٩٦٣ م .

٧ — جمهرة الأمثال . أبو هلال العسكرى . على هامش مجمع الأمثال للميدانى . المطبعة الخيرية بالقاهرة ١٣١٠ هـ .

٨ — حضارة العرب . جوستاف لوبون . ترجمة عادل زعيتر .

٩ — الحماسة . البحترى : المطبعة الرحمانية بمصر ١٩٢٩ م .

١٠ — الدعوة إلى الإسلام : السير توماس أرنولد . ترجمة الدكتور حسن إبراهيم وزميليه .

١١ — ديوان ابن الرومى . نشرة كامل كيلانى . مطبعة التوفيق الأدبية بمصر .

١٢ — ديوان أبى تمام . المطبعة الأدبية ببيروت ١٨٨٩ م .

١٣ — ديوان أبي الطيب المتنبي. مطبعة مصطفى البابي الحلبي. ١٣٥٥ هـ — ١٩٣٦ م.

١٤ — ديوان أبي فراس الحمداني. جمعه ونشره الدكتور سامي الدهان. بيروت ١٣٦٣ هـ — ١٩٤٤ م.

١٥ — ديوان إسماعيل باشا صبري. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٥٧ هـ — ١٩٣٨ م.

١٦ — ديوان بشار بن برد. نشره محمد الطاهر بن عاشور. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٦٩ هـ — ١٩٥٠ م.

١٧ — ديوان الجارم. علي الجارم. دار المعارف بمصر.

١٨ — سماحة الإسلام. الدكتور أحمد الحوفي. المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

١٩ — شرح ديوان الحماسة. التبريزي. مطبعة بولاق ١٢٩٦ هـ.

٢٠ — شرح ديوان الحماسة. المرزوقي. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٧١ هـ — ١٩٥١ م.

٢٢ — الشوقيات. أحمد شوقي. مطبعة مصر.

٢٣ — صرخة في واد. محمود غنيم. مطبعة الاعتماد بمصر.

٢٤ — العقد الفريد. ابن عبد ربه. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٥٩ هـ — ١٩٤٠ م.

٢٥ — فتح المبدي بشرح مختصر الزبيدي لصحيح البخاري. الشيخ عبد الله الشرقاوي. مطبعة مصطفى البابي الحلبي ١٣٣٩ هـ.

٢٦ — كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال. علاء الدين المتقي بن حسام الدين الهندي. مطبعة دائرة المعارف النظامية بحيدر أباد الدكن ١٣١٢ هـ.

٢٧ ـ المستطرف فى كل فن مستظرف . الأبشيهى . المطبعة الميمنية بمصر ١٣٠٨ هـ .

٢٨ ـ المعانى . أبو هلال العسكرى . مكتبة القدسى ١٣٥٢ هـ .

٢٩ ـ المغنى عن حمل الأسفار فى تخريج ما فى الإحياء من الأخبار زين الدين أبو الفضل عبد الرحيم العراقى . على هامش إحياء علوم الدين للغزالى .

٣٠ ـ لزوم ما لا يلزم . أبو العلاء المعرى . تحقيق وشرح إبراهيم الإبيارى مكتبة صادر ببيروت .

فهرس الكتاب

كتب مطبوعة للمؤلف

١ ــ وطنية شوقى
٢ ــ الإسلام فى شعر شوقى
٣ ــ النسيب فى شعر شوقى
٤ ــ الفكاهة فى الأدب
٥ ــ أدب السياسة فى العصر الأموى
٦ ــ أبو حيان التوحيدى
٧ ــ البطولة والأبطال
٨ ــ سوسن ــ رواية قصيرة
٩ ــ مع ابن خلدون
١٠ ــ الغزل فى العصر الجاهلى
١١ ــ المرأة فى الشعر الجاهلى
١٢ ــ أغانى الطبيعة فى الشعر الجاهلى
١٣ ــ تيارات ثقافية بين العرب والفرس
١٤ ــ الحياة العربية من الشعر الجاهلى
١٥ ــ المثل السائر لابن الأثير ــ تحقيق وتقديم وتعليق (بالاشتراك)
١٦ ــ الطبرى
١٧ ــ الجاحظ
١٨ ــ الزمخشري
١٩ ــ فن الخطابة
٢٠ ــ من أخلاق النبى

رقم الايداع : ٨١/٢١٣٩
٩٧٧ ـ ٧٣٤١٠ ـ ٨٣ ـ ٠

مطبعة القاهرة الجديدة
٣٣ شارع الجيش ت : ٩٠٤٢٨٦

